عالية ممدوح

الغلامة

رواية



دار الساقي

«الغلامة» ليست تجربة امرأة بعينها، بل هي سيرة النساء والرجال المضطهدين في أقبية التعذيب والمعتقلات، والآخرين في ايديولوجياتهم ونزعاتهم المازوشية.

«الغلامة» سَوْرة المرأة في شرقنا على مفاهيم البنى الإجتماعية والسياسية والحزبية التي يديرها الرجال على مختلف شرائحهم وتنوّع مشاربهم.

«الغلامة» لغة جريئة تعزي نماذج أبطالها في ضوء هستيريا محاكاة الألم عقب الاغتصاب والتعذيب.

هذه الرواية ـ الولع ـ بديعة جديرة بأن تحتل مكانتها في الصفوف الأولى من إنجازات الرواية العربية الحديثة على إطلاقها ودون أن نقصر السياق على الرواية النسائية فقط.

إدوار الخراط

لنقل إن نماذج عالية ممدوح قدمت ذواتها بجرأة فائقة قلما نجدها في أدبنا المعاصر. جرأة ترفعت عن الابتذال واحتضنت في كثير من المواقف لحظات شعرية مدهشة، في تعري الحب ونهوض الجسد.

يمنى العيد

نسجت لنا الكاتبة في رواية الولع، نوعاً من الحبكة الارسطية ذات الوحدات الثلاث بلغة شفيفة تعتمد على تجاور مرايا الذات وتقاطعها، بنية قادرة على توليد الدلالات، وشعرية متميزة يمكننا أن ندعوها بشعرية الإخفاق والجَلْد والأمل في وقت واحد.

صبري حافظ

ISBN 1 85516 394 2

DAR
AL SAQI
دار الساقي

صدر للمؤلفة

- افتتاحية للضحك ـ قصص قصيرة، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣.
- هوامش للسيدة ب ـ قصص قصيرة، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٧.
- ليلى والذئب، رواية، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٠.
- حبات النفتالين، رواية، الهيئة المصرية للكتاب، دار فصول، القاهرة، ١٩٨٦.
- مصاحبات. قراءة في الهامش الإبداعي، مقالات، دار عكاظ، المغرب، ١٩٩٣.
- الولع، رواية، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٥.
- ترجمت رواية النفتالين ضمن «ذاكرة المتوسط»، مقرها في أمستردام، إلى اللغات التالية: الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، الهولندية، الإسبانية والكتلانية.

تصميم الغلاف: يوسف عبدلكي

عالية ممدوح

الغلامة

رواية



دار الساقي

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

ISBN 1 85516 394 2

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb
DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

«الإنسان كالعنبر ينبغي طحنه لكي تتضوع رائحته».

لوبستر ألاليصاباتي

- امتزجت كلمات، أقوال، فقرات وآراء لبعض المفكرين والشعراء والكتاب من العرب والأجانب، القدامى والمحدثين في صفحات هذا الكتاب. مضافة إليها نصوص ورسائل وكتابات من المؤلفة وإليها، وفي فترات متباعدة، فوضعت بين قوسين صغيرين « ». للأمانة والتحفظ أسجل هذا.

- شكر خاص للصديق والكاتب العراقي عبد الأمير الركابي الذي أتاح لي الاستئناس برأيه، وفتح لي خزانة ذاكرته ومكتبته بأريحية عراقية.

- شكر خاص للصديق الناقد الدكتور العراقي محسن الموسوي الذي أهداني كتاب شقيقه المهم، فأضاء لي الكثير من المواقف، وأجاب عن أسئلة كثيرة.

- شكر للزميلة «ح. ن» التي فتحت لي مكتبتها بسخاء.

المحتويات

- ١ -

اللهم إنني

اللهم احفظني عن الكمال كي أظل في حاجة إلى بنائين وبناء.

اللهم دعني في حيز اليأس كي لا يتم إنقاذي.

اللهم لا تنجدني إذا ما زلت القدم واستفحل الداء، إذا راودني الصديق قبل العدو، والطبيب قبل المرض.

اللهم لا تدعني أتساوى لا مع الغالب بمثقال ذرة، ولا مع المغلوب بدرهم رغوة.

اللهم دعني أتعلم الحراسة على الشقاء كي أسدد بها إيجار روحي.

اللهم دعني في الطرف الأقصى. بين بين من القصص والغصص كي أتلذذ بالدم والندم، بالغرائز والتهم.

اللهم أصفق الأبواب خلفهم، كلهم، جميعهم وبلا استثناء كي يحرم عليّ خبز الانتظار.

اللهم وفّر لي لعاباً ساماً كي أجهز به على طرائدي الأشداء، ولساناً كالترياق يشتاق كلمات الشيطان. لحماً صحيحاً، وباطناً يزلزل الأبصار ويهزل الأعداء فيكتمل الانتفاع.

اللهم اجعل المزاج معتدلاً والضرر مكتملاً. الشحم عظيماً والعظم غليظاً والشهوة هرماً.

اللهم ضع هؤلاء وأولئك أمامي، بالمفرد والجمع: بالمشايخ وذوي

الأبدان الضعيفة والسخيفة والخفيفة؛ موظفي الدولة، العمداء والمدراء، رجال الدعة والأطايب والنياشين وذوي القربى وأبناء آوى والخال، والذي يحذو حذوهم، أولئك الواقفين في الباب: الشرطة، الأطباء، الرياضيين، الممثلين، رجال الأعمال، وأصحاب الحرف الموقتة والأمزجة الباردة والفاترة واليابسة، خصوصاً الذين يثيرون لديّ شهوة الاستفراغ.

اللهم حرِّرني من الفرح والسرور، من الجذل والحبور، وأكثر من الضرّ والظلم، وفي أجود الأوقات، اللهم آمين.

- ٢ -

المخلفات

إن مخلفات الاحتقار والكراهية أشنع من مخلفات القنابل الذرية. وها أنا أقوى على تحريك يدي اليمنى وأحاول الانفكاك رويداً رويداً من حدود تلك الحقب، ذاهبة قدماً للإفلات، لكي يتسنى لي دفع عربتي وإلى الأخير قبل إغلاق الأبواب والشبابيك في وجهي، قبل أن يعود اللاعب ذاك، واللاعبون ثانية، ويبدأوا في طلب الحظوة مني ويسبقوني إلى بقعتي العزيزة تلك، مكاناً للسكنى وموضعاً للتنازع.

حين انحنى أحدهم كثيراً أمامي فقارب وجهي. حذاؤه لامع، جديد وشبه مكوي من الصوت الذي تبعثه الجلود الجديدة في الآذان. سرواله رمادي غامق. قدرت درجة اللون رغم العتمة الخفيفة التي وضعت فيها.

كانت كسرات السروال كأنها كويت قبل خمس دقائق، والنسيج من النوع الفاخر: صوف إنكليزي. ما زالت حاسة البصر تشتغل بصورة حسنة رغم الأورام التي ضربت عيني وفكي وأجزاء من الرقبة. بدأ برفع رأسي بيده إلى أعلى، أعلى، ومن بين القذى والدمع اليابس والخيالات المغبشة كان بوسعي أن أقلبه وأثنيه بين يدي كما يفعل هو في تلك الساعة المحيرة ما بين الصحو والنعاس. هذه ثياب مدنية، هفهافة، ونظيفة. ويده حتى المرفق معطرة بأجمعها. أصابعه، حين يدفعها إلى وجهي يطيش الفوحان إلى نهايات أنفي: رائحة تبغ مسكر، مقطوف للتو، مسوّى في الحال، ومورث قبل ثوان. الرائحة كانت فضلة من بقايا دم، دم صحيح، هادي

وعذب، امتزج أريجه بقطرات كولونيا فوّاحة، فانطبعت جميعها: التبغ، الدم والعطر، فردتني إلى حفل راقص قديم. يدير رأسي، يضعه مواجهة رأسه. يقرفص أمامي، نازلاً إلى حيث أنا. تلك الرائحة جعلتني أدقق النظر فيه وأتراخى، رغم السلك الرفيع الذي أوثق يدي وساقي. أمسك رأسي بمودة باليد اليسرى وباليمنى أخرج ولاعة وبدأ يدقق من خلال اللهب في ملامحي. أغلقت جفني حالاً لكنه اقترب حتى كاد يحرق خصلات شعري اللابدة من العرق الشديد.

سترته كانت هي الأخرى من النوع الأنيق الفاره. بدأت بسماع نبضه عبر حركة يده على صدغي. نظراته كانت مستهزئة، حاذقة وعدوانية، فيها كل هذا لكنه لا يبالي. رجل محشو بالأحداث الجديدة، الكبيرة، والطارئة، تلك التي ستطرأ وطرأت مجدداً عليه وعليّ.

هو كان مرافقي في تلك الساعات. رجل وسيم، لطيف، معطر، ذوّاق ولذيذ. ولما بدأ يشعل ويطفىء اللهب على كل أجزائي، اعتقدت أنه مستعد أن يقرضني مالاً وفي الحال فيما لو طلبت ذلك منه. ساحر لكن بلا صوت، لا منه ولا مني. أنفاسي مهلهلة ورثة. وهو يتوفر على أسطول من الأنفاس اللامعة. حتى أصوات الصراخ والعويل، التي ظللت أصغي إليها بانتباه في الساعات الأولى من وجودي هنا تلاشت. كلا، لم تختف، لكنني لم أقو على سماعها. وضعوا حواجز، ليس على أذني، لكن على الصوت البشري. وبيديه الاثنتين، كأنهما ليستا يديه، «يده بمقدورها الضم والعناق». حين بدأ يسحبني من الكتفين، والمكان يزداد اتساعاً عليّ، شعرت لثانية أنني ارتفع ببطء، أقفز ثم أطير كالنورس. يده آسرة حقاً.

ـ امسكيني. لا تتصلبي. قفي. سأفك الأسلاك.

أهوي عليه وأتلاشى ثانية فأرتطم بالأرض العارية. أصدقاء قدامى كأننا، أو على وشك. إن الإعجاب هو الخطوة الأولى للتقارب. وكتفي

لم تخلع بعد. وبدأ يسميني بأسمائي التي أمقت:

ـ صبوحة. صبيحة...

جسّني. حل الذراعين ونزل إلى الساقين. كان يفحصني بطريقة مثالية كأنه يريد تدريبي على رياضة جديدة.

ـ هجران تسأل عنك، وهدى، الحاجة وفيقة وعادل وخالتك فخرية. هجران هي التي أرسلت في طلبي كي أكون بجوارك. ها، انظري كل هذه الأكياس من الطعام. ركزي معي صبيحة، كيف لمن كانت مثلك أن تخاطر وتخبىء أسراراً علينا؟ أي بدر، لا تهتمي بالتفاصيل. بعدين. لكن. هو وربعه... بدر؟ أين هو الآن؟ أين تتوقعين أن يكون؟

العناية الإلهية أرسلت إليّ هذا المخلوق، طبيب العوائل العراقية ومحامي الطرف ومتولي جامع أبي حنيفة. وهذا المكان: النادي الأولمبي. وبدر، أين بدر حقاً؟

ـ ما زال حياً ويقاوم.

من كان؟ أجر على مهل ومنامتي المنزلية من القطن الزهري توحل لونها. بابوجي أبو الفرو الناعم جز وبره فبدا أصلع.

ـ الحقيقة. نريد الحقيقة يا صبيحة وفقط.

«الحشود لا تشعر أبداً بالتشوف إلى الحقيقة».

ـ لا تتهوري كما فعل غيرك. أفراد أسرتك بانتظارك. عال، سجلك عادي إلا من بعض النزوات، لكن لا يهم، فقط بدر.

جيئة وذهاباً كان يتجول أمامي. بغتة توقف سيره وغمر المكان ضياء غليظ. بروجكترات لا أدري أين كانت مخبأة، كأننا فوق خشبة مسرح ونشهد من تلك الحشود إقبالاً منقطع النظير. وأشياء عديدة بدأت تتضح: يدي وأنا أضعها على حجري بدت مكبرة كما لو كانت موضوعة تحت مجهر. أرى عروقها نافرة، وارمة وصفراء. لم أر الألم، كان موجوداً

لكنه رفيع ومضموم في الداخل. وكلما كان يحاول رفعي أعود هابطة إلى الأرض ذات الطابوق العريض المدعوك بآثار الأقدام. حيطان عليها بقايا سخام وحرائق حديثة. خزائن من الخشب العتيق متضاربة في الأشكال الهندسية وفي داخلها تصطف أعداد كثيرة من كؤوس فضية بأحجام مختلفة؛ بدءاً بسعة الكف، مروراً بالكأس الأصولية الضخمة الموضوعة في صندوق من القطيفة ذات اللون الأخضر الناشف، وانتهاء بكأس كانت تشبه هيكلاً لأثر قديم. سبق أن رأيت مثلها في بيت هجران:

ـ أي هذه كأس أبي، ذاك نوط الشجاعة، وهذه نياشين الحروب التي خاضها.

من الجائز أن أكون موجودة الآن في غرفة المدير، مدير النادي، وفي الطابق الأعلى. لا أدري. تخليت عن وصف مكاني هذا وصدقت انه مجرد مكان تتم فيه اللقاءات اليومية وحتى الغرامية، وان هذا التراب والأصوات المرتفعة في السماء لهدير الطائرات ما هي إلا دعوة نموذجية للاستعراض الشعبي والتعارف في وقت واحد ولا يجوز أن يتم إلا تحت ضوء ساطع كهذا الذي ظهر فجأة. ومعطفي الواقي من المطر لا أدري أين اختفى وسط المعمعة. وضعه على كتفي أحدهم، عندما وصل ثلاثة رجال ليلاً، متفاوتي الأطوال وليسوا أشداء، كأنهم دخلوا فندقاً، أوقفوا سيارة الجيب العسكرية أمام الحوش وتركوها دائرة. وأعمار الثلاثة كانت تتراوح بين العشرين والثلاثين. لما ضربوا الباب بجزمهم الثقيلة، فكرت خالتي أنه شاكر. من المؤكد أن يكون هو، لأنه يضرب الباب هكذا لما يعود ثملاً ويشعر بالملل والضيق. حضر قبل الالتحاق بعمله الجديد في مديرية الأمن العام في بغداد. تصورت خالتي، ياه، كم كانت تتصور جميع اللقطات الأولى والأخيرة، وتلك التي لم تبدأ بعد. حضروا من أجل شاكر على سبيل عقد الصداقة، وما هم إلا رفاق الخمرة والطاولات التي تفرغ وتمتلىء بعد الساعة الواحدة ليلاً، فيتعالى صوت السباب

والفواحش وتبدأ الأيدي باللكمات. وإذن هؤلاء وأولئك، أبطال لا يحرفون القصص ولا ترتفع أصواتهم إلا عندما يكونون مخمورين ويصعب التكهن بما سيفعلون بعد ذلك. هذه ضربة شاكر بالقدم والحذاء، وهو سيبدأ بالنواح بين يديّ الوالدة، فترى هالة العذاب فوق رأسه. تسكت حين يفخم صوته ويعول:

ـ يمه، يمه، وينها صبوحتي. ادفع عمري كله لو ترضى بيه، ها يمه؟

تلك قصة لا تناسب المقام، عادية وتافهة ويسوؤني أن تمر فلا أنفجر بالضحك، وأنا وخالتي نتبادل النظرات. أفسحت أم شاكر الطريق لهم، أطلت برأسها من خلف الباب على الشارع العام:

ـ وين شاكر ولدي؟ هذا وقته.

دخلوا بأجمعهم وصوتها المسالم وراءهم:

ـ زين عيني ادخلوا سأعمل لكم الشاي. شاكر مو هنا لكن هذا وقته راح يجي بعد شوية. والله ما أدري ولدي ليش تأخر؟

أحدهم دفرها في صدرها وهبطت نظراته عليّ. كانت لكمته الأولى معقولة جداً، تلقيتها على كتفي بعد أن استدرت بغتة، كلا، ليس خشية، فقط كنت أنظر إلى قاماتهم وهيئاتهم وهم موجودون بيننا. كانت حركاتهم غير ثابتة ولا تبعث على التقدير كثيراً، لو كنت رئيستهم لوجهت لهم مخالفة من الدرجة الثانية. اقترفوا أخطاء في المشي والحركة وما تخلل الأحداث وخلال دقائق معدودات. وخالتي تدخلت دون استئذان، تقرأ الصلوات والآيات القرآنية، تنفخ عليهم وتتعوذ من الشيطان الرجيم:

ـ اللهم صل على الرسول محمد. اي ولدي هي مثل أختكم زين شصار هسة؟.

مرعوبة كانت. وأنا لليلة البارحة بلعت حبتي المنومة لكي أسكت الدويّ في رأسي. غرفتي هي التي قابلتهم أولاً. دخل أولهم وسار الاثنان إلى داخل البيت. وخالتي مأخوذة، لفلفت الفوطة على رأسها وكانت

حائرة. لا تدري الجلوس أفضل في مثل هذه المناسبات، أم الوقوف؟ لكنها لم تفعل لا هذا ولا ذاك. سارت وحضرت إلى جواري. والرجل يطلق صوتاً متقناً:

ـ لا تكرهيني على عمل أشياء ضدك صبيحة خاتون. هيا تحركي. ساعة زمن ونعيدك إلى سريرك الدافىء هذا.

جلس فوقه وصارت المرآة الرقراقة في مواجهته ونحن وراءه. كانت أشكالنا محددة في أفضل صورة ممكنة. أول حركة بدأت لما مد يده إلى قوارير العطور، فبدأت مشاهد القصف في اليمين والشمال. يتأمل صورته وهو يرش بيديه السمراوين العصبيتين إلى الأمام والخلف، فنرى سوياً تطاير الأبخرة عليه وعلينا. يمر الوقت من غير أن نشعر، فالعطور تبعث وضعاً موحياً بين إثارة الاهتمام والاستغراق في اللامبالاة، وهو يبصر وجهه في المرآة ويضحك ضحكة عالية:

ـ حلوة هذه الريحة.

التفت، كان مسروراً أكثر مما هو متوقع، باحثاً عن أم شاكر، فنالت بركات رشاته وهي لا تقطع عن النفخ والتعوذ. أتى على الزجاجة الأولى وبدأ بالثانية. كان يستدير إلينا ويتذكر الأسباب الوجيهة التي حضر من أجلها، ويعاود الرش على الذقن والرقبة. فوقف بغتة وأكمل على ثيابه نازلاً إلى خصره. فتح ساقيه وجمع كل القطرات ما بين فخذيه.

ـ لو تنتظر قليلاً حتى أغير ثيابي؟

كان منتشياً والعطر يفرغ وهو جذل فهز رأسه علامة الرفض.

وصل الاثنان في تلك الأثناء:

ـ الدار خالية.

وبحركة من يده بقيا في المجاز. أمر اعتيادي أن تضاء الغرف والبيوت في تلك الساعات المتأخرة من الليل. من الجائز أنهم يفضلون إلقاء النظر على أبناء الشعب وبناته في منامتهن المنزلية، هكذا، كتدافع الكرم

والأريحية. وخالتي تريد أن تقاوم الوقت بحضور شاكر مثلاً، فتمسح العرق من جبينها بكم منامتها، فأدري أنها سوف تتقهقر وهي تدفع بصرها إليهم جميعاً.

ـ ولدي الله يستر على أخواتكم. هسة إحنا بنص الليل ليش ما تتفضلون لما تطلع الشمس؟

كانت الغرفة تموج بالروائح: المسك والفل، الذهول والخوف. لم أرفع رأسي ولم أخفضه. كنت أتحرك بصورة اعتيادية كأنني أمثل فيلماً، كأنني شخص آخر يحدث له هذا وسوف يبتعد عني كثيراً ولا أستطيع اللحاق أو الإمساك به.

أحد الثلاثة، لم أبصره تماماً، وضع أول شيء رآه معلقاً أمامه على كتفي: معطفي الواقي من المطر. وجه خالتي ازداد ملاحة في تلك الثواني، فأضافت بتوسل:

ـ والشاي ولدي راح يبرد. زين استكان واحد بلكي يرجع شاكر. ها عيني؟

أمسك الأول، ذاك المرهق بالعطور، بفرشاة الشعر وضرب بها مؤخرة رأسي. التفت حالاً وتلاوينا بالأذرع لثانية وهو يدفع بي للخارج. لم يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق، ربما أقل، لكني أخذت علماً بالوقت وأنا أبصر الساعة الكبيرة الموضوعة في الصالون ذات العقارب اللاتينية: الثالثة فجراً. لما دفعني هو ذاته أمامه وحشرني بينهم. هنا رفعت رأسي في وجهه تماماً ونحن أمام عتبة الدار، كان يتوفر على نوع من الجمال القاسي، ورغم أن مثل هذه النعوت غير كافية، لكن القساوة أيضاً كانت غير ملائمة. مرات جد قليلة توهمت أنني أرفع صوتي بضحكة مجلجلة وأنا التفت إلى خالتي، كان هذا رد فعلي الأول وأنا أفتح عينيّ على آخرهما في محاولة لرفض الكذب، كذبهم وكذبي، هكذا لثانية قررنا جميعاً أن نذهب إلى الصدق والتعاطف، فنشد على أيدي بعضنا ونربت

على الأكتاف. بالطبع ضحكوا معي أو عليّ، لم أفرق بين الأمرين. فتحوا حقيبة يدي القهوائية واستخرجوا بطاقتي الجامعية، نثروا أوراقاً لم أعد أتذكر ماذا كتبت فيها. لأقل من ثانية، أقل من ربع المليون من تلك الثانية التي تدفقت عليّ وأنا وسطهم، فكرت بأنني محبوبتهم وأن ما سوف أخلفه بين ضلوعهم وأعضائهم بفعل الحرارة الشديدة ونحن في شهر شباط، هو رض الأنين الغرامي. بمثل هذه البساطة كنت سأغمض عينيّ وأنا أدفعهم صوبي وأدعهم ينساقون إليّ بطريقة جد عفوية. شبان نحن، وعلى أحدنا أن يميل على الآخر. على أحدهم، هو وليس غيره، المولع بالعطر أن يبدأ النوم معي وحالاً. فوق السرير وقبالة خالتي، وأنا أستجمع جسارتي وأضطجع أمامهم. كلا، لن أصرخ فيما إذا تطايرت أبخرة العرق والتعب، الانفعال والحب. أجل هذا النعت الأخير كان هو الضوء الذي شاهدته في عيونهم في بادىء الأمر وكنت سأنادي عليه أولاً وأنا ممددة في السرير. وبدون أي قلق، سأطلب لو خففوا الضوء قليلاً، فالنشوة تتضاعف في العتمة. وكنت سأنفصل عنهم بهدوء بعدما أفرطوا بوجودهم في داخلي. حتى لو طلب مني هو، أو غيره، أن أسرح له شعره أو أقوم بتدليكه، كنت سأوافق بالطبع وأنا عائدة من الحمام، فأخبره أنني بلغت الحادية والعشرين وسوف لن أشرد ثانية، لكي أكون ملائمة للأوضاع الراهنة، لكي يتجدد الإلهام بي ثانية وثالثة وعاشرة. كانت هناك مشكلة صغيرة حقاً، شعري في تلك الأثناء سيكون مربكاً ومزعجاً للأجواء وهو واقف بيننا بطوله وثخنه وأنا أعض على شفتي وأحدث نفسي، ولهجتي سوف تتغير، ليس من شدة الخوف، وإنما من الحلول التي استطعنا العثور عليها، سنعثر على كافة الحلول. نعسانة ما زلت، حبة الأمس ما زالت تومىء إليّ. لو أغفو على الكتف المعطرة التي صارت ملاصقة لي في المقعد الخلفي. أنفاسنا جميعاً كانت في الحالة القصوى من الارتعاش. أفخاذنا تتلامس كلما استدارت العربة إلى اليمين

أو الشمال. الشوارع شبه خالية ونحن نستدير ونقف أمام المفارق الثلاثة: شارع عشرين، المستديرة التي تتفرع إلى الصليخ، وحي راغبة خاتون. أخذنا طريق شارع عمر بن عبد العزيز. كانت بيوت هجران عبد الهادي، وهدى جميل والسيد رامي حيدر، وحوش السيد «حسون الأميركي» في آخر الطرف. تفلت أمامي جميع أساسيات الدور وتتحول إلى فيلم كارتون. في تلك اللحظة ونحن ندور حول ساحة عنترة بن شداد الكبيرة الشاسعة والعريضة جداً، كانت الأشجار والأوراد والرياحين والأغصان والغبار وأزيز الطائرات البعيدة في السماء، وأشياء كثيرة لا أجيد تعدادها الآن، كلها كانت تتحرك أمامي دفعة واحدة. الصور مسرعة، العربة والكائنات أيضاً. أُطلق صرخة وأعض على شفتي، وقبة النادي الأولمبي ببنائه العتيق الأزرق الفاهي تلوح أمامي، صارت قباباً مقلوبة وهي تقبل عليّ. أياد، بساطيل وأضوية كشافة. سيارات عسكرية ومدنية بماركات أميركية وبريطانية وألمانية. شاحنات وعربات تجرها الخيول. وبشر، بشر كثيرون صم، متروكون وموهومون. بشر بأزياء الجيش، بالكوفية والعقال والقبعة والسدارة، بالكاسكيت والملابس البلدية. الزبون الخام الطويل، بالبيجامات التي لم تزرر كما يجب، والدشاديش المقلمة والسادة، القصيرة حتى الكاحل، الطويلة وهي تسحل وراءهم. وأصوات إضافية، مزدوجة وعارية تتداخل بالأوامر، التعليمات والبيانات، وأبواق سيارات الإسعاف. كنت أريد أن تدل ضحكتي على درجة تبخري أمامهم وأنا أحاول وضع كفي على فمي ولا أغمض عيني ونحن نقترب، اقتربنا كثيراً جداً. تخيلت، لو وضعوا أسطوانة خاصة على آلة حاكٍ وبها تصطف جميع التعليمات وبصوت واضح والكلام يتكرر والجميع يستسلم لأصول التمثيلية أو الفيلم لكان أفضل من هذا الصخب.. لم أكن أعلم أن هناك كل هذا القدر العجيب من البشر وفي هذه الساعة من الليل. اشتهيت الموسيقى فقط. نغمات مقطوعة من الرأس والذراعين. أنغام لا علاقة لها

بالأبوذية والبستات العراقية. مجرد عزف بطيء، يتلاشى ما أن يسمع، فنحذف ونمحى. عزف صيادين من مناطق شتى، ويفرض علينا بشكل طوعي، ويبقى قابلاً لآلاف وملايين الأشياء.

بعد وقت طويل، بعد سنوات، قالت لي هدى، أو ربما السيد مصعب ذكر عرضاً وكنا في طائرة الخطوط العراقية:

- في البداية لم يشأوا إهانتك أو تعذيبك لكي تقرّي. في البداية فقط.

فمي مرّ ولساني ناشف لما سحبت سحباً من العربة. كنت أريد الذهاب إلى المغسلة رأساً لكنهم رفضوا. قدرت من عدد الرجال وأشكالهم، من هيئات الذين مررنا بهم أو مروا أمامنا ونحن بينهم، أن جهاز الدولة العراقية ومنذ الاستقلال، وقبل الانتداب وبعد الثورات، كان يظهر أمامي، في تلك الليلة من فجر التاسع من شباط في العام ثلاثة وستين. لم أضطر لإغماض عيني كما يفعل البعض لكي يتذكر. كانوا فقط: أبناء أمهم. قرأت ذلك فعلق يوماً بذهني. لما سئل أحد رؤساء الشرطة السابقين في مكان ما من الكرة الأرضية: «ترى كيف ستفرق بين القتلة وغيرهم؟ أعني كيف يبدو المجرم؟».

أجاب بدون تردد:

«فتاة. يبدو كفتاة. أعني يبدون فتيات معاقات قبل أن يتحولوا إلى مجرمين. يبدون ناعمين، رقيقين، مملوئين بالأسرار والشفافية. وجوههم تجمع بين الرجولة والأنوثة حتى لو كان أحدهم يتحلى بشاربين شهيرين وأصابع يد ناعمة، وصوت نحيف حامل رنين الأنوثة. إنهم لم يكونوا ذكوراً فحسب، وإنما نساء أيضاً». استهوتني تلك الفكرة كثيراً جداً لما تطلعت ولأول مرة في وجه ذلك الجالس أمامي. طبعاً استجوبوني. تحدثوا معي وفتح التحقيق. الثلاثة الذين أحضروني غابوا. اشتهيت حفيف عطر أحدهم فقط. أدخلت غرفة معتمة وكان هناك كرسيان وطاولة. أعرف جميع خبايا هذا البناء الرياضي العريق. كانت أصوات

على مدى الفناء تقترب وتبتعد بصور فجائية، أصوات لم تعد أصواتاً ولا يعرف المرء أبداً كيف يتراجع الصوت البشري، ينفخ، يتورم ثم ينفجر كالدولاب عالياً عالياً. جلست بالطبع وتقبلوا جلوسي، فالحديث بيننا سيعقد بعد قليل. بدأت برفع بصري إلى فوق، فشاهدت رفوفاً، وطاولات تحولت إلى أشياء أخرى. أسرّة صيفية جميلة، وبطانيات معكرة اللون، والأرضية عارية. مخازن، دواليب وأعلام عراقية صغيرة وكبيرة ومتوسطة، وبيارق بألوان متفاوتة في القدم مدبوغة بفعل التهابات الشمس العراقية. وجوه وقامات كثيرة تمر قبالتي. وسبورات سوداء وخضراء، وطباشير موجودة في علب خشبية كأننا في صف دراسي. وجميع أوراقي الثبوتية أمامهم: البدن، بدني. كل شيء مكتوب كان أمامهم وعلى رأس الصفحة: الاسم، العمر، الوظيفة والنشاط. لم أبدل موقفي، كنت أبتسم أفضل منهم وأشير بيدي وأنا أسند كوعي على الطاولة. كانت وضعيتي أفضل بكثير من الدكتورة أنيسة، سمعت باسمها. كانت في الطرف الآخر من الفناء الذي وضعنا داخله:

- اي دكتورة في الطب النسائي، وسجلي معروف عندكم أنا وزوجي وإخوتي.

ثابتة النظرات كانت لكنها على وشك الاحتضار. أما الشاعرة عفراء فقد أحست بالمهانة وهي تدفع قسراً وترمى على الأرض. عفراء شعرت أن مدلول الشعر فيما لو أجابت به سيكون أفضل. هكذا كانت تجيب بأبيات من الشعر العمودي، ما أن تبدأ بالمقطع الأول حتى تنتفض، تشتبك يداها وعنقها وثيابها في حماس منقطع:

«فأنتم عضاريط الخميس إذا غزوا
غناؤكم تلك الأخاطيط في الترب»

كانت تتفوه بقصائد تريد أن تقربها من الموضوع مثلاً. إنها هنا نتيجة خطأ ما في الأسماء والألقاب. وإذن، ما عليها إلا قول الشعر. قالت

كلاماً يبعث على المسرة عن الشعر والنثر. كان إلقاؤها أجمل من بعض القصائد التي اختارتها، فالمناسبة لم تكن ملائمة لمثل هذا النوع من الصور والحيثيات. وبدأ صراخها يتحول إلى حوار داخلي. صارت جذلى هي أيضاً. لا أدري إن فكرت مثلي على سبيل المثال، أن تتم المباراة من داخل النادي عن سابق تصميم ونحن نمتزج بين المصيبة الخاصة، والحب لما يطلق عليه بالوطنية. فالنادي هذا كان مبعث بهجة في الأيام الخوالي لجميع أهالي الأعظمية. لي أنا الآتية من مدينة السماوة. بهجة لكل مدرب ومدرس رياضة، أو مصلح دراجات مثل «عوسي الأعظمي» الذي كان يصطاد غلمانه من هنا وهو يدربهم على قيادة الدراجة. وراءهم يكون وهو يلمس ويدس يده وأصابعه في فخذ الصبي. فيحفظ ملمس لحمه وعظمه عن ظهر قلب. هنا يتم الاستعراض بدءاً من النظرة الأولى حتى يتم الاشتهاء والإغراء. باختصار، كل مواطن يدخل هنا كان على ثقة تامة بالإلهام والذكاء، الفتوة وكمال الأجسام. في الركض والقفز العالي. كرة الطائرة والسلة، الملاكمة والمصارعة. صفوف من الفرسان السعداء يبدأون منذ الصباح الباكر، يتذكرون أجسامهم ويطلبون الحب المشترك ريثما يتم الاستعراض التام. وها هم يلعبون الآن سوياً وسواسية، ونحن نتسلى. ربما كان الهدف من جلبنا إلى هنا لمضاعفة كمال أجسامنا أمامهم، وأننا سنحرص كثيراً أن نغدو أبطالاً. يمكن هذه هي المثالية الموجودة في النوادي الرياضية التي تحولت إلى شيء آخر. بالمناسبة، لم تكن أقوالهم، أولئك، كلها بلا معنى.

عادت الشاعرة عفراء للصراخ نثراً: ـ أخذت بجريرة غيري. أنا لست الشاعرة إياها. هي غير متزوجة حتى الآن، وأنا أعرفها. سمعت عنها الكثير. أنا لديّ أربعة أبناء وزوجي حي يرزق وهو محام. يا إخوان، لماذا لا تعودوا للبيانات التي في حوزتكم. أصلاً هي تكتب الشعر العمودي وأنا تركته للشعر الحر. أنا أستاذة الأدب العربي في ثانوية

الرصافة، وهي محامية مشهورة.

ـ قحاب، خرا، بنات القحبة، بنات العواهر. (لا، قالوا ذلك باللهجة العراقية الدارجة بنات الاهارة).

الدكتورة أنيسة كانت مقبلة على الموت كما لو أنه الدنيا بأسرها فظل صوتها قوياً:

ـ اي سيصمد هو أيضاً. كلنا سنصمد وستبقى الراية خفاقة. لا تعزية إلا في ترديد القسم: وطن حر وشعب سعيد.

أول مرة نتبادل النظرات، الرجل وأنا. كان وجهها مدمياً تماماً.

بدأ الفجر بأشعته المباشرة في الخارج وعدت قادرة على فرز أنواع جديدة من الأصوات، تلك التي تصلنا من السماوات الشاهقة. أمواج شديدة من الأمطار بدأت تضرب زجاج الشبابيك وتضاعف صراخ الحاضرات اللاتي تكاثر عددهن. خالات، شابات وعجائز.

ـ انظري إليّ صبيحة خانم ها أنت. . .

الدكتورة أنيسة تكوم حولها وفوقها ثلاثة على ما أتذكر وهي تُرفس وتُلبط بين أيديهم. كانت ترفض بصورة قاطعة، تضن بالاسم، بالأسماء:

ـ والله لو يموت ولا يعترف، ستسمعون ذلك يوماً.

أغمي عليها وبدأت بالتلاشي ثم خرّت بلا حراك على الأرض. بدأ الدم بالسيلان من الفم نازلاً على الذقن والرقبة. ولما تزايد هرج النساء والسماء دخل شبان جدد وقاموا بتفريقنا ففقدت أثر الدكتورة حتى هذا اليوم. صحيح أن الشاعرة بقيت صاحية وتلقي أشعاراً بصوت رخيم وإلقاء متنغم كأنها فوق مسرح مدرسي. لكن ما إن تفوهت ثانية بالقصائد العمودية حتى أطلقت «عفطة» مستقيمة، طويلة وكأنها موصى عليها. لكنها واصلت قراءة الأشعار بصوت ازداد انخفاضاً. والرجل الذي يقابلني

نفد صبره معي. نفاد الصبر كان ينمو أمامي حتى صار ضدي. كان صبوراً معي فاستحيت.

خائفة؟ فتشت عن أية مفردة موجودة في لسان العرب والعجم، تظاهرت أنني عثرت عليها لكي نتبادل الأحاديث، فأبدو في غاية الطاعة، أبدو طبيعية مثلهم، لكنني فشلت. كان العرق ينضح بدءاً من عنقي، نازلاً إلى ضلوعي وصولاً إلى مسرى الساقين والقدمين.

ـ علاقتك ببدر؟

بدر قاطعني منذ شهور، شهور طويلة لم أعد أتذكر. كانوا يسجلون ذلك في دفاتر ضخمة. ياه، كل هذه أقوالنا؟ كلامنا استطال وصار بطول قاماتنا.

ـ زين، زين. كل هذا نعرفه لكن غير كاف.

الصراخ في باقي الغرف بدأ يخفت ويخمد وصليات من بنادق ورشاشات. من المؤكد أنهم لن يبارحونا أبداً. عندهم حرية وعندنا أيضاً. كل شيء لدينا عندهم مثله. لكنني لم أكن أريد أي شيء، فقط التمدد مثل هؤلاء النسوة المصطفات على الأرض، يرفعن أبصارهن إلى أعلى وهن يبصقن بصوت عال. كان البصاق يشبه الحصى وهو يقذف على القامات والرؤوس، ويتوفر دائماً على أشخاص، مارين أو عابرين. وإذن، فلنر ماذا ستقول تلك القروية القادمة من السماوة؟ كيف سترتب المشهد وتقترب ـ من هناك ـ؟ وها أنا أظهر في هذه المخطوطة لكي تصل إلى إدارة صحيفة الغد وحسب الشروط المقررة. فإفشاء الأسرار لا يقتل الأسطورة.

إن وجود بطل في رواية أو قصة ربما، سيدفع بالعمل إلى مديات عالية من القوة والعمق والجمال. فهالة الأبطال بها جانب من التجرد والنزاهة والغيرية. هكذا كنت أسمع وأقرأ وأرى، وبسبب هذا كانت تستهويني

الكتابة عن اللاأبطال، أولئك الذين لا يستطيعون العيش بمفردهم مثلاً أو بدوني.

البطل فرد غير محتمل. «ففعل فرد واحد منهم، واحد فقط يغير عمل الآخرين». ونحن بحاجة إلى آخرين، بحاجة إلى الخونة والخيانة. على الأقل الخيانة. خيانة المغني والأغنية، الهتاف والنفير العام، اليافطات الأولى، المناشير والأسماء الحركية. خيانة الطبقات، في المقدمة: البروليتاريا، المفعول بها. خيانة العالم السفلي لأنه لم يرسّخ السفالة والسفاهة كما يجب، والعلوي لأنه سافل على الدوام.

خيانة هدى وهجران والحاجة وفيقة والسيدة فريدة والخالة فخرية وابنها شاكر والسيد الوالد. خيانة أولئك المناضلين الذين قرأت أسماءهم في استمارة المسابقة الخاصة بجريدة الغد، وحسب الحروف الحلقية المثيرة للسأم والاعتباط. ولنبدأ بأكثرهم ملاحة وحسناً: المناضل والمفكر مسلم التقي. المناضل والشاعر والرسام كمال عبد الرحيم. المناضل والناقد وأستاذ الجامعة الدكتور زياد المرهون. خيانة الآلة الكاتبة، آلتي الركيكة الجبانة وهي تقاوم ما أتفوه به ولا تصغي إليّ. خيانة الخيانة.

لنعد إلى الموضوع، أحدهم نصحني بالحذر، لم أعرف حتى الساعة لماذا ومن هو؟ همس في أذني وهو يعصب عينيّ ويبدأ بوثاق رسغي وساقي:

ـ لا تتقوي بهجران خطيبة الأستاذ رامي. اعقلي ولا تتهوري فهي فتاة لا حول لها ولا قوة.

كان لديّ الكثير من الوقت لما نقلت من مكاني إلى سرادق آخر نوافذه وزجاجه مكسرة وأرضيته عارية. الإسراف في الزمن، الإسراف في اتقاء صوتي الدكتورة أنيسة والشاعرة عفراء. هل فارقتا الحياة، أم بدأتا الزحف على وجهيهما كما أفعل وسط العراء؟

كانت تنبعث من حركات البساطيل والجزم الثقيلة، في أثناء عبورها من

عضو إلى آخر في بدني: مشاريع وخطط، منظومة من السجايا، وطراز من التهديدات. فبقيت أجمع الخطوات وأدقق بها مثل آلة حاسبة. أقيس التبعات وهي تدون عليّ المواعيد. فأسترجع ما أطلقت عليه وقتذاك: دوريات الازدحام الجنسي.

فننتقل سوياً إلى استيهامات الشم في نسق يتكرر، يبدأ من السراويل مروراً بالفانيلات ولا ينتهي بالملابس الداخلية. فتستعد الروائح للخروج؛ بول آدمي وجراب منتفخ. وإذا ما بقيت هناك فسوف أعلق بضخ تكديس المني، لما يتكاثر ويعاود مرة ومرات. فيثير اهتمامي خلط الأجناس، الأشياء والمخلوقات في ملتقى الطرق على جسمي، فنولد ثانية. نتجمع وننفصل مجدداً. لكننا نتعاقب ونتبدد كما هي حركة الزمن.

ففي المكان الذي أخذت إليه كانت الدوريات تكسر قشرتها الداخلية وتطلع علانية، ليست أمامي، لكن أمام الجنس، وحدة الجنس، وهي تمضي في رسائل موثقة وبطريقة شديدة الدقة. ويا للعجب، بدأت أحسب: فالفعل الجنسي وبأية وضعية كان، يستدعي دقائق تقارب الخمس أو السبع أو الثلاث. ولدهشتي، فالدقائق تلك كانت تساوي في نهاية المطاف كل مسرّات التاريخ البشري. فأصير أكثر اقتراباً من دمي، لا على سبيل النواح فحسب، لكن دون استرحامات لا طائل من ورائها.

فأبدأ بتقصير المسافة والوقت وأدفع به إلى الحد الأدنى، لحظة أتباهى بها باعتباري أستحق الأقل فالأقل. خصوصاً أن القساوة والأذية بدت لي نوعاً من التدريب الرياضي، وهذا في رأيي ذكاء لوحده.

لحمي هو المستوطن الأصلي للخطر، وهذا ما ضاعف حضوري وجعل تهديدي لا يتوقف عند اسم بدر. تماماً، تعاملوا مع اسمه ونشاطه في غاية الجدية، لكن ما أثار اهتمامي هو الكراهية، كراهيتهم لي، حين قلت أن لا علم لي به، وليس من أجل أمر جوهري: إنني مغرمة ببدر.

فكنت أتراجع وأبخرة العرق واللعاب تقذف عليّ من فكوك فولاذية

وأنا خائرة القوى، في ذلك الوقت تيقنت من أصوات أزيز الطائرات. تأخرت في فرز أصواتها من غبائي الشديد وانغماري بأبدانهم التي كانت تتوالى وتتساقط كمياه النافورات فوقي. والطائرات تحلق على علو منخفض، تغير وتعاود الارتفاع ثانية، فتنهض الأيدي وتقاسي هي أيضاً من غزوات الهبوط والقيام.

لم تسل دموعي ولا أغمضت عينيّ رغم العصابة، فكنت أرتج وعمودي الفقري يحتك ويدعك بالأرض العارية، ركبتاي ثقلتا، وأصوات التلذذ تصلني كأنهم عصافير تغرد وأنا المرج الأخضر.

لكن الأيدي، آه من تلك الأعضاء التي لم تتوقف عن الإنفاق والتبذير، إذا بدأت، فلا تعود، إنها تصل فقط.

لا أدري لِمَ فكرت أن الابتكارات تعوزهم. أصحاء تماماً، وفي أفضل الأحوال، لكنهم أضاعوا الكثير من الوقت هباء، خصوصاً في البداية، وكان هذا دليل شطط وهم ينزلون إلى برّي ولأول مرة.

هل كانت تحف بهم المخاطر فيبدون عجزة على نحو ما فتتضاعف القساوة وهم يحللون التربة على غرار ما يفعل البستاني في حديقة عنتر. يقلبها جزيئة بعد أخرى فيتأملها بالعين المجردة قبل أن تعود وتتربص به. هذا لم يحصل معي تماماً، كان الأمر أكثر غموضاً. فهم فكروا بطحني وهرسي للتغلب على تكبري. من الجائز، فكرت طويلاً في هذا الأمر، إنه شكلي وهم يحدقون بي فيقترفون الهفوات الكثيرة. شكلي كما أزعم هو الذي بعثر نظام المضاجعة. أمن أجل هذا اعتراهم الغضب وأنا أتحول إلى سياج حديدي فراحوا يواصلون إطلاق الأوامر عبر المذياع ومكبرات الصوت وهي تفج أذني، وأنا أتفرج ولا أجيب.

لكن الطائرات عادت للانقضاض ثانية ويد أحدهم على خدي. يد حيران ترتعش وتهتز فخدعتني، ولأول مرة يبدأ صراخي المدوي، لكنه هو أيضاً بدأ صراخاً كالزئير. وفي ثوان غطاني ببدنه وطوّقني. دموعه

تسيل ساخنة. وبدأ يلثمني. باسني كثيراً وهو يتمتم: «لا تخافي. . . لا»
رفعني بيديه ساحباً البطانية على بدني المكشوف. فبدأت أضحك وأعول
وأصرخ وهو يحاول فك أسر يدي. أتحشرج وأغص بصوتي. ووقع
أقدام. قامات تتكوّم حولنا وفوقنا، وهم يوسعونه ركلاً وسباباً فاحشاً.
وبيد واحدة، لو تحط يده بتواد أكثر، فتطيش أظفاره في خدي ساحباً
عصابة عينيّ. كان على وشك أن يقول شيئاً وهو يُجرّ ويسحب من
أمامي.

ـ ما الذي سيفعلونه؟ من هو؟

يوسعون الخطى، يعيدون الأمور إلى حالتها الأولى، للوجه واليدين
والساقين. والطيران عاد للتدخل ثانية وعادت الأبواب أيضاً. جزم أثقل
من التي بجواري. والأصوات تواصل بين الشماتة والتهكم: «أعدم
الزعيم».

ـ ٣ ـ

المناضل

عزيزي،

تعمدت أن لا أضع اسمك الشخصي في أول الصفحة لكي أدل على
لقبك الاعتباري: المفكر مسلم التقي. بدا لي يوماً أنك تملك ألف وجه،
لا أقول أقنعة فأنا أحبها. مناضل، بلى، غير متخصص في الظرف
والدعابة. حامل رسالة للتأمين على العقيدة حسب التعريف والبيانات التي
تناولتك ومنذ سنين عبر الدوائر الإعلامية والثقافية والسياسية. مرة مختوماً
بأجل مظاهر التوقير والإجلال، وأحياناً كثيرة بالتجاهل التام.

أطلقت عليك أول ما شاهدتك في مقر جريدة الغد، أمام السيد
مصعب، وبعد أن غادرت:

«عينان ماكرتان بهما غضب الصقر ولطافة الهدهد. في سحنته غموض
من لوّحته شمس الجنوب الذي جاء منه بعدما دفن فؤاده هناك».

نرفز مصعب:

ـ كيف توصلت إلى هذا وأنت لم تحادثيه إلا دقائق؟

باغتُّك ومصعب، لما سألت بصوت هادىء:

ـ لديّ مجموعة من التراجم، أستاذ، هل بالإمكان نشرها في المؤسسة
عندكم؟ الأستاذ مصعب نشر القليل، فهل. . . اسمي وصال. وصال عبد
الرحمن.

لم تعلّق إلا بعد أن تنحنحت وأنت تنوي المغادرة:

ـ على الرحب والسعة. يوم الاثنين الساعة الخامسة عصراً في مقر المؤسسة.

أول مرة لا يطلع صوتي واضحاً:

«جنتلمان من عصر الفروسية الأول».

مددت يدي للمصافحة. قلت، ما هم، يمكنك الوثوق به كصديق، مجرد صديق فما شأني بالألقاب، جميع الألقاب التي جاءت وراحت.

لا أدري إن كان بمقدورك الآن وبعد تلك السنين، أن تأخذني كما أخذت الأصدقاء، أصدقاءك بجميع العلل. ونحن نريد الوقوف بالطابور لإلقاء التحية عليك، ليس كتمثال على وشك التهشيم، لكن كما قلت لك كصديق. لماذا لم تصدق ذلك؟ أنت أطلقت اللقب علينا في أحد الأيام: الملاعين. من الجائز أن هذا هو العمل الوحيد الملائم لنا، سواء رفضت أو وافقت، سواء عاد بمقدورنا تسديد الدين الذي علينا لك أم لا؟ فكنت أعيد ما حفظته من بعض دراساتك الفكرية في بداية السبعينيات على ما أذكر. لما قرأت أول دراسة لك في إحدى الدوريات الشهرية العراقية:

«الشعر كضرورة: فالشاعر الكوني يخون شرف التأمل إن لم يصل شعراً، فالشعر الضرورة التي لا محيص عنها، ولذا فإن جان كوكتو كان يقرر حقيقة في درجة البداهة عندما يقول: «الشعر ضرورة، وآه لو كنت أعرف لماذا»».

وآه لو كنت أنا أعرف لماذا فتنت بك؟ حتى حين قابلتني بالاحتراس والحيطة. لكن ذبذبة صوتك الآسر كانت شديدة الوقع عليّ. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً لما قمت وغادرت. ليلك كليلي يبدأ بعد منتصف الليل، أطول وأبعد من ليالي الآخرين، أطول بكثير. أسميته الليل الثاني. الليل اللانهائي، لما تنتهي بروفات الصفحة الأولى من الصحيفة الرسمية، أو حين تضع النقطة في آخر سطر من المحاضرة أو

البحث أو الخطاب الرسمي. . أو، أو. ليل امتلاك عوائد الجمهورية الفتية. عندئذ ستطلع للمشي الضاري بين أزقة وحواري بغداد القديمة، بدءاً من المربعة حتى آخر شارع الرشيد، حيث تقع إدارة صحيفة الغد في عمارة «آل حافظ»، مروراً بالبارات الرخيصة وراء سينما روكسي، أو التسكع والتجوال والتخبط في حلقات فنادقها الحديثة بين حي السعدون وصولاً إلى حي المسبح. ووجوه السكارى النورانيين الذين يطلقون عليك اسم «المصرف العراقي» وأنت تقرضهم أو تقاسمهم آخر عشرة دنانير. فيعود وجهك يتقبل العتمة. تصير ثملاً وتقدر مسرات الغياب عن الآخرين. وجهك قانٍ، لسانك طلق وحركاتك غير رسمية، وفي مقدورك أخذنا بجميع العثرات.

حين دخلت علينا، مصعب وأنا والأستاذ عبد الجبار علي، كانت رائحة الغرفة خانقة بالدخان والكحول، السماق وأسياخ اللحم المشوي. برائحتي الخاصة، عبق عطري الذي كان:

ـ يدوخ. لماذا تضعين هذه الأنواع من العطور؟ ألا تكفي رائحتك؟

مثل ساعة الرمل قلبتها رأساً على عقب وفاحت أنفاسك. ماذا لو حضر الفشل والنقصان معك؟ حسناً، لما مددت يدك، لم تجب على حركة يدي بأحسن منها. كانت كلمات يدك بحاجة إلى ملقط وأنت تقول من بين أسنانك:

ـ أهلاً.

غلتي من المؤونة كانت أوفر من غلتك. لكن الجرس قرع معلناً ساعة اقتسام اللذة في الليل البغدادي الملوكي. نهضت واقفاً ومشيت بخطوات واسعة، سريعة. لا أحد يستطيع العثور عليك. مرافقك السيد رشيد وراءك بمسافة بضعة أمتار، يلازمك كالظل. لا يقترب إلا بعدما تدخل أحد البارات أو إحدى الإدارات الساهرة كصحيفة الغد على سبيل المثال.

كانت إحدى الوظائف الرئيسية للإعلام هي محاربة انتشار الإشاعات.

بالضبط، الإشاعات هي التي دفعتني دفعاً للوصول ليلاً إلى مكتب السيد مصعب. كنت متبرجة كعادتي. ابتسمت في وجه عبد الجبار الذي قابلني في البدء وأنا أسأل عن الأستاذ مصعب:

ـ قل له وصال من فضلك.

لو شاهدتني هدى على تلك الهيئة لسألت على الفور:

ـ كلما تكونين في حالة حداد على أحد تتبرجين هكذا. من مات مجدداً ها؟ كأنك عائدة أو ذاهبة إلى حفلة..؟

أضحك وهي يتورد خداها كما تورد خدا عبد الجبار أمامي وهو يفسح الطريق إلى غرفة مصعب.

واذن حضرت من أجل تلك الإشاعة التافهة التي كانت تتداول بصوت خفيض، وبدأت تتعالى حتى وصلت إلى مقر عملي في مكتب الخطوط الجوية. فمن غير مصعب سيرد التحية ويظهر على وجهه الاستحسان وأنا أدخل عليه فجأة.

هل أعفي السيد مسلم؟ أم أقيل؟ مغضوباً عليه أو مطروداً. ومصعب غير معني بكل هذا. فاسمك كالبلدوزر، وليس بمقدور الكثيرين ومن جميع الجهات والأطراف غير قبول أكذوبة الإشاعة، أو مطاردتها سراً. تساءلت وأنا أغادر الإدارة وأقود عربتي على مهل: «كيف يقولون إن التلفزيون والصحافة هما اللذان يشكلان لنا صورة البطل؟».

فأنا لم أشاهدك في ذلك الجهاز ولا مرة واحدة. ولم أر صورك في الصحف والمجلات. لكن من الجائز بتأثير الإشاعات، أجل تلك التي حددها الميثاق الوطني لدور أجهزة الإعلام بأنها: «الموجه، والمعلم، والممرض، والمصلح، والمعبىء الجمعي بسبب ارتباطها بالجماهير، يجب أن تكون موضع رقابة دقيقة». قرأت ذلك في كراس صغير. وكان ذلك في العام اثنين وسبعين. وها أنا أغيّر السرعة وأريد الوصول حالاً إلى البيت والإنصات لملامح وجهك وصوتك، حركات يديك ولون

بشرتك. هذا هو الأستاذ فلان الفلاني، جزء من الإشاعة. أو أنت جميع الإشاعات. لم ألاحظ أنك ثمل ومن الجائز أنك غادرت من أجل ذلك. لكني لاحظت أن هناك شيئاً من التواطؤ بينك ومصعب وضدي، هل كان لإثارة اهتمامي وإعجابي؟ لم أعر ذلك كبير اهتمام وأنا أدخل سريري.

شبه مهووسة كنت ويدك ممدودة للمصافحة ونحن واقفان بباب مكتبك الرسمي في الطابق الخامس من المؤسسة الإعلامية الكبيرة، في حي السعدون. لم تكن كالمشدوه وأنت تراني أمامك مهندمة ومعطرة أيضاً، وفي الثانية والثلاثين. لم أحاول استخدام الألفاظ الكبيرة والأفكار الرنانة أمامك. كنت أمشي بالغريزة من بداية اللقاء حتى ختامه. قلت هذا أصدق وليس أفضل. وأنت تروزني بعينيك بطريقة يقظة، لكنها باردة.

حين وقف أحد الشبان وسط الغرفة، سألت بصوت ناشف:

ـ ماذا تشربين. حامض، شاي أو قهوة؟

لم أحتر ولو لثانية. أجبت بلا التواء:

ـ الثلاثة من فضلك.

تصورت أنه الحل الأمثل لك. تراءى لي هذا لثانية. أن أزيح عن صدري مأزق الاختيار. الشاب ابتسم وهو يختفي، وأنت التزمت الصمت وفي سحنتك شيء من السخط. قطعاً لم أشأ إغاظتك. كنت أريد تلطيف الغرفة وهوائها الفاتر. كان الشهر تشرين ثان وأنت وأنا، كما ذكرت هدى، من أصحاب المذهب الخريفي. أو فلنقل، إنه شهر المثل العليا. وضعنا اسمك في السجل وانضممت إلينا. فالخريف يتسلل خفياً مبتدئاً بالجمال إلى الجمال غير المحتمل. وفتون الطبيعة كانت تنتقل من الإثارة النهائية إلى التهديد والوعيد بأن لا حاجة إلى النعوت جميعاً. لكن خطر ببالي فأطلقت عليه: الفصل العراقي. فبلغت وأنت أمامي والخريف أعمق لحظات: الفرجة.

في الطريق إليك بزغت الفكرة هكذا: منذ أواسط الستينيات وأنت تنشر

بحوثك ودراساتك النقدية والفكرية في الأدب الحديث، في الشعر والثورة، في أخلاقية الشاعر والروائي، ونظرات في الأدب الوجودي، في. . إلخ التي تناثرت في الصحافة الوطنية والمجلات العربية الفكرية. وأنا أقرأ. وكلما أقرأ كانت ملامحك تزداد لغزاً، وأفكارك تتضاعف أسئلة، فأطلقت عليها «رشاوى الروح»: «فأنا كتبت هذه المواضيع بدون أي تصميم متعقل. كتبتها في حالة معينة منحتها لنفسي فقط. بدون أن أبحث عن صلة أو عن مقاربة وحتى لو توافرت تناقضات معينة، فأنا لا أحاول إعادة النظر فيها لأنني كتبتها في لحظتها، وهذه اللحظة، لحظة البدء بكتابة الموضوع الجزء، مقدسة بالنسبة إليّ بشكل وثني، لأنني ما كتبت إلا وأنا في خدري الخاص والسخيف أيضاً. ولكن العذر لي هو أنني أردت اكتشاف نفسي، واكتشافي لنفسي هو اكتشاف القارىء لنفسه من خلالي كنموذج».

فسألتك:

ـ لو نتوفر أستاذ على معظم دراساتك وبحوثك الـ. . .

لما قلت ـ نتوفر ـ بصيغة الجمع، وقبل أن أكمل الجملة، رفعت رأسك بهدوء وسألت بصوت محايد:

ـ من أنتم؟

ـ القراء. هل تشك بغيرنا؟ هل أكمل أم. .

أومأت برأسك فواصلت:

ـ لكي نتوفر على سؤال، كما تقولون أنتم، سؤال مركزي: هل للمثقف الثوري كلمة مسموعة داخل الحزب؟ أي حزب ثوري بالطبع؟

لم تأخذني ولا السؤال على محمل الجد ولا كنت أنتظر منك أن تراني سيدة شجاعة تريد تمجيد الثقافة والمثقفين. كان ملف الترجمة أمامي:

ـ هل تسمح بالتدخين؟

أشرت بيدك فورثت سيجارتي وحركت الملف بيدي وأخرجت قصة قصيرة لإدغار آلان بو «القلب الواشي» ووضعتها أمامك. استدرت وبيدي أشرت:

ـ هذه دراسة من حلقات ثلاث وربما أربع تتحدث بطريقة آسرة عن: من يتلقى الفن الحقيقي؟ وهل يتجاهل الفن متلقيه؟ أي: ما هي الصلة بين الكاتب والقارىء للناقد والباحث واين بوت. تصور أستاذ، جلست وورقت حتى عثرت على ما أريد، هنا تضمين مهم عن القراء والقراء الزائفين وضعت تحته خطاً إذا ما تم نشره أرجو أن يكتب بخط وحبر آخر. أعني أسود على أبيض كما تقولون بلغة الصحافة. هذا الرأي كلما أقرأه يزداد توهجاً: «إن الكتاب الذي نرفضه على أساس أنه رديء، غالباً ما يكون ببساطة كتاباً نكتشف في قارئه المزيف شخصاً لا نستطيع أن نكونه، وقناعاً لا نستطيع أن نضعه، ودوراً لن نلعبه» تصور كم من الكتب التي تستدعي قراء نرفض أن نكونهم. هذه الحلقة الأولى وسوف أنجز باقي الحلقات خلال أيام.

أعدت كل ذلك إلى الملف ووضعته أمامك على الطاولة. كانت طاولتك نظيفة ومرتبة جداً. حفنة من الأوراق مصفوفة كما لو كانت أوراقاً نقدية في مصرف الرافدين. أوراق بيضاء ووحيدة. كنت أتحدث معك برصانة وجدية لكني أصدر إليك إشعاعات لا تحتاج إلى أدنى مجهود لملاحظتها: إنني مغوية من أعلى خصلة في شعري الذي صبغته بالأشقر المائل للأخضر. هكذا طلبت من الحلاق. أكدت على هذين اللونين، إذا ما ضربتني الشمس وأنا أقود عربتي فجميع من يبصرني، سيردد:

ـ أوه، أنظر إلى تلك. . .

وأنت تواصل البحلقة الهادئة إلى حركة اليد والعنق والزنود وهي تطلق أصوات العقود الذهبية النازلة على صدري. حلق كبير يتدلى براقاً إلى أول عنقي الطويل. أساور من الذهب المقرنص المضفور باللؤلؤ سدت رسغي

الأسمر. وكلما ترتفع يدي وأنا أشرب الشاي، أتحرك أو أدخن قبالتك كنت أخشخش:

ـ هل هذه هي المودة الآن؟

أدري أن وضعيتي من الرأس إلى الحذاء بكعب رفيع كانت منفّرة، وأنت تشير وتدل على المصوغات. تواصل كأنك تحادث نفسك:

ـ ما نفع كل هذا.. ها؟

لم تكمل ولم تدعني أوضح، ليس لأني لم أجرؤ، بل لأنني لم أهتم. شعرت أنك تسخر بالطبع، لكن سخريتك كانت فتانة. كنت تسخر كالفرحان وليس كالشامت، ورأسك إلى أمام وكأنك على وشك النوم.

لم ترق لي غرفتك. غرفة مدير عام بالفعل. كانت «عباسة» زوجة أبي ستطلق عليها اللقب الضاحك: «يطارد بها الخيال». مضيئة، شاسعة، مهواة ونظيفة. لكن بها شيئاً ما، شيئاً طارئاً، مؤقتاً، حتى هذا النعت ليس دقيقاً، كانت زائفة كلما اقتربت منها. كأنها غرفة مقصوصة من مجلة أجنبية ذات حداثة شديدة ومخيطة بخيوط نازلة على مؤسسة إعلامية ناهضة للتو. آنية من الكرستال المضلع، استيراد إحدى الدول الاشتراكية وفي الوسط باقة أوراد اصطناعية مشغولة بطريقة ماهرة، لكنها بشعة. ترى هل تذبل الأزهار الطبيعية بسرعة في غرف المدراء العامين والمناضلين العراقيين؟

تلفزيون بشاشة عريضة، أعرض من جميع ما شاهدت، وتحته طاولة كبيرة، أنيقة ذات رفوف وزجاج داكن. فوق أحد الرفوف جهاز فيديو طالع من صندوقه الكرتوني للتو. وتحته صفت بالطول دزينة من الأفلام وألصقت فوقها أوراق بيضاء مستطيلة مكتوب عليها بالحبر الصيني، وبخط مدرب ومتقن: المؤتمر الأول للجان الشعبية، لجان المثقفين، لجان المدنيين، لجان العمال. لجان، لجان، في القيظ والزمهرير كانت الاجتماعات تتوالى، باللباس الرسمي أو على طريقة السيد ماو وبالألوان:

البيج، النفطي، القهوائي والزيتوني. أو بالبدلة الكاملة والرباط المشجر العريض وبالألوان الفاقعة، من الحرير الاصطناعي، استيراد محلات «أورزدي باك» وعلى الموضة. ينتقلون بالمصاعد الكهربائية أو بالسيارات الجديدة ذات الستائر الداكنة والمسدلة بإحكام، طوال الليل والنهار، جميعهم سعداء لكن العدد يظل ناقصاً.

على الجانب الأيسر أربعة أجهزة هاتف وبالألوان: البطيخي الفاتح، الأحمر الناري، أما الحليبي والحشيشي فكانا على شاكلة البدالات في البريد المركزي. على كيفي وهواي كنت أوزع المكالمات الرسمية والشخصية، وحماستي على أشدها كانت. وقلبي لا أستطيع كبح خفقاته. فالألوان الثلاثة كانت للكتبة والمصححين، للشعراء والكتاب الحيارى، للحزبيين المقدامين، لشكاوى الصادرة والواردة. مضيت بصورة عادية وإلى ما لا نهاية، فحتى الملائكة سيوسوس لها صوت الهاتف الأحمر المخصص للمخابرات. كلما بدأ الرنين كنت أقز وأنظر حالاً إلى الأجهزة والخيوط المتشابكة الممدودة أمامنا. ما أكثر ما رن، لكن سرعان ما ينقطع. شعرت أن الهاتف أداة تحقيق ومحاسبة وليس أداة عمل. لكنك لم ترد ولا مرة أمامي ولا كانت لديك نية القيام بالرد. فيما بعد علمت أنك تبغض جميع هذه الأجهزة. تنبذها وتوبخها باللارد. وإذن يتوجب أن تكون الغرفة، غرفة مسلم التقي كبيرة بصورة مضاعفة، أولاً لأنها غرفة المدير، وثانياً لأنه عام. وأناك العليا كانت في حالة سطوع تام. لماذا كان يقال عنك أنك: «قروي نزل المدينة في وقت متأخر؟» لكنك الآن أمامي، أمام صبيحة أو وصال أو وئام، لا فرق. تشبه ولياً جافلاً في حالة تحضير لإحدى الخلوات الصوفية. شاب أنت. لعلك لم تتجاوز الأربعين، كلا، ربما أقل. شاب ولديك جميع هذه الألقاب:

ـ زين إذا وصلت الخمسين فماذا سيطلقون عليك؟

ضحكت وانتبهت لذلك بغتة، وأيضاً لم تبتسم. رأيتك تطوي أصابع

كفك فابتسمت أكثر. لو بيدي مقياس لبدأت أقيس أطوال أصابعك. لكن الرأس، رأسك، العينين، الأنف، الشارب الكث الذي ذكرني بأحد الممثلين الإيطاليين في أوائل الخمسينيات ولم أعد أتذكر اسمه. السحنة والقسمات، وذاك الذي كانت هدى تفضل ترديده على البعض: الإطلالة، كانت غير مشجعة. لمن؟ وعلى من؟ رأسك ثقيل، ناء وغير مرئي، حتى لو كانت الأضواء طبيعية كشمس الخريف الصديقة، أو النور الاصطناعي حين رأيتك قبل أيام في صحيفة الغد لكنني أيضاً لم أرك تماماً. أنت مخيف قليلاً، قلت ذلك وأكملت، لا، كثيراً وكثيراً جداً.

ذكرت اسم هدى بضعة مرات، فقلت مرة:

ـ هل صحيح سافرت إلى بيروت لإكمال الدراسات العليا؟ لكنها لم تعر الشهادات أدنى اهتمام. فلماذا..؟

وثانية كانت على وشك إبلاغ أمر عادي:

ـ أنتما صديقتان منذ...

وثالثة:

ـ أنت تعملين كما فهمت بالخطوط الجوية وتترجمين. ها «الطيران الليلي» والطيار، ذاك الفرنسي الماهر. هل قرأت تلك الرواية؟

فجأة شعرت بمعاداة هدى أكثر من اليوم السابق. رغبت لو تلقى حتفها وبطريقة جد غامضة لكي نردد: أوه، يا للحادثة المروعة. فكرت بذلك وابتسمت. لو تموت هدى بالسكتة القلبية أو الدماغية كوالدها السيد جميل المعروف. أو تقتل على يد مصعب لكي أتفرغ للكتابة عنها. لكن فجأة طلع صوتي ضعيفاً وبطيئاً:

ـ تصور أستاذ، حتى السنين التي لم نعشها بعد، نحن وغيرنا، أشعر أنها فسدت مسبقاً. أخذت ونهبت هي أيضاً ولم يترك لنا أي شيء.

حين قلت ذلك رفعت رأسك وتجمعت النظرات الدافئة في نقطة

واحدة من عينيك البنيتين الرهيفتين، فأكملت:

ـ صحيح أنني لم أنشر باسمي حتى الآن. لكن نشاطي في الترجمة لا بأس به. تماماً، كتبت، أعني إذا كان لديك متسع...؟

لا أدري كيف حصل الأمر؟ كنت مستثارة ومنفعلة، ربما بلكمة من يدي أو حركة من ساقي، اهتزت الطاولة الصغيرة أمامي وسالت الأشربة الثلاثة، فنزلت قطرة، قطرات فوق نسيج السجادة النفيسة. في تلك الأثناء طلعت ضحكتي الرنانة القوية، ذات الذبذبات الطويلة. بدا فمي حنفية لا يتوقف ماؤها. من الجائز كنت أداري الإحراج بالضحك لكي أطفىء عطشي وأنت معي.

ـ هذه الخطة لو استمرت فسوف تثير اهتمامك وفضولك وسوف تصمد القصص والروايات إذا ما بدأت بروايتها أمامك.

فبدأت أضع قبالتك أفراد أسرتي، عباسة في الواجهة، الوالد في الوسط، شاكر وفخرية، ولما سقط اسم بدر، لم يسقط سهواً، اندهشت من هيبتك واعتدال قامتك. كنت تريد قراءة عدد الإصابات التي بمقدوري تسجيلها على القلب والجسم وأنا أضع قامة واسم بدر أمامك في الغرفة. لم أتحدث لتزجية الوقت، لكني لم أعرج إلى النادي الرياضي. لم أفعل ذلك بدهاء، كنت فقط أريد أن أقدم لك نفسي دون الوقوع تحت تأثيرك لتوليني بعض الثقة، وليس الأمان. جازفت، ربما، لكن بدأت بسرد الحكايات. إذا خلصت استدعي غيرها وغيرها. أشهق وأمسح عيني المكحولتين الغارقتين بالمرح والدمع الطافحين، كأنني أجمع تبرعات وأنتظر الحسنات منك، وأنت عائم فوق هواء الغرفة المبردة تراقب ولا تدفع لي أي طوق للنجاة، فتتوالى أسماء الرجال: بدر، شاكر، الوالد، مصعب والدكتور زياد المرهون. لم يكن الشاعر والرسام كمال عبد الرحيم قد وصل ضفافي التامة بعد. كان موجوداً على لوحة الانتظار أراه في المعارض التشكيلية، المسارح الوطنية وحفلات الموسيقى وعروض

الأزياء. سهوت عن الكثير من التفاصيل، ليس عمداً، لكن لأنني لم أتعرف على خططي معك. كنت أريد أن تنحرف قليلاً ويملأ فمك الشاغر فتبعث إليّ طيف ابتسامة، حتى لو حضرت في حالة الاضطرار. لكن الأمر معك كان غاية في الصعوبة. لم تلمح حتى بالنية بتشكيل انفراجة ولو يسيرة تفرج عن الطفل المشاكس والملتاع داخلك. أضاعف سيل القصص وأدفعك دفعاً لأقترف الفعل الخطير: الضحك. ضحكة جافة، عاقة، أو حتى مريضة سأقبلها. كنت أدري أنك لو أردت ذلك سيكون الأمر هيناً عليك وعليّ، أعني عادياً، معقولاً. هل يعقل أنك لم تذق طعم الضحك في عز المآسي والكوارث، في عز الشتاء والصيف، في عز الكآبة واليأس. معقول أن تكون فخوراً بهذا المنصب، أو الكرسي الدوار والمنضدة البراقة فتتصوره العشاء الرباني، وليس القصاص الإلهي. من المؤكد، شعرت هكذا، أنك تريد الاحتفاظ بالضحك للاستعمال الشخصي كما لو أن ضحكتك كالشخير ولا يجوز لأحد سماعها. بحق السماوات أجمع، كانت ضحكتك متوفرة وموجودة في مكان ما من رأسك ككلمة السر في الاجتماعات الحزبية إذا بحت بها طارت فروة أحدهم أو إحداهن. ومع هذا لم أظفر بها. كنت تقاوم، بلى وعلى المكشوف أن لا تبدو مائعاً، خفيفاً أو فرحان. أن لا يتصدع المثالي، المبرد فتتهشم شتلات الرصانة، والقسوة بالطبع.

ساعة على وجه التقريب وأنا أستفزك، أتحرك أمامك بيسر. وقفت بجوارك وفردت شعري الطويل الملون، لكن بقيت نظراتك كالثلج حتى سمعتك:

ـ من أنت؟ ماذا تريدين مني؟ وماذا ستفعلين بي؟

أمسكت مسند كرسيك وحدقت في عينيك فأسبلت جفنيك. تذكر ذلك بالطبع، فهذه لم أتخيلها. فوجهت إليك الدعوة على الشكل التالي:

ـ كم ستدفع لي لأدعك تضحك؟

اكفهر وجهك وأصابك الغم. هل توقعت أن أعرض عليك أمراً آخر؟ بلغة البرقيات سألت وأنت على وشك أن تصرخ، فغيرت النغمة حالاً:

ـ زين، زين، لا تزعل. كم تريد لكي تبتسم فقط؟

يا رب العالمين. كان غضبك يتجمع ويتشكل مثل الألعاب النارية على سطح وجهك. بشرتك ازدادت عتمة كما لو كنت تنوي إطلاق صلية من الرصاص لكي تنتهي من هذا العبء الطارىء والمزعج الذي سيأخذك إلى الورطة. كلا، لم تك تريد رمي الطلقات عليّ وإنما على ذلك الاحتياطي الخاتل جوّاك. أدرت وجهك إلى الشباك العريض والنظيف وبدأت تحدق وخيال ابتسامة يلوح، لكنك تقاوم. هل كنت خائفاً إلى تلك الدرجة؟ درجة تعاطي الضحك، وليكن الهادي، العادي والسخيف. ليكن العالي، قهقهة غير مضمونة العواقب. كأن ابتسامات المناضلين والمفكرين لا تحضر إلا بقرارات حزبية، وثمة بوليس سري يقتفي آثارهم فيما لو انفرجت الشفاه واستدعت عُشراً من غُرام سرور صحيح وعاقل جداً، وليكن بدافع الإرباك أو سوء الطالع أو الغفلة حتى. لم يدر بخاطري أن هذا سيمس الجو العام فينفخ البوق عالياً فوق الصواري والبنايات فيضبطون عليك اللقب: مبذّر للاقتصاد الوطني ومخترق للدستور الموقت. لم التظاهر بغير ذلك، سيشككون في درجة النقاء والاستقامة الثورية. وبسرعة غير متوقعة كان الخوف، خوفك ينتقل منك إليّ دافعاً بي إلى ضبط وظيفة الحنجرة واللسان، وقبل هذا تعطيل غدد الدمائة والمزاج الحامي. أخيراً قلت كلمتك الباترة:

ـ ألا ترين أن ظرفك وفكاهاتك عدوانية، استفزازية ومخربة أيضاً.

عدت للجلوس. أخرجت كراستي الصغيرة ورفعت رأسي إليك:

ـ هل تسمح..؟

بدأت أقرأ بصوت مضطرب ودون أن تومىء إليّ: ألست أنت القائل: «عند استلام السلطة الثورية يجري تدخل منظم في شؤون الحريات وقد

تسود الحسابات الرقمية والقياسية التي تسيّج قطعاً تحرك الحريات بالشكل الذي يحافظ فيه على معدل وسطي قد يعتبر أي تجاوز له نوعاً من الشذوذ أو المروق أو الجنون. إن كبت الحريات ليس صفة خاصة بالقوى الظلامية، بل إن القوى التقدمية والاشتراكية تلجأ أحياناً إلى استخدام كبت خاص قد تكون أو لا تكون مضطرة له...».

بهت واعتدلت في جلستك:

ـ هذه محاضرة ألقيتها في الشهر الماضي على طلاب الدراسات العليا في إحدى الكليات العلمية. هي لم تنشر حتى الآن، أعني أنها لم توزع إلا في نطاق محدود. لن أسألك كيف حصلت عليها لكن ماذا سجلت بعد؟

ـ هل تريد أن تعرف كيف أم أواصل القراءة؟

ـ إقرأي.

دخل الشاب ثانية وهو يحمل صينية عليها طلباتي الثلاثة السابقة وقدحاً من اللبن الرائب المثلج، وضعه أمامك وانصرف. بدأت على مهل بصوت لا أدري من أين حضر، شديد الثقة:

«برعونة، بأبرة غليظة، وبخيط سميك يخيط سترته.
يتكلم وحيداً
هل أكلت خبزك؟ هل نمت جيداً؟
هل استطعت الكلام، ومددت اليد؟
وهل فكرت في أن تنظر من النافذة؟
وهل ابتسمت عندما طرقنا الباب؟».

إذا كان الموت دائماً هناك، فإن اليأس أيضاً هناك.

بلعت ريقي الذي جف، رشفت من الحامض:

ـ لذيذ هذا الشراب.

ساكتين كنا وفي أصفى الأحوال، فبدأت أتعرق بصورة مضاعفة. وأنت لم تعلق وأنا كنت أريد أن أكلمك. أريد سماع صوتك بالكامل، مخموراً أو صاحياً. أسمعك حتى لو كنت ضدك، وعلى الخصوص ضدك. وليس أفضل من الذين ظلوا معك أو بجوارك، ولا أعلى مقاماً أيضاً. ضدك وليس بأي ثمن. ضدك بإخلاص اليأس، يأسك الذي كان يزعق في وجهي فتعيد نسخه فنستنشقه سوياً. وأنت ضدي وبوسعك أن تبقى هكذا ولا تتوخى التوفير أو التقتير، لا من السابقين أو اللاحقين. تعس، من يعرف أسباب هذه الأضداد، جميع الأسباب؟

بأعلى صوتي كنت أريد الصراخ عالياً أمامك أو وراءك فذلك أفضل من هذا الصمت النيء. انتابني الخوف حتى من مجرد شعوري الوطني وأنا أحمله برمته وبطريقتي التي لا أعرف غيرها. يا إلهي ما الفائدة الآن؟

أبعد نظري عنك وأنت ترد، ليس عليّ:

ـ في الرأس البشري كل شيء يتداخل، الموت والجريمة، الهستيريا، وفي جميع الأزمان. فأبعد بصري عنك. أرفع رأسي إلى الجدران المزينة بلوحات ذات حجوم كبيرة وبألوان وشخصيات صارخة جداً. والمكتبة، هنا سال لعابي فقمت ووقفت أمامها. معظم الكتب كانت تحمل عناوين حول فكرة حرية المواطن. كتب في الوحدة العربية والتحرر والفكر القومي. في قضايا الأدب والمسرح والثقافة. وروايتك اليتيمة «الثائر» كانت واقفة بمفردها. صافنة هناك. بدت لي، بين تلك العناوين، هي الأشد حياء وإرباكاً من أجل أن تحيا لثوان لوحدها، ولو بدون نظام. هكذا كنت تبدو أنت وسط تلك الأبهة الباذخة مديراً زائغاً، بلا مسؤوليات، بلا اقتراحات، وبلا لجان. فجميع الأزمات التي مررت بها، والأضواء التي سلطت عليك ثم أطفئت وعادت فيما بعد، تركتك بين الغسق والعتمة. كما هي حالك الآن وأنت تقرأ هذه الأوراق. حالتك هذه في رأيي البسيط هي منجزك الإبداعي الصحيح. لا أعرف كيف أفسر

الأمر لك، لكنني أعرف أمراً واحداً لا غير: إن الفن أهم من الحقيقة. بمقدورك سماع نبضي وأنا أنقل لك هذه الهرطقة، كما كنتم تطلقون عليها. بدر من جانب كان يريد أن ينسف جميع ما يدور في رأسي. وأنت وغيرك فهم كثر بيدكم المسطرة والقلم تريدون قياس حركة البط وهو يتنزه في الساقية ساعة الغبش. والموضوع واحد لا غير: «إن الإيديولوجيا وحدها هي التي تهم. وان هناك أنظمة رائعة تعطي الجواب لكل شيء وما علينا سوى أن نختار معسكرنا وأن ننضم إلى الطيبين الأخيار ونحارب الأشرار» وها أنت تراني أمامك لا أكف عن الصراخ وأردد، يا سيد مسلم ألا ترى أن «الدواليب تغص بالجثث، وجميع الإيديولوجيات تحمل الأكاذيب وهي زائفة، وبعضها يساوي البعض الآخر».

نظرت في ساعتك ولأول مرة وأنت تسمع رنين الهاتف يتكرر بالحاح هذه المرة. لم تدر أي الألوان سترفع، فوقفت تمد يدك. لم أر أيضاً طيف ابتسامة وأنت تضيف:

ـ سنلتقي ثانية، ثقي بذلك.

هل صرنا أصدقاء؟ لا بسرعة ولا على شكل عاصفة. كنا نمشي على حافة الصداقة التي كانت تطفو ثم تغرق في جوف دجلة، في نوبات من الفوضى والضنك. كيف تمتد صداقة بين رجل وامرأة عراقيين وطوال تلك الأعوام؟ كم؟ خمسة، أربعة، ثلاثة أعوام ونصف؟ لم أحسبها. مقامرة على ما أظن. حتى قبل انقضاء الشباب وتفاقم غرابة الأطوار وأنا أعرج على تلك السنين. هل كانت الحياة غير قابلة إلا بذلك الرعب «حتى لو كانت الحرية دائماً هي الأولى» فأنا كنت أشاهد، يا لسوء الطالع والمصير، أن ثمة «عنصرية ما في الوضع الثوري الذي يبدأ منذ الصباح الباكر وحتى اليوم التالي. أعني عنصرية احتقار الغير والاشمئزاز من الآخر. من هذا الفريق أو ذاك. كأن ثمة أناساً ليسوا أهلاً حتى لأن تتم كراهيتهم. إنهم ليسوا أشخاصاً بل أحجار».

والملف عنك يتضاعف. صار ثخيناً وكان يجب التدقيق فيه من حين لآخر. وأنت تنشر وتكتب:

«يمكن القول إن حرية الفرد شيء يختلف عن التحرر الاجتماعي العام بمزايا دقيقة تتصل بنزوع الفرد وحاجاته الفكرية والروحية. برغباته وصبواته، بمواقفه الذاتية من نفسه، من عائلته، من مجتمعه، من السياسة والاقتصاد، من الحياة والموت. حرية الفرد يصعب إطلاقها والتعبير عنها بقوانين ثابتة. إنها تحتاج إلى رؤية وفهم وموقف. عموماً تلك هي مشكلة البشرية والفرد وهي مشكلة فلسفية حقاً».

وورطة هي الصداقة بين امرأة ورجل. أم ماذا سنطلق على ذلك الذي تم فيما بيننا، كارثة شخصية أم مأزقاً وطنياً؟

توقفت أمام سور حوشك العتيق وأنا أقود العربة. أشجار كثيفة تحيط به. سوره عال وبناؤه يحمل كل المكونات المثلى لأولئك اليهود الذين فروا إلى فلسطين فبقي الحي موصوماً بهم حتى الآن. يقع في أحد فروع شارع أبي نواس. تخيلتك تخوض للركب حاملاً حقائب ثقيلة بها كتبك ومسودات بحوثك تريد العبور إلى الضفة الثانية من النهر. لا أدري لماذا كنت أتصورك دائماً على هذه الوضعية حتى قبل أن أصافحك وأراك وجهاً لوجه. الكتب تشبه حبات العرق على جبينك، فائضة سيالة ولا تتوقف في جميع الفصول. لكنني لم أر خاتم الزواج في إصبعك. وهم يطلقون عليك «أبا خنساء» أو «أبا ذر». هدى قبل أعوام ذكرت خطفاً:

ـ اي، هو متزوج وله زوجتان على ما أذكر. ربما واحدة تركها في بلدته الجنوبية والثانية جاء بها معه إلى بغداد. أضافت: لا أحد تعرّف على ذلك الجانب من حياته. كأن الأمر يخدش حياء الجانب المحافظ لبعض المناضلين.

بين صناديق الكتب وحقائب السفر أتصورك دائماً. في تلك الأحوال أراك في زاوية حادة من الحوش تنام على صدر الزوجة وبلا إلهام.

منزعج، عصبي وضجر وكل شيء يمشي في مستواه المطلوب. لا صرخة ألم ولا صوت تلذذ ولا ضحكة صادرة من القلب. كأنك تنام وحدك، كلا، تنام مع نفسك. تساءلت: هل كنت تحادث زوجتك؟ هل أحببتها يوماً؟ هل ابتسمت أمامها؟ كأن الزوجة تذكرك بحالة من حالات النظام. كما كتبت يوماً في إحدى الدراسات:

«ومن أجل أن أبدأ بدايتي الحقيقية فأنا أنكر النظام فأقع في التهلكة» ولما دققت النظر في الموضوع كان عن الشعر أيضاً.

بعد حوالي الشهرين وقبل حلول العام الجديد نشرت: «نشرية لكل رأس سنة» بعد أن طفح الكيل معك وضدك فانسحبت تماماً من جميع المناصب والأماكن. هل كان ذلك بعد قيام الجبهة الوطنية بقليل أم بكثير؟

«عندما أنام على شوق الوجوه
وأصحو على الفراق
أظن أن النساء،
كل النساء عوانس،
والرحلة، أرملة بين صبيات،
ذاك ود زائف.
يا محترف السؤال
أقول للذي في قلبي، للقريب
للحبيب الأبيض،
أقول لنفسي، وأزجر نفسي.
فقل للمعانق احترق،
فلتعلم يا أبا ذر
إن الأخلاق خشية الآخر.
لملم نفسك إذن

وامض
وإذا سألوني عنك
أقول مات.
اي حبيبي.
الفرحة حصيرة هجرها الجالسون.
ونادل يتصفح الوجوه.
يسأل الكرسي.
عن الذي رعاه
ثم غاب
أيها الغائب ـ هل تعود
وبعدها نهرم يا محمد».

بطل أنت يا مسلم التقي وتتسابق مع الأبطال. كانت تعوزك هذه الخطوة الإضافية نحو الأسطورة، لكي تركب مخاطر البطولة. من قال انك طاهر الذمة؟ ومن قال العكس؟ هذا ما عليك عمله، الذهاب إلى آخر الشوط وفي مقدورك التوقيع في آخر المقطوعة النثرية باسم أحد ولديك، لا اسمك الاعتيادي. مخذول البطل إذا انتهى مديراً عاماً في غرفة مبردة، فلا يدري متى ستنتم التضحية بحياته. أمام أجهزة التلفزيون؟ أم بين «غرفتين ومطبخ» تقعان أمام دجلة؟ أم في بيت أكثر تواضعاً في القرية إياها في جنوب العراق؟

لم تعجبني كثيراً تلك النثرية، فعدت إلى ثيابك. كانت بدلتك عادية، وهي ليست بدلة كاملة. جاكيت أزرق غامق اللون بزرين عاديين. قميص أبيض مقفول إلى آخر الصدر. فكرت لدقيقة، لو مددت يدي وفتحت أحد الأزرار. شعرت أنني على وشك الاختناق فكيف أنت؟ استشعرت العناء الذي تكابده، كأن صدرك سيتعرض للسرقة أو الاختراق إذا فتحت

زراً زائداً عن المقرر. أقسم لك، ما كنت أريد لمس صدرك، فقط لأحفزك على التنفس الحر لا غير. سروالك أزرق عائم وبلا ثنيات، قديم مجعد إلا أنه نظيف. ملابس من درجة مناضل، لا من درجة فارس. ومن الجائز أنك أول ما تعود إلى البيت تبدأ بالتجوال حافياً بين الغرف كعادتك يومياً. تمد ساقيك وتبدأ الزوجة الصامتة بقص أظفارك وتدليك عضلاتك، بذلك النمط من الثرثرة المعلقة بين سقف الفم وكف اليد.

وإذن، غادرت بعد انقضاء الخريف وحلول فصل الشتاء. فهل سيطاح برأسك في الخريف القادم؟ فيما بعد، لما التقينا وبعد اللتيا واللتيا، قلت لي، وكان الوقت صيفاً:

ـ الخريف هو الجانب الجوهري حتى في ثقافتي. فأطلقت على باقي الفصول المساكن المهجورة.

وهكذا كنت ألاحقك في مكتبك القديم ولا أعثر عليك. في حوشك العتيق في أبي نواس وأيضاً لا أجدك. ثم غادرت في طريقي إلى السماوة، ومن هناك حصلت على عنوانك بطرقي الخاصة. فوصلتك. فليكن. ملاحقاً، أو مغضوباً عليك. مطارداً أو على وشك أن يقطع رأسك. لا مواصلات تصل إلى تلك الدار، إلا العربات القديمة التي تجرها الخيول الهرمة أو الحمير البائسة. على ضفة النهر كان حوشك. كما تصورت وبيدك الحقائب وتريد العبور. فترى الأسماك قافزة هابطة من بين الحشائش المائية بفعل الريح والأمواج وحالتي المد والجزر.

لما شاهدتني وراء الباب اختلط الحابل بالنابل، حتى ظهرت زوجتك من وراء الحجرة. يا إلهي، هذا لطف الزوجات المطيعات اليائسات. شعرت لثانية أنها قامت من النوم للتو وكانت على صدرك طوال الليل. هذا الأمر شحذ حواسي وأنت تتصبب عرقاً وهي تحاول، حاولت ذلك باستماتة. بيدها المنديل ودواء المرارة والطحال المضروب لكي تمسح عرقك.

بأريحية قطعت قلبي بعدما قدمتني إليها:

ـ السيدة وصال صحافية تعمل معنا في المؤسسة.

كانت ضيافتك تلقائية ومع هذا لم تشجعني على الحديث أو مواصلته. فما أهمية كل ذلك وقتذاك. لا أملك الماضي لكي نعرج عليه سوياً، ولا الحاضر أقرصه لكي أثق انني بجوارك وأمامك. كانت اللحظات ثقيلة كأفيال الحبشة على الزوجة. هل أحببتك؟ وأنت وأنا نسيء معاملة ذلك الذي يطلقون عليه الحب. لا أدري. كل شيء أسأله كنت لا أعرف الإجابة عنه. أما أنت فقد كان وقارك ينتقل إليّ بعدما أكلنا وشربنا الشاي. سألتني المشي قليلاً أمام الجرف. كنت غير قادرة على التفوّه بكلمة. إذ وجدتك تسد عليّ الطريق ونحن نتمشى ببطء شديد. لكن مزاجك اعتدل قليلاً ونحن ندوس الطين والحشائش والأعشاب الميتة. هل كانت هذه طريقتك في التنقيب عن الخلود بين النهر والأمواج وأشبار الأرض القليلة التي تقف فوقها؟ هنا تتريض كل مساء أمام الضفة وأنت تشاهد هيئات الأسماك وكأنها تسبح في حمام تركي. كانت غرائزك فعالة وشديدة. مست يدك خطفاً يدي ونحن على وشك الهبوط في إحدى الحفر التي واجهتنا. جفلت ودمدمت:

ـ ها...

هنا تبدأ الوحدة التامة والنجاة من أجواء العاصمة الخانقة. الريف اختصاصك الدائم. هنا ستنحدر إلى ليل الخمرة وتصل إلى أملاكك الخاصة. لم أندهش وأنت تبدأ بتحريك عضلات صدرك ويديك. كنت تبحث عن صوتك، وجبتك غير الرسمية وخبزك الطيب وأنت تستحضر الأبوذية العراقية التي كانت تستهويك كثيراً. فغدوت أشد أنفة وعزلة وأنا بجوارك. وأنت ترفع صوتك بغتة بالغناء عالياً، عالياً جداً. ووراءك بغداد وأمامك دجلة وأنت تداوي شقوق الأيام والسنين. كنت تنوح وأنا ساكتة:

«الواعظ تاه فكره وصار بعضاي

بودادك كام بعضي بجسد بعضاي
مدار الماي دار هواك بعضاي
إلك كل الجسم والرسم ليه»

إلى أمام كنت تمشي كأنك وحدك في الملكوت الرباني. ابتسامتك على تخوم حلقك وبين أسنانك، تخاف إذا بدأت الضحك ألا تتوقف. لكنك كنت على وشك البكاء. بالكاد كان الضحك سيتم باحتشام. والعويل كان آتياً على هيئة تحفظ. كأنك تريد أن تحيي إحداهن، واحدة حضرت إلى الخاطر المنهك فورثت لك سيجارة ووضعتها بين يديك. أول سيجارة أمامي وبعد طلوع الروح. أخذت نفسك الأول وغامت عيونك. تلاشت أشجار الغرب وبغداد، المكاتب الصقيلة والسجاد الوثير، الهواتف التي ترن ولا تسكت. تتلاشى المدن إلا هذه القرية. قعدت للغناء. دخل في روعك أنك «داخل حسن» صاحب الصوت الذي يكسر الروح والضلع من الشقاء والألم العراقيين. صوت المغني يتعالى في جنبات الكبد كالمرثية، ويتجمع في الحلق المليان بالعشاق والمفلسين، بالحفاة والمساجين، بالأوغاد والآلهة والزهاد. فصرخت إلى آخر صوتك:

«تانيني شوية ريض وخل أعاتبك
وصوابي بسكوت ما تدري حكها الناس»

ضربت بساقك شجرة وقفت في طريقك. ضربتها كأنك تبوسها وشعرت أنك تشعر بالعبث. عبث أشياء فظيعة، مريرة تركتها وراءك لما حضرت إلى هنا ولم توافق مرة واحدة على الحديث عنها قبل الاستغناء عنك. كنت ثملاً تماماً وقبل أن يحين الوقت، وبوسعك انتهاك المناسبات لكي يبدأ ليلك. شعرت أنك بدأت تهذي وأصابعك تمررها على الذقن الذي نبت فتركته هكذا. وصرخت بصوت هائم:

ـ أين أنتم يا أصدقاء الصعلكة والتشرد. يا أصحاب تغير الولاءات؟

فليكن، الصحن الذي أكلنا فيه سوياً بالت عليه الثعالب والنسانيس: «فهل يقطع الصوفي الصلاة، وهل يرتق نفسه، وهل بعد اليوم يا من سخنت في جبهتي شماتة؟ غالب أو مغلوب» ستمضون مبتعدين عن المعمعة وعلى مقربة من الكاميرات. فماذا تريدين مني أيتها السيدة صبيحة؟ التفت إليّ بغتة، أوقفتني أمامك وحاولت إمساكي من الذراعين وأنا منكسة الرأس:

ـ ماذا تريدين يا سيدة وصال أم وئام؟ ماذا تريدين بحق الموتى والأحياء؟ من أرسلك إليّ ولماذا تلاحقينني؟ هل تريدين ثمناً لإثبات البراءة، براءتك؟ أم ثمناً لخفقات قلبك الكريم بعد كل ذلك الإنجاز الشائن معك؟ ها، هيا، أنت على الخصوص لست بحاجة إليّ ولا بحاجة إلى أي مخلوق. إذا سألوك عني ـ قولي لهم ولك... قولي... مات.

* * *

يا لسوء التفاهم ثانية وثالثة، وعاشرة. لم أنتفع بالأخطاء القديمة ولا دخلت في طريق الصيام المعكوس أيضاً. أعادوك للأضواء ثانية وقريباً من أصحاب القرار وبعيداً عن ورع القضاة. أعادوا مسلم التقي، كان الجزع منك أن تبقى حراً طليقاً، أصعب من غواية سجنك أو أسرك، وأيضاً ذلك لم ينفع، لا معهم ولا معي. كانت اللعبة خداعة وعجيبة فسمعت كما سمع غيري، هذه أوقات الإشاعات ثانية، أنك بدأت بكتابة فصول عن: «الذين يخربطون العالم»، أولئك الأكثر أهمية في التاريخ. فالقوي يفسد الكون والضعيف أيضاً» وأنت، أنت يا مسلم التقي وبالتحديد إلى من تنتسب من هؤلاء وأولئك؟

ـ ٤ ـ

حولوا الأشياء المدمرة إلى أشياء نافعة

لم أكتب ما كتبت من أجله: بدر المحبوب، محبوبي الخسران. وليست لدي أية أدلة على أنكم ستقرأونني في الأجيال القادمة. فإلى الجحيم كل ذلك الآتي. أفضل شيء ينجيني منكم جميعاً هو الجلوس على العتبة وإتقان الفرجة. وحيدة وبدون أنصار؛ حسناً، هي الفرجة والتسلية. أضع نظارتي على عيني وأقف في الباب وأدعوكم إلى ضيافتي. مواهبي هي هذه ولن أهدرها، لا من أجل هدى جميل أو الأستاذ المناضل مسلم التقي، الذي كلما ذكرت اسمه أمامها أو استفسرت عن إحدى الإشاعات التي كانت تلاحقه، كانت تلتقت صوبي وبصوت تحاول خفضه قدر الإمكان لكي لا يسمعها الأستاذ مصعب، زوجها:

ـ صبيحة أنت صرت خطرة وأنا بدأت أخاف عليك.

هذا كلام يستبق ما حصل، لكن تشابك الحيرة والخطر دفع بي إلى اكتشاف طريق ثالث فقلت لها ونحن وحدنا:

ـ ألا ترين أننا معاً لكننا لسنا سوياً، وما علينا إلا أن نختار أسماءنا الجديدة. أنا تركت كما ترين اسمي واسم والدي، لقبه وأفخاذ عشيرته وحضرت لي بضعة أسماء؛ وصال، وئام وسهاد. تراجعت صبيحة تماماً لا عن طواعية ولم أهتم بالعثور عليها ثانية. هذه قصص أخرى ستحضر من تلقاء نفسها، ستجيء بضربة، بضربات على الرأس والقلب والقدمين.

فأنا لم أستعمل «أجهزة تنصت متناهية الصغر والدقة كما فعل الأميركيون في الحرب الفيتنامية مثلاً لتحديد مواقع المقاتلين الفيتناميين من خلال التقاط ضجيج محركاتهم أثناء التنقل». اعتمدت على نفسي وحدها، وكانت «حقاً آذان الأدغال كما سماها الأميركيون وبالاً على أولئك الأبطال إلى أن تم اكتشافها. لكن بدلاً من تعطيلها فضل المقاتلون وفي سرية تامة تضليلها بتسجيلات صوتية وهمية». لقد تابعت أكبر عملية تضليل وهمية ضد العدو وكانت كلمة السر في الفلسفة الحربية الفيتنامية هي: «حولوا الأشياء المدمرة إلى أشياء نافعة». المكر ذاك أثمر، وكذلك الدهاء. وها أنا أبذل قصارى جهدي لإنجاح الخطة: تحويل الأشياء المدمرة إلى أشياء نافعة. فأسجيل ويومياً ما اقترحاه عليّ في أحد الأعوام وفي أوقات متباعدة. هدى بصوتها المجادل:

ـ اغرزي السهم في قلبك أولاً وغردي مع دمك كأنك في حقل موسيقى.

وبدر الذي يريد اقتسام دمه، وصوته يخرم روحي بعدما تيقنت أنه لم يعد موجوداً:

ـ لا تتراجعي حتى لو لم يبق من الأشياء والقصائد والغناء والبشر أي شيء، حتى لو لم تعرفي إلى أين أنت ذاهبة؟ فبفضل الفظاعات علينا العمل والتحدث ثانية عن الغد.

كلا، ليس «الغد» الصحيفة، التي شملتنا بالعطف والرعاية واقترحت بالخط العريض واللون البرتقالي، وعلى الصفحة الأولى:

«افتحوا الأكياس أيها الكتاب الشباب واملأوا صفحات الغد بمحاضر الإبداع... هيا.. هيا إلخ».

أطلقت قهقهة ذات رنين وأنا أقرأ ذلك المانشيت العريض في أحد الأيام وبعد مضي تسعة أعوام أو أكثر وأنا في طريقي إلى مكان عملي في

مديرية الخطوط الجوية العراقية. ترى من يهتم بالسنين الآن؟ وهي تدفع بي إلى النادي الأولمبي والسيد رامي حيدر يمج نفساً عميقاً من غليونه ذي الرأس المخروطي المصنوع من خشب صقيل. عادت رائحة التبغ تضللني فهو على دراية تامة بما يقوم به وبمظهره لكي يستحق لقب الغامض الملغز، وأمري يستفحل أمامه، فتصير المراودة أشد من الرحمة، والمساومة عناية إلهية وهو يشرف على مكان أسري الجهم. السيد رامي كان يبعثر الأوامر كالعطور ويدور حولي. يلتقط صمتي بقلب مفتوح مردداً، كم معجب هو بالإرادة والشجاعة:

- ثقي أننا في العمق نفضل الناس الذين يصمدون.

لثتي كانت وارمة ولا أقدر على الابتسام، ووجهي أخفيه بيدي لكي أجنبهم ملاقاته وهو غير لطيف. بعد أيام، لا أذكر خمسة أو سبعة، حلوا وثاقي وبدأت أشغل مكاناً على البلاط. ثم أحضروا حصيرة يابسة، فتطورت الأمور ونمت يوماً على بطانية خفيفة. بالطبع أخذوني إلى المغسلة وكانت بعيدة ومثيرة للاهتمام. ارتقيت درجات عدة في الذهاب والإياب وكدت أتهاوى. ولأول مرة أشم رائحة امرأة خلفي، في سني أو أكثر قليلاً، لكن وجهها يشبه نساء الإعلانات. كانت حركة الليل والنهار بها اختلاف طفيف فلم أقدّر تشوُّش الأمور في رأسي وداخل حواسي. كنت أفيض ومن الجذور بالنظافة لكني لا أستطيع بلع ريقي. أما النزف الطويل ذاك، فقد تكتموا عليه في بادىء الأمر حتى استفحل أمري، فعرضت على إحدى الطبيبات. انفعلت تلك السيدة لما شاهدتني وصار لازماً عليها علاجي. فشاهدت بعض مظاهر الخوف على سحنتها لكنها لم تحدثني بصورة شخصية أبداً. أخذت تراقبني فحسب، تراقب بدني كمدربة رياضية تريد اكتشاف أي الأعضاء أجمل لكي يعاد التدريب. التجأتُ إلى طريقة غاية في الطرافة، شعرتُ بذلك وهي تدفعني للوقوف وبدون مسند. كانت تفضل الأبدان الواقفة كالرصاص. تمد ذراعها فتسمع

صوت الخلايا وهي تتكسر بين كفها، فتقطع ذلك بالتفكير البطيء والتأمل الطويل. أشياء كثيرة حصلت وهي تدور بي أمامها، ومن الطبيعي أن يذهب تفكيري بأنها كانت تقوم بتكريمي وعلى خير وجه. فكتل الدم كانت تراها بأم العين فتزيحها بحركة شديدة الرقة وتواصل الصمت. وساعة طلبت مني خلع ملابسي بالكامل، الحقيقة أنني وافقت لكنني لم أقو على رفع يدي فتهاويت حالاً، لكنها لم تثق لا بي ولا بإرادتي. فاقتربتْ، أبدت احتراماً نسائياً عالياً وهي تنزع عني مناماتي. تصورت أنها فعلت ذلك من أجلها هي لكي تبصرني وعلى مهل، فبدأت أنا بالفرجة بدلاً عنها: الحروق والعض وأشياء كثيرة، تباً لها كانت تقاسي أكثر مني. وأنا لا أغمض عيني صعوداً وهبوطاً على الألوان التي تطايرت على بدني. انتقلت الألوان من الأسود إلى الرمادي المزرق وتوقفت على اللون البنفسجي المائل للاخضرار. وجوانب عديدة لم أقو على مشاهدتها في العمود الفقري بالطبع. لون واحد لا يحب المزج ولا الاختلاط؛ الأرجواني، وأنا أنزل رأسي إلى جميع أجزاء جسمي. قررت أن أنفق كل ثروتي وأقتني هذا اللون، في الثياب والشراشف، في الستائر وعشاقي. فحاولت سؤالها وعلى هذه الشاكلة:

- كيف بمقدوري أن أدع هذا اللون على بدني سالماً وغير منقوص وهل ذلك ممكن طبياً؟ ليس للتمتع بجمع الشمل، فقط لخدمة الفرجة وإلى آخر الشوط.

عيناي ما زالتا مفتوحتين، وتلك السيدة، فكرتُ ماذا لو استلقت هي بدلاً مني أو وقفت بطولها وعرضها أمامي، فمن الجائز سنشعر بتواطؤ النساء مع النساء، حتى في الأمور السخيفة هذه. لكنها واصلت التحديق فيّ وحركة يدها تجس جسمي فتتضاعف الرابطة بيني وبين بدني.

مددتني على منضدة كرة البنغ بونغ فأخذت وضعيتي وشعرت أنها

ستبدأ المباراة. ممكن أن يكون هو صوتي ذاك الذي أطلقته رأساً على عقب وهي تمسك فخذيّ فاتحة إياهما وإلى الأخير ويدها غائرة إلى الداخل، فبلغ إعجابي بها أقصاه وأنا أكرر شكراً، شكراً. وأصوات نافرة لأناس يفدون كالبرق الخاطف ولا يبصرونني، فالجميع مسرع. وفراغ مائع، كلما مشيت إليه تراجع إلى الخلف. وصوت كلب يعوي، لا يشبه عواء باقي الكلاب. كلب في ورطة، مخفوض وينسل بجواري، يلتصق برفق ويبدأ بلحسي وشمي فيهدأ. الكلاب تصطفيني فيمتلىء المكان بأشباحهم وعوائهم الضاري. تتغير الهيئات فيصيرون غيلاناً بوجوه فجار، يركضون ورائي ويثيرون الغبار من حولي. وبدر يمر في تلك الأحوال. فقد أصول الكلام وعادة الإصغاء. تدلى من على دراجته الهوائية. والسماوة في الخاطر، وأبي يمسك يدي بعيداً عن تلك المسألة. وأطفال، صبيان ونساء وجوههن لامعة وهن يتزاحمن بالأكتاف والعباءات الصوف وراءهن. نساء ناهضات على هدف واحد، على أكتافهن صبية صغار في أفواههم مصاصات. ورجال من جميع الفصائل في موكب يتموج في طريقه إلى الشط. ورجل ضخم طويل وسمين لا يمكن السيطرة على خطوته، يجهش ويولول والجميع يصيح من خلفه وأمام أبي:

ـ عمي هذا أموني الجربان عصت الكلبة هناك... استبد الخجل بوالدي فتوقف عن السير. والرجل أراه من بين القامات والأصوات والصراخ يرتدي دشداشة قصيرة، ساقاه مشعرتان وفي حضنه ما يشبه القربة تترجرج وهو يصيح: «لا، لا، لا» مذعوراً، وينظر شزراً والسواعد حوله تتصالب تريد لمسه وإطلاق سراح الكلبة. العربات والشاحنات، العمال والموظفون يركضون وراءه وهو يحاول الفرار. يستهزىء ثم يطلق عواء رهيباً. بغتة بدأ الركب يجري والجلبة تبتعد إلى أول الجرف. وبدر تبدد شكله هباء أمامي ورأسه منكس: «عمي هذا أمين المخبل». النهر سيفك وطره. لكن كلب السيد حسون الأميركي كان يخرج لسانه علينا

ويؤدي عمله على أكمل وجه. مربوط بسلسلة معدنية. كلب حقيقي. خفيف الحركة ومرح. هو حارسه الوحيد يقفز أمامه أو خلفه ويتلقى الأوامر حين تمر الآنسة هجران في طريقها للخلوات المسائية أو الذهاب إلى الكلية. فيقف على قائمتيه الخلفيتين، يتودد لصاحبه وهو يلاحقها حتى تمر الدنيا من أمامه في خطوها البطيء. ذيله قصير ولونه بني فاتح وفي رأسه عرف فضي. عيناه ماكرتان وشكله شيطاني. وكل مرة يلبسه سيده أمراً مغايراً: قبعة صغيرة جداً مثبتة أعلى الرأس ومصنوعة من الكارتون ومصبوغة باللون البنفسجي. وشبان حي الصليخ الجواني يضعون أصابعهم في أفواههم رافعين الدشاديش إلى أعلى ويطلقون الصفير الحاد، والكلب يرتدي المشمع الواقي من المطر بقماش ذهبي ثبته بأزرار براقة في أسفل بطنه، والاثنان يمشيان في وقار. حسون البطل الأسطوري وبجواره علامة البطولة التامة. والرجل يتقدم والجميع يشير إليه وهو يمر بجوار النادي الأولمبي، فيرد التحية باقتضاب مثل لورد إنكليزي. أرامل وزوجات ومطلقات أسندن ظهورهن على أسوار النادي وهن يشرن عليه بالإشارات المبطنة:

ـ عبالك بهلوان في سيرك، ساحر.

لا أحد يتكهن بخط سيره. لا قيظ يمنعه، لا مطر يردعه ولا الشتائم البذيئة. وهو يشوش أبصارهم فيبتعدون متحسرين حين يمر من أمامهم؛ بدن رياضي عارم، عضلات مصبوبة كالحديد المسلح. قامة طويلة صحيحة مبنية باللحم والعظام الطويلة المستقيمة منتصبة بلا التواء. صدره فسيح، ذراعان طويلتان كالوتر. كفان هائلتان تتحركان أحياناً بآلية، وطوراً تحملان الزنابق. رقبة طويلة معلقة على جمجمة كبيرة متناسقة. ووجهه محبوب بقسمات تقترب من شيوخ الطرق الصوفية. بشورت قصير لا يحترس من تبديل ألوانه بين المقلم والمشجر والساده، فوقه قميص ناصع البياض، نظيف والياقة دائماً مرفوعة إلى أعلى، والكمّان مطويان إلى

فوق، وصدره مشعر جداً والساقان غليظتان ومعضلتان وهو يبتسم ساتراً بشرته الصفراء. وحين يبتسم تبرز أسنانه البيضاء المتناسقة، وكأنه يريد الإعلان عن معاجين جديدة نزلت الأسواق حديثاً. وفي طرف لسانه تسكن أسرار لا تروى، وقصص بلا نهايات. هو مفكرة الحي الراقي والشعبي، وصحيفة سوابق العديد من العوائل والبيوتات. وحسون دمث، مؤدب وحر. تماماً، هذا عمره الحقيقي؛ الحرية. حين حضر أحد الصحافيين لإجراء مقابلة، توقع الحصول على كنز من الأسرار. دهش المصور أولاً وهو يشاهده يجري حول حديقة عنتر، والساعة تشير إلى السابعة صباحاً. يبتسم ابتسامة وضاءة، وبيده باقة زهور صفراء، وباليد الثانية السلسلة، والثلاثة يجرون وراءه وهو يبتسم ويوزع الزهور فهو لا يجيد أصول المحادثة. ظهرت صورته على الغلاف؛ عينان عميقتان جميلتان تظللهما رموش خفيفة وحاجبان كثيفان وشارب مقصوص على طريقة كلارك غيبل. ولونه، ها، اللون كان محل خلاف. أسمر نعم، لكن الشمس العراقية رتبت له الإشعاعات فتبرقع بحمرة وصفرة أخذت من العنبر والزعفران والجوري وهو يغيب إلى مقر عمله في مستوصف النعمان خلف المقبرة الملكية. أول ما دخلت النادي لمحت حسون وهو يقاد إلى الداخل. كان يرتدي سروالاً طويلاً وقميصه مقفول حتى أعلى زر في الرقبة وكلبه يقفز ويجري وراءه، والسلسلة تخبط وحدها وصوت الاثنين يتلاشى في أثناء الوداع، حين استدار أحدهم وصاد الكلب بصنارة صيد. وأنا أعود للنوم على ريش نعام. أنفاسي خمدت والعرق يطفح مني. ويفترض هذا وجه بدر ثانية. مسنة صرت وأنا أحاول الارتماء عليه ثانية، فيستوحشني الشباب، شبابي. ويطلع من حلق بدر دخان سجائر «أم البزون» فبدأت أوسع له طريق الحلم والعلامات لكي يستدل عليّ. استمر على وضعيته حتى دخل مجدداً وبيده كلب ضخم كبير، ليس قبالتي لكنه معي وصوته يراوغني: «في التسعة والخمسين. يعثر بدر أخيراً على

صوته، فيضيف، أخبرني بعض الأصدقاء نقلاً عن طبيب أسنان تخرج للتو وذهب إلى إحدى المدن الجنوبية للعمل هناك. قال لي إن صديقه عالج شخصاً في المقاومة الشعبية كما يذكر، ربما هو مظلي أو شيء من هذا القبيل. تدرب في إحدى الدول الاشتراكية، لم يذكر اسم البلد. ذلك الشخص أخضع لتكوين طبيعة وحشية يصعب تصديقها. إذ تقدم له تدريبات ويجب عليه أن يتركها طي الكتمان. فهو تعرض للتعذيب في أعضائه التناسلية بواسطة الكهرباء لمعرفة هل يتكلم ويبوح بالأسرار أم لا فيما إذا ألقي القبض عليه. ثم وفيما بعد يُقذف في اتجاه كلب تطوق عنقه مدية وما عليه إلا العراك الضاري مع الكلب من أجل انتزاع المدية ليقتله بها. بعد ذلك عليه وضع رأسه في جوفه». قلت لنفسي إن لدى بدر قدرة اللعب بالأعصاب. فحسمت أمري ودفعت بتلك القصة ورائي. لما شاهدت بدراً يقبل عليّ وهو يحاول دفن رأسه في بطني وأنا أتمدد وأنقبض. شراييني تتوسع وأتجه إلى جميع الاتجاهات. أتحول إلى أم أربعة وأربعين. الرأس في الرأس، الفم في الفم، واللسان في اللسان. وأنا أتكاثر، أتبرعم وأسحبه خيطاً وراء خيط من أنفه الكبير وأسنانه المتفارقة. وصلعه يزداد كآبة في مقدمة رأسه. أصبح في عينيه البنيتين الشاسعتين المصابتين بالطيبة. لم أحب يوماً بهجة طيبته. كان يتلذذ بها دون علمي فتجعلني أهتاج غضباً ورغبة وهو يتلو أمامي بيان الأهمية العالمية بصوت مستثار يشب وينطفىء. هيئته تستفزني وهو يجهل خططي كلها. في تلك اللحظات كنت أشتهيه وأريد مضاجعته في جرف الفرات، وراء حدود حوشنا ودون التفوه بكلمة واحدة. لا أسمع ما يوجهه من كلام وهو يقرأ في كتاب مفتوح أمامه تركه في الصفحة الفلانية. ويدني كله صالح له، ذنبة تسير وراء غنمها. فأحجز عليه، أستلبه وأضربه على صدره، فتزداد فرقة أسنانه الأمامية اتساعاً، ولثته المعظمة تبرز أكثر. للحظة شعرت أن بدر كان يتهرب من النوم معي بالنضال وأنا أتعلق

بصدره وصوتي يرتخي:

ـ ناموا كلهم الآن.

ونحن نخوض في الموضع ذاته ونتجه إلى الداخل والأمواج تدفقت صوبنا. ألوب وأصيح: بدر، يا بدر، اليوم خميس وأبوك عاد من السوق الكبير، وأمك تلقي السلام على زوجة أبي، وابن خالتي شاكر خاتل وراء السور، حائر ومخذول، شاهدته وأنا في طريقي إليك.

ـ غن صبوحتي.

نبضي يتسارع ونبضه توقف. وكلما يناديني باسمي أشعر بالتسمم فأقترح سراً؛ ستكون لي أسماء فرعية لا تصبغ خدودي بالحمرة وهم ينادوني بها. وبدر يبوسني، يشمني وصوته مدمى:

ـ غن يا بعد عويتني.

باتجاه الفرات والهلال صار بدراً وأنا أشيل يده، أضربها وأبوسها. أبوس العينين والأهداب المبلولة والشارب المخضوض. أبوسه بعجلة كأنه سيفلت مني بعد ثوان. أجمع الماء في يدي، أغرف، أشرب وأسقيه. أخوض وأسحبه للداخل، إلى تحت. ووجه بدر يصير مضللاً ويدوخ. هذا ليس بدراً ولوحده. هو ليس رجلاً واحداً. فبدأ يفرخ تحت الماء، يتراكم ويصير قناعاً فوقي. قلبته بين يديّ فتوافد سكان المياه الجوفية بأحجام وهيئات وقسمات وهم يتبادلون الأنخاب بسكينة. والماء يأخذنا بعيداً. يضربنا موج المد وخيالات أشجار القصب الطويلة ذات الرؤوس المريشة، فأصيح «آخ»، أوخز في قدمي ونضحك بصوت عال.. ومعابر النهر لا تنفك تمسك بتلابيبنا فلا نهتم بزناخة الأسماك التي تلبط بين سيقاننا. وأرجلنا تتأرجح فيبقبق الماء تحتنا وهو يجرنا لسيله. حنجرتي تريد أن تنفث نفسها بين لسانه ولهاته. بدر يقف على عتبة صوتي فأصر على أسناني وأنفجر بالبكاء. وهو يجمعني بين يديه كالقربة، وأنا أخضه

لكي يتخثر. فتلين عظامي ويذوب شحم عضلاتي ولا أخفي الشهوة في فمي وأرتخي ولا أدري إن كنت أحب بدراً. لا أعرف. كنت أتفكك وأتجمع ثانية وأنا أصعد رأسي إلى القمر الأصلي وهو يدفع بساقي إلى تحت. فلا يعود هو بدر ولا هو البدر، هو ليس بدراً. ارتجف أمامي، امتلأ وانتفخ حتى انفجر كقنبلة، رافعاً ذراعه إلى أعلى فلا أدقق في ملامحه. بدر وجهه دائماً غير حليق، كث الشعر في الحاجبين والشارب والصدر. يبكي ويعول ويبتسم في وقت واحد. الابتسامة تلك، ليست مجرد وظيفة غريزية لا تبلغ ذروتها إلا وهو ينوح عالياً. لم أر مخلوقاً ولا أعرف أحداً يبتسم مثله، تماماً، كان يفعل ذلك بعذاب مر. وكانت ابتسامته لا تطاق ونحن نخوض ونطلق عياطاً كما لو كنا مولدات كهربائية لا تتوقف عن الحركة والدوران. والموج يغسل صوتي ويجففه ويقدمه وحده جارفاً معه التكرار. يحضر صوتي بمفرده واقفاً على باب حلقي. أمي كانت تغني أيضاً. صوتها لما يفلت من لسانها كان شديد الحماوة، محبوساً، حبس طويلاً وفك أسره. ينتظر صوت أمي قليلاً حتى يتصاعد ويتجلى. كلما تغني أمي كانت طبقات الضيم تتفتت وتعاود ثانية طبقة بعد طبقة، فيدخل الصوت بأجمعه في رأسي. فلا تتوقف عن الغناء لما تحشرني بين حجرها وهي تحنّي شعري، فتأخذني رعدة صوتها الذي يزداد شقاء كأنها ستموت غداً. كل النساء في السماوة يغنين، الجيران على السطوح العالية، في ليالي الخريف النادرة وأمام الشط، في عاشوراء وأيام السبي الكبرى. كانوا يلقنوننا الأبوذية والمواويل العراقية قبل الكلام، فكنا نعطل الموت ونشق أفواجه وأمواجه بالغناء. زوجات أبي، جدي وجدتي، أبي وأنا، الجميع يغني، لا يتأخرون في تحايا الوداعات والفراقات، في العتاب الملتبس، والكلام الموارب.

ـ غن يا بعد رويحتي.

يتوسل بدر، فأئن مثل أمي، أسعل ويبدأ صوتي مهزوزاً كأنني أنازع.

وبالتدريج يتصاعد وأنا طافية فوق الماء وبدر لا بد ورائي، يحضنني ونحن نخوض في الفرات:

«أحبابي العاهدوني أمس ما جن
ودموعي بعدهم بالعين ما جن
وني عليهم كل ما جن
الكلام ونحيب نجوم السما»

- ٥ -

صناعة منزلية

بفضل السيد رامي حيدر جاملني الجميع بلا استثناء. ستة عشر يوماً ومصابيح النادي ما زالت مضاءة. القاعات تتلقى المزيد من الطاولات والكراسي، البطانيات والأسرّة ذات الرفاس المعدني. وأي كلام ما أن يبدأ حتى أضع يدي على فمي ولا أقدر على الإجابة. خرمت أذني فصار الصوت، أي صوت، جميل أو بشع له تأثير سلبي عليّ، لكني كنت أصغي بانتباه إلى مخارج الألفاظ وهي تطلع من بين الشفاه. هذا ما حدث والسيد رامي أمامي يقول إنه حضر من القيادة من أجلي، ترك اجتماعاً حزبياً عاجلاً لأجل إيصالي بعربته البويك. من غيره يعرف الأتيكيت؟ لم أحادثه، كلا، ليس لأنني لا أريد، فقط لم أقدر.

هو قدر ذلك وأنا لم أعتد على كل هذا الدلال. في المقدمة وبجواره أجلسني، وهو يغلق الباب ورائي بعدما لفلف البطانية حولي. لثانية وأنا ألتفت صوب الباب الرئيسي من النادي، تراءى لي وجه حسون الأميركي. ازداد كمال جسمه، والعربة تقترب من قامته.

في الصدارة من كل شيء كنت. لكن رامي لم يتطرق للمواضيع الجدية وهو يقود العربة بهدوء، وأنا لا أدري ما هي الأمور التي بمقدورنا التحلق حولها، فالطريق بين النادي وحوشنا كان قصيراً جداً، خمس دقائق أو سبعاً.

لم يكن بحاجة إلى التفرس في وجهي أبداً. ما إن جلس وراء المقود

حتى مد يده لمصافحتي، نظرت إلى حركات اليد، واعتدلت في جلستي وأخفيت لكنة يدي الأجنبية تحت البطانية، وسعلت بوهن.

هدى قالت يوماً:

ـ اي، هو مناضل.

هجران رددت ذلك بطريقتها:

ـ ماذا يعني كل ذلك؟ المهم انني مغرمة به.

قالت ذلك بصوت رقيق جداً وقطعت عليّ الطريق للأسئلة. أين هي الآن؟ رف لها جفني والخافق المعذب. كانت واقفة على سور النادي وهدى. خالتي فخرية، تراءت لي أنها واقفة بعيداً عن الجميع. أسندت ظهرها على شجرة هرمة ونكست رأسها إلى تحت.

هذه أسعد أيام حياتي، هكذا ستردد هدى وهي تصعد ببصرها إلى الأعلى.

بقي الجميع في أماكنهم مصفوفين والعربة تسير بي دونهم.

أول الديباجة كانت امتداد يده الودودة إليّ، والرجل يلف ويدور بي في الشوارع. يقودني بطريقة كيّسة كي لا ترض أعضائي السالفة الذكر. اشتهيت سيجارة وقدحاً من البيرة، بيرة مثلجة يطلقون عليها اسم لذيذة أو فريدة، بيرة على الموضة.

بدر يا بدر من المؤكد أنني تعرفت على بدر في أحد الأيام. وعادت معنوياتي للانخفاض ثانية. مظهري كان مدهشاً. حتى الحاجّة الكريمة وفيقة حضرت، فكرت وأنا أراها تمشي ونظراتها مصوبة إلى تحت، أنها سوف تتلاشى بعد قليل. وراءها هدى وهجران وعادل وخالتي في المؤخرة. ما الذي يفعله كل هؤلاء هنا وهذا السيد المهذب معي؟

أخذني إلى الصليخ الجواني ثم أكمل إلى كورنيش الأعظمية وهو يلقى

الترحيب في جميع المناطق. وأنا أختض وهو يحاول لمسي، حاول جذبي إلى صدره. من المؤكد كان الدافع تدفئتي، فأنا كنت أرتجف، ثم أمسك يدي، سحبها من تحت البطانية بطريقة حنونة:

ـ أنت ساخنة، ساخنة جداً. أضاف بصوت مهني:

ـ حاولي مساعدتنا. حاولي، ليس الآن، فيما بعد وإلا سيحترق الأخضر واليابس.

قال الكلمتين الأخيرتين بطريقة دفعتني للابتسام. فلم أقو إلا أن أبتسم. جربت كيف بمقدور صبيحة القيام بذلك الفعل، فالاختلاط بالناس مهمة عسيرة جداً، بدر دربني عليها من قبل وهو يدفعني إلى صدره:

ـ عليك بالجماهير. ادخلي معهم، واطلقي الأهازيج الشعبية بصوتك الجميل. هؤلاء الناس يفرزون الغث من السمين. ترجمي لهم قصائد (لهوشي منه) فهو يكتب شعراً بسيطاً ورائعاً يقوي المعنويات ويخدم الجمهورية. بوسعك القيام بمهمات متعددة هناك في الجامعة، أو هنا في السماوة.

لكني كنت أفضل السّياب ولوركا، شكسبير وبودلير. بدأت بالترجمة وكانت رديئة في بادىء الأمر، وعدت لاستظهار الكلمات، والمفردات الجديدة وتكرارها وأنا أعد مائدة أبي الليلية.

بالمناسبة أين أبي؟ لا أحد جاء على ذكره. لم أر إلا الخالة فخرية. لم أكترث بها وأنا أقف أمامها في المجاز، والسيد رامي يأخذ بيدي إلى الداخل:

ـ عقليها خالة. صبيحة طالبة ممتازة واحنا ما عندنا أي شيء ضدها.

خدعته وهززت رأسي. وخالتي أسميها يمه. عجوز طفلية صارت وهي ما زالت في السادسة والأربعين. كانت على وشك التحليق عالياً،

بعيداً عن الترهات. حين أغلقت الباب بهدوء وأخذت مقعدها في صدر الصالون. حائرة ولا أدري ماذا أفعل بروحي. لا ألتفت يمنة ولا يسرة. والوقت سائب، محلول ولئيم، وهي مثلي لم تلتفت إلى أي اتجاه، ولم تنظر صوبي، فقط مائلة برأسها إلى أمام وتستعمل الصمت إلى أقصاه. فابتدعت حيلة غير مسبوقة بإخفاء الكلام، ليس لإدهاشي، ولوحدي، وإنما لتحطيم الأرقام القياسية للصامتين المحترفين، كأنها أنفقت الحكي جميعه في إحدى السنين، فقررت، هكذا وخلال دقائق وأنا بجوارها، وكنا وحدنا، التوقف عن استعماله أو استعجاله أو اللحاق به.

كانت تبدو غير متذمرة. لم تبك، لم أر أي أثر لذلك في محجريها الصافيين، لم تدفن وجهها أمامي بين راحتيها، ولم تجز شعرها المضفور ضفيرتين رفيعتين مشذبتين. هادئة كانت. جميلة، رقيقة وصبورة، كما هن الأمهات اللواتي يواظبن سراً في أيام الطاعون لكي تعين لكل واحدة من بنات الجيران حصة من الدمع الساكت والحنان الشفيف.

أول مرة كانت فخرية تحظى بالاحترام فوق الحب. بالطبع كان وجهها متغضناً، فمها مزموماً، وشفتاها غادرتهما القصص والروايات الأولى. لم يكن هناك ما تم استهلاكه ـ الخوف ـ. لكن بقي الأمر الذي لا ينسى طوال تلك الأعوام التي مرت، وكان يستحق الانتباه، كان أمراً غير مطابق لشخصيتها، ومثيراً للاستغراب من جانبي؛ كانت لا تجرؤ على التفوه بأي شيء، فأتبعت سكوتاً يتعاقب ويخرب ما حوله من الخيال، فيدوي في أول المجاز ونحن ندخل، ماراً بغرفتي، حتى يصل أعلى أزيزه وهي جالسة الآن.

لاحظت وأنا أراها تمشي بخطواتها قرب النادي، ذلك المشي البطيء، لم يكن من وهن السنين الطويلة التي عاشتها، بل كانت كمن استعاد قواه وعادت إليه روحه: أنا، حتى لو كانت الروح مهروسة. تماماً، كانت تشعر وبنسبة تسعين في المئة بالارتياح، وبذلك السلطان الفاجر الذي

يتوفر عليه اليائسون حين يشاهدون عبثاً مفروضاً عليهم فلا يتزحزح إلا بحدث كهذا.

هي تدري الآن ماذا حدث لي؟ وإلى أين أخذت؟ قالت ذلك بطريقة وحيدة من يدها، بإشارة ملوكية أنفقت عمرها وهي تجمعها لهذا اليوم. بعدما أخرجتني من أمام الجميع واتحدت بي. أوقفتني في حلق الجسر الخشبي القديم الرابط بين الكاظمية والأعظمية وهي تنزع عصابة الجبين، وتبدأ بحل ضفائرها البيضاء، فيقف الحراس الليليون احتفاء وهي ترد الخصل إلى أمام وتسلمني أغصان الورد، عيدان البخور وسعف النخيل. فتبدأ برش ماء الزهر بين ذراعي وفوق رأسي، وتدري أن لحظة الوصال أزفت. ودجلة يبدو فتياً وأبيض، انفصلت أمواجه واحدة بعد الأخرى، وحضرت الموجة الأخيرة لكي نركبها سوياً، فتردد بصوت ولوع:

ـ لا تتعجلوا عيني، على مهلكم انظروا عليها بس، مو كل يوم تمر خدَيْة مثل صبيحة. عروس السماوة والأعظمية، الدنيا والآخرة. لا تبكوا ولا تشهقوا، بس مروا وسلموا عليها، بالإشارة والدمعة الواقفة بين الجفن وما تقبل تنزل. استعجلوا عيني، هي ما تحب الزحمة والعياط. نظرة واحدة حتى تبق كفارة.

كنت أريد أحداً ما بجواري، أي أحد، حتى لو كان السيد رامي لأقول له: هذه الخالة صناعة محلية، هي تصنع ذلك في المنزل، في جميع المنازل التي حلت وسكنت وعاشت فيها. فكانت تبدو أحياناً فتية، لا، لم تتضاءل، لكنها صغرت، على العكس من البعض، من الحاجة وفيقة، صاحبتها ورفيقة العمر.

خالتي كانت على ثقة من شيء انطبع على الجبين وانتهى الأمر، ولم يتخذ شكلاً آخر: أنا ـ آخر أشكال فخرية. ذلك الذي بقي وحتى اللحظة، كأنها خطته باليد، وحفرته بالأنين فضمنت لي، ولنا قوتاً لا يموت.

كنت أريد إسدال الستائر كلها وخياطة الشقوق فيما بينها لكي لا يدخل أي شعاع خارجي، لا من البدر المكتمل، ولا من الشمس الناقصة. غرفتي على حالها. السرير مسوّى، أريج العطور ما زال يهب من بين الزوايا، فسدت وتلفت، لكنها موجودة.

حضرت هجران، هدى والحاجة وفيقة، عادل والعمة فريدة ليلاً. وقفوا في الباب الخارجي، كلهم كانوا هناك، لكننا لم نفتح، هكذا بتواطؤ سري وإلهام يفوق الوصف. كل واحدة منا بقيت على ما في حوزتها تصونه وتعتني به: النفور التام. أصواتهم من حديد الشبابيك بدت صدئة وعتيقة. ضربوا الباب بقبضاتهم بعدما عطلنا جرس الباب والهاتف. وبعد صمت طويل سمعت صوت عادل من وراء شباك غرفتي. أحكم فمه ولسانه على الحديد المقرنص بعدما تسلق السياج وقفز إلى الطارمة الأولى. سمعت صوت قدميه على الأسمنت، كأنه فرس في سباق، أحسن الفرسان. ظل يدور حول الغرف عله يرى بصيصاً من ضوء. وصوته مهزوز:

ـ صباح، أنت تحبين هذا الاسم، بس أريد أشوفك آني وحدي هسه، كلهم راحوا. بيدي بيرة مثلجة ولفة صمون وعنبة من اللي تحبيها وسجاير بلايرز. صباح تذكرين أول مرة لما دخّنا، ها؟ آني باقي حتى تفتحين الباب.

كنت أفكر بنفس الشيء وأنا أخفض رأسي وأقول له ونحن، هدى وأنا، في غرفته في الطابق العلوي، والسيد جميل، والده، ممدد في الممشى:

ـ نم يا عادل أرجوك. نم. خذ هذه الحبة المنومة الله يخليك، لخاطري، لخاطر جدتك الطيبة.

كان يبدو كشمس الضحى، نسي كل شيء فخمد فيه كل شيء. الآن بمقدوري أن أؤرخ أحداثاً كثيرة، وأنا أرى بشرته اليابسة ونظراته الزائغة.

لا أدري لِم شعرت ولثوان، أن عادلاً كان يتفاخر بألمه. كان طويلاً، أطول من اختراعي للأطوال الكثيرة بين أفراد تلك العائلة، عائلة السيد جميل أحمد المعروف. هدى كانت الأقصر بينهم. وخلال دقائق اكتسب عادل عضلات ملاكم خسر ومنذ الجولة الأولى، لكن هيئته كانت تشبه هيئة شاعر عراقي بمقدوره إنشاد أرق القصائد فيما لو انفتح لسانه. صار مخلوقاً مختلفاً، لا أدري كيف، فأنا لا أعرف، إلا أن هالة الموت غير المتحقق كانت تمشي على جبينه ورأسه، وقسمات وجهه الفاتن، لكنه لم يهتم. أعني، استنتج أن السيد جميل لم يمت بعد، ربما هو نعسان فقط، وان الخطر سيحضر فيما إذا نام، فبدأ يهزه بأقوى ما في طاقة البشر. ضربه على الصدر والبطن، هزه من الذراعين وبصوت لا يسمع وهو يدمدم بالعويل، فانفصل عما حوله. تشبث عادل بتلك الفكرة وأصر عليها وهم يدفعونه، شبان ورجال العائلة الكبيرة إلى الخارج كرجل راشد، فبقي عفوياً، وملتبساً في آن واحد. وهو ينسى، حدث مثل الموت علينا بالنسيان أولاً، أما النوم، وأما الموت فلا يجوز الخلط بينهما. لم أر عادلاً بهذه الهيئة من قبل. كان بالضبط في مكان آخر، وذاك المكان هو الوحيد الذي عليه الدفاع عنه والإقامة فيه، كلا، ليس الموت ولا النوم، إنه يقع بينهما: الترك. خافت الجدة مجدداً على بعض الحيوات التي بقيت بين يديها فاقترحت بصوت حازم:

ـ خذوه لبيت أخوي يتقبل العزاء بوالده.

ظن عادل نفسه في العشرين، ربما في الثلاثين وما عليه إلا الإسراع إلى هناك. هو لم يتخذ قراره الحاسم أن يكبر هكذا، فجأة ولوحده. كان يريد أحداً ما ليكبر بجواره. فهو من الهشاشة والذهول ودون أن يدري بالطبع أن أعوامه الستة عشر، بدت مزورة، لكنها مفهومة.

في تلك الدقائق لو تناول مقصاً لقطع شعره، ثيابه وشاربه الغض الذي بدأ بالنمو للتو. لكن عادلاً ازداد جمالاً وبهاء وغياباً. والناس، رجالاً

ونساء يشهرون عليه نظرات ذات مغزى، كلا، ليس علامة تكريم كونه رجل الجسارة والصبر. من الجائز أنهم صوروه بطلاً، وهذا أمر ليس هيناً عليه. كان يخاف كل رموز البطولة، فيدور حول نفسه أمامنا في غرفته في الطابق العلوي في الأيام الخاليات:

ـ ماَ حاجتي للبطولة والأبطال.

فتدفعه هدى وهي متحفزة أمامنا:

ـ أنت بطل في رواية، ألا ترى وجهك الجميل؟ أنت من سيضع الخيط في الإبرة فنعيد خياطة القصة، فتعود لتتسلق مثل النباتات الموجودة على شبابيكنا. نسقيها فتزداد خضرة، نتنفس في أوراقها فتعيد إلينا ذلك الجزء الذي سيفر من بين أيدينا.

لكن عادلاً لم يعرف كيف يحزن على الوالد، فالحزن يحتاج إلى خلوة في غرفته أو كان يحضر إلى دارنا ليختلي بالحزن والأب سوياً. يبعثر الآهات ولا يعرف كيف يطلقها. البطولة لا تليق به، البطولة له وحده، لذاك الميت الجميل. من المفيد ترديد ذلك على الوالد، والده، فالناس، والنساء بالذات تحب الأبطال كثيراً، حتى لو كانوا موتى، وعلى الخصوص موتى.

عادل أمامه الدنيا وقوائم الأسماء التي عليه أن يفارقها تباعاً، بدا شقياً، تعساً وجاهلاً. خلود هي الأُخرى حضرت مع جميع أفراد عائلتها في تلك الظهيرة الجنائزية، وأول مرة أراها؛ هرة مرفهة ذات وبر ناعم وجلد ماسي. حيوان مدثر بالضوء والفلوس والعافية. وقفت أمامه، لكنها لم تتعرف عليه. قالوا لها، هذا عادل طيبي خاطره بوفاة والده.

عادل نفسه الذي كان يقوم بجولات ليلية ونهارية حول سور مدرسة الراهبات الفرنسيات في الباب الشرقي، وأمام سياج قصرها الشاهق المطل على دجلة. لكن خلوداً لم تصدق أنه عادل، ففرت ثانية من أمامه وهو

يكاد يضرب رأسه بجذع الشجرة العتيقة في أول الممشى.

خدعها بهيئته وشكله وما آل إليه، وبلا رحمة كان صباه يتعفن. فلا في السابق جرؤ على محادثتها ولا لاحقاً أيضاً.

خداعون آل معروف، ينصبون الفخاخ لبعضهم وللآخرين على الدوام، ولا يبالون بما يحدث أو يحصل لهم أو للآخرين. خيط رفيع يربط أفراد العائلة هذه؛ بذرة الفناء، تلك المنقوشة على الجباه، أخذت شكلها النهائي واستقرت فلم تعد تسبب الدهشة، بل على العكس، صارت مقبولة تحت أي شكل، تستيقظ ولا تتنكر بثياب وأشكال أخرى، كما فعلوا بعادل وهو يرتدي أمامنا بذلة كاملة أعاروه إياها من أحد شبان العائلة لكي يغدو أشد التهاباً وشباباً وزيفاً. فيميل إلى تصديق نفسه. فلما انتزع كل شيء من بين يديه، كان واضحاً أنه لم يعد يسمع أو يرى أي شيء، فسقط مغشياً عليه في أول الشارع وأمام الجنازة وحشود المعزين.

في تلك اللحظة الجهنمية دخلت الآنسة هجران ووقفت أمامنا كالمنومة. قابلتها خطفاً قبل شهور في الطريق العام، وكان المارة يدفعون أنفسهم قليلاً إلى الوراء لكي تمر. فهناك أشكال كانت تصور لك نفسها كالعيد فتبقى تردد مع روحك أنها ستقيم أودك طيلة العمر، أما الجمال، ذلك السر الهمجي الذي يمنع عليك النوم ويمرغك في الرعب، فلا يعود بمقدورك إلا الابتلاء به. حين مرت من أمامي وهي تواصل السير إلى دارها وأنا في طريقي إلى دار هدى الذي لا يبعد إلا ثواني، أصبت بجشع مفرط. لم تلتفت أو تهتز أو تومىء لأحد.

كان شكلها نوعاً من الباطل، وسوف أغلط كثيراً إذا ما شرعت بلملمة محياها، هيمان صورتها وهي تفلت من الوصف ولا أدري، ربما من الفعل أيضاً. وإذا ما داومت على إيراد النعوت، فلأنني أستخدم الفعل الوحيد المتاح لي.

كنت أدوّن عشرات بل مئات الكلمات وأنا عائدة من حي الصليخ

الظافر، الأنيق والجديد، لكي أطبق حرفياً ما شاهدت وأنا أعيد صياغته ثانية.

لا أعرف الآن وأنا أخط كل هذا، إلا أن هجران عبد الهادي هي التي اتخذت قرارها لوحدها للدخول إلى هذه المخطوطة. كان هناك عشرات من الآنسات والسيدات المناضلات الباسلات اللواتي قاومن بلا إسراف، وواصلن المسير وانقطع خيطهن عني؛ الشاعرة عفراء، والدكتورة أنيسة والطبيبة هيفاء، تلك التي عالجتني من النزيف، والمناضلة الباسلة لمياء، التي كان تكبّرها أشد من تكبري بأميال، لكنني لم أوسع لها الخطى فدفعتها إلى خارج النص.

كل أولئك الشجاعات كن عسيرات أكثر من هجران، حتى دروعهن النضالية كانت مكسوة بالحذق لا بالحميمية، وكان وجودهن رادعاً لي وليس العكس. هجران كانت عسيرة أيضاً، لكنها في الحال تملأ خزائنك بالأعاجيب فتلحق بها وهي لا تحاول تغيير طريقها حتى. واقفة ليس أمام أي أحد، سائرة ليس إلى أي اتجاه. هذا في الظاهر. لكن لما حضرت ووقفت في الطارمة، والبيت يغص وينبع بالبشر، وهي لا تنوي أي شيء، فكرت أن أملأ لها الأواني بالزهور وأتركها أمامها. أحضر لها كرسياً للجلوس، أقف وبيدي مروحة أهزها لها لكي تغفو. كلا، لم تكن لغزاً، فقط كانت باهظة الإقامة، حيثما تقيم أو توجد. فتصورت لثانية والناس من حولنا، النسوان على الخصوص، أن بمقدوري وضعها في جيب تنورتي والتفرج عليها لوحدي، وهي تمد رأسها من هناك.

كانت ترتدي ثوباً بلون الكحل الضارب إلى الزرقة. وفوق رأسها خمار بلون الرماد، تنزل من حوافه شراشيب سوداء من الحرير الطبيعي. كان رأسها هو الذي يضيف هذه النفاسة للأشياء. فالخمار كان كبيراً، فضفاضاً ونازلاً على الكتفين. ورغم أن اليوم كان الأول من حزيران والعام اثنين وستين والجو حاراً جداً، إلا أنني لم أر عرقاً على محياها، وأنا أسترق

النظر إلى إبطها كلما رفعت يدها إلى أعلى. كان بلورياً، وإلا فما معنى ذلك الكرستال الذي يقال انه صنع في بوهيميا. افتراء كل ذلك.

هدى أخبرتني شيئاً قليلاً عنها بعدما ذكرت لها لقائي الأول بها، فردت:

ـ اي، هجران جارتنا ورامي أيضاً. الكل يقول إنهما مغرومان بعضهما ببعض.

كانت لهجة هدى نشوانة. وحين دخل عادل علينا صدفة، تورد خداه وهو يسمعنا نتحدث عنها. لم يتدخل في بادىء الأمر. فكيف انفلت لسانه هذه الليلة وبعد أقل من عام؟ هل كان مأخوذاً بها هو الآخر؟ تكبره بأعوام وهي في كلية الصيدلة، وهو لا يزال في الثانوية. هل ما زال جاثماً أمام شباك غرفتي ثملاً، يدخن وينوح؟ وأنا أزفر زفرات آخر الليل. وكلما حاولت تفكيك أجزاء ذلك الحي وإعادة تركيبه بالأسياد، بالآنسات والسيدات كانوا يسخرون مني، لكنهم يولدون تباعاً.

زخّات المطر بدأت تتساقط في الخارج، عادل وهجران يحضران أيضاً إلى هذه الأوراق، غيرهم وغيرهم. هذه مواهب بعض البشر فلا تجوز معهم أية تعديلات. هجران في تلك الظهيرة كانت تخرج روحها أمامي فلم تقترب من أحد. كانت تهطل فتبيدنا واحداً بعد الآخر. ومع هذا بدت لي مريضة، تحمل مكروباً لا شفاء منه ويغري بالعدوى. تماماً، هذا هو الوصف الأدق. فهي ليست أنثى لها طول يرن بصوت عال، ونحافة معذبة، وجمال لا أحد يعرف إلى أين سيتجه؟

كانت تتحرك داخل ذلك الثوب البسيط كما تفعل دودة القز. ولحركة عضلاتها هشاشة المرضى الذين لم يبرأوا بعد. تمشي بجسمها من دون أن يتنبأ أحد إلى أين سيأخذها الطريق. فهي لا تعرف الجغرافيا ولا مصاعب الحدود. نزواتها تبدأ من أول شارع الصليخ المجاور للنادي الأولمبي. تبدأ من شارع عمر بن عبد العزيز الطويل جداً، وتدري أن

بوسعها الذهاب أينما شاءت، فهي مشّاءة على طريقة الضواري. فتتشكل تدريجياً أمامنا وكأن نداء مبكراً، غامضاً وسرياً يلاحقها. النهدان الثقيلان الصلبان، كانا يهبان من النوم وهما يضربان قمصانها فيتجليان تحت ضوء الشمس أو في أثناء الغسق، يعصفان ويبعثان على القشعريرة. لا أحد يدري إلى أين تذهب بتلك الثياب التي تفصّلها لها أمها، ذات الأصول العثمانية، وهي تراها تطلع إلى الشارع العام.

هنا فقط أجاب عادل قبل أن يغادرنا:

ـ لا، كانت تعرف كل ما تقوم به، فهي تريد أن تدير رأس رامي وهو عائد من أحد الاجتماعات الحزبية.

الحزب كان يقع في الدرجة الثانية في رأس ذلك السيد؛ فطبائع بعض الناس تدفعهم دائماً إلى تولي القيادة. وطبائع البعض الآخر تحملهم على الطاعة.

أما أنا فقد وصفته أول مرة شاهدته في ثيابه وأناقته الباذخة، وشذى العطور ينبعث منه، وهو يرفع جنازة والد عادل وهدى بأنه «مناضل صالونات».

عرفته بالطبع وأنا في النادي، لكني لم أهتم بالتفصيلات. كنت أريد أن أعتم عليه وأنا أسمعه لوحدي، حتى دون التفوه بكلمة، «لما وطدت أقدام سلطتي أوحيت بالخوف مني إلى الأفراد الميالين إلى الانقضاض على السلطة. لكني عاجز عن الإيحاء بالخوف الشديد إلى أن صرت عضواً قيادياً، وإلى أن اعترف الآخرون بقيادتي. أنت صبيحة من بين هؤلاء. ألا ترين ذلك جيداً؟».

لكن هجران ليست ملهمة رامي الوحيدة. وأنا أكبو أمامها وأرقبها وحدي والعياط يتموج على الميت. في تلك اللحظات وهي جاهلة تماماً بما تفعله بالآخرين، حين تتباطأ العربات وراءها وأمامها. الآباء والأبناء والأحفاد. ليس صدفة أن تكون ثلاثة أجيال بانتظارها، وهم يطلون عليها

من شقوق الشبابيك. ينقطع تنفسهم فيحسبون أنفسهم خارج الجاذبية، وما هذا الشارع إلا بوابة الجنة، وهذه فتاة الآثام. فيردد الأب المتقاعد:

ـ ما هي إلا مملكة الغرائز. ويجاهد المناضل لكي لا يتحشرج وهو يدمدم:

ـ هذه ما نسميها الثورة المغدورة. أما الحفيد، زميلها في كلية الصيدلة، فكان ينحدر أمامها فلا تعبأ به.

كانت أمطار ذلك اليوم قد فاضت عن الحد، فتحاملت على نفسي وبدأت بفتح الباب الداخلي. خالتي بقيت على وضعيتها. فوجدته قبالتي تحت السقف الصغير، مقرفصاً على الدكة الحجرية وبرك الماء من حوله. أول ما أطللت، سحبني إلى جواره فتهاويت عليه. لم يتحرك. كان يحدق في الفضاء رافعاً رأسه إلى فوق:

ـ اجلسي. كأنه يحدث نفسه:

ـ هنا، اي ما الفرق. أغمض عينيه وأكمل بعد قليل وأنا واقفة فوق رأسه:

ـ اجلسي واشربي ثمالة فريدة، بيرة فريدة، وليست العمة فريدة. ها، هيا خذي، أبقيتها لك.

مد لي القنينة بثبات فكرعتها إلى الآخر، فقام واقفاً:

ـ التدخين تحت المطر أحلى، ها..؟

دفعته للداخل. كان يشبه نبتة كبيرة وارفة تتقاطر منها الثمار والسوائل والأصماغ، تلامسنا ونحن ندخل سوياً من الباب الضيق. خالتي مثل صقر محجّب. بدت لي أنها تضخمت جداً وما عادت تصلح للوقوف أو الاستلقاء.

عادل ذهب إلى الحمام رأساً وأنا مشيت خلفه. خصلات شعره القصير الناعم والجميل، تلبدت فوق جبينه. وبطريقة جد اعتيادية نزع سترته وبدأ

بنفضها. لم يلتفت إلى المرآة أمامه. كان يتحرك بحرية. فجأة التفت صوبي ودون أن أسمع صوتاً، احتضنني. بصمت وضع يده على كتفي وعانقني. مبهورة ومريضة ولا قدرة لي على مواصلة التفكير. باسني من عيني ودموعه تسيل على خدي. مرتبكاً فارتبكت أكثر منه. على وشك النوم كان وأنا أمد يدي وألمسه من الخاصرة.

أغمضت عيني ببطء شديد وعادل يتمايل. أغمض عينيه هو الآخر. شدني إلى صدره باحتراس وكان ينتحب، والعرق يطفح نازلاً إلى الرقبة. يتدافع ويده على كتفي ووجهه غارق في شعري. لا أنا أقاوم ولا هو يتأخر. فبدأنا نعول سوياً. بدا البكاء متعباً، لكننا كنا نمثل تصميماً ما، وبصورة غريزية ندعه يتعالى ويتعالى. تركنا أنفسنا لبعضنا البعض وكان أحدنا يشبه مرآة عاكسة، إذا خفف الأول صوته تضاعف نحيب الثاني. كنا مشغولين فعلاً ونحن نسند رأسينا على كتف الآخر أو جذعه، كأننا نصور فيلماً وأمامنا الكاميرات وسوف نتبع ذلك بضحكة أو ابتسامة آتية لا محالة.

نعم، كان بوسعنا ألا نقول لبعضنا إلا هذه الدموع المتقطعة، الصامتة، ونحن مستسلمان لها. لقد انفجرنا وكان هذا كلامنا الوحيد، فلا أنا تساءلت ولا هو أجاب، حتى هدأنا، فسحبني عادل من يدي إلى الصالون حيث كانت خالتي. دنا واقترب منها كثيراً. انحنى جاثماً أمام حجرها. مسّها برقة وسحب كفها إلى فمه ولكنها سحبتها بهدوء، فاندفع إليها، فأخذته بين ذراعيها. لمستْ شعره، سوّته بيدها. كانت حركتها حرة وكريمة. ثم انحنت وقبلته على جبينه. لم أتسلل جوارهما، كنت خائفة من الانهيار، فدفنت رأسي بيدي وأنا أتوسد الجدار.

وأول مرة يطلع صوتها. بدأت تولول وتضرب على صدرها بصوت شجي، تنود برأسها ضاربة أفخاذها وكأنها تضرب عدواً:

«تريد الحكومة عين برعة

وتريد الذي يحجي بجرعة

ولو فات الحاكم يخرعه».

تندب وكأنها في مجلس عزاء والدمع يسيل بهدوء أول مرة، كما هي قطرات آخر الأمطار، تلك النازلة من أنابيب السطوح العالية أمامنا في الحوش، فتواصل:

«سباعنة بالجول نامت

وديناته للنذل دامت

وحريم المعزة وين هامت؟

صعدت على العالي وتعلت

وبطاسة الحنة تحنت

حَذْيِثة وبعدها ما تهنت».

- ٦ -

السماوة

كان علينا الاختفاء، خالتي وأنا بتواطؤ صريح. لم يكن قرارنا دليل شجاعة، لكنه الوحيد المسموح لنا اتخاذه. فبعد مضي أسبوع أو أكثر ودون التطرق إلى أي موضوع، جدّي أو سخيف، رحنا نجر أقدامنا، ونتمايل من الدوار والأرق.

توددت لنا عوائل هدى وهجران، بإفراط في باديء الأمر لتبدو الأمور أكثر من عادية. كانوا يتخبطون أمامنا في التصرفات الخرقاء والكلمات المهلهلات التي، بدلاً من إثارة الحنق، كانت تدفعنا للضحك. لكن كنا نضع كل شيء وراءنا ولا نقدر على استعادته حين يغادرون. يواسوننا، وفي أحسن الأحوال كانوا معجبين بنا. وكان علينا الاستمرار وبنفس الطريقة في التصنع واللاتذكر، لكي نتجنب الجدال.

من جانبي لم أقو على التعبير عن أي شيء بشكل سليم أو دقيق أو واضح. فصرت لا أطاق. هجران لم تناور كهدى، فقالت بصوت خفيض:

- إنها لا تحتمل. لم تعد تحتملنا، فلماذا لا ندعهما وشأنهما في الوقت الحاضر؟

هدى لم تعلق أبداً. كانت تدقق بطريقة غريبة في ملامحي وأجزاء بدني فقط. كنت أقابلهم بثياب كاملة، مقفلة في الرقبة وبأكمام طويلة وأذيال تنزل إلى الأرض. ورأسي لم أتركه مكشوفاً قط. لم أغتسل، كنت فقط

لا أستطيع لمس جسمي، أو النظر إليه. صارت الفرجة طريقة عيش فحسب.

في الثالث من آذار وفي الساعة الخامسة فجراً كانت حقائبنا في الباب الخارجي وسيارة الأجرة تقلنا إلى المحطة المركزية للسكك الحديدية في جانب الكرخ في طريقنا إلى السماوة.

لم أعر اهتماماً لأصوات الباعة أو ضجيج الأمهات والزوجات المودعات. ولم أميز بين سحنات المدنيين أو العسكريين الذين ملأوا المقصورات. الناس تتكاثر والمقاعد تشغل، وما أن تمر الدقائق حتى أشعر أن كل واحد من الجالسين لديه ذخيرة من المعلومات ضدي فتعود حالتي للهبوط. شعري جمعته في إيشارب وأنا أتصبب عرقاً بعيداً عن التصديق.

لا أحد منا اقترح اسم السماوة. خالتي لم تشر إلى ذلك مطلقاً. لم تلفظ اسم المدينة، ولا نحن حضرنا ما سوف نتفوه به أمامهم. كنا نضع الثياب في الحقائب ولا نتفوه بكلمة. حتى ذلك اليوم لم نكن دققنا في باطن عيون بعضنا البعض قط. بالسليقة كنا نلجأ إلى تلطيف الدقائق والساعات بالصمت، لا بالتبرم أو التذمر. كنا على استعداد لتقديم العون والمساعدة إذا ما دعانا أحدهم إلى ذلك، فنتواصل بالإشارات والإيماءات. أعمل شاياً، وخالتي تحرص على جلبه إلى غرفة الجلوس. أبدأ بسلق اللحم والخضار وهي تكمل الباقي. كانت الأدوات بيننا، وكنا نعيد اكتشاف المخلوقات والأثاث والأصوات والأشخاص. وعلى العموم، لا نجري عليها أية تعديلات؛ فنجلس قدام الطاولة لتناول الوجبات، ولا نخطيء مطلقاً في عدد الكلمات التي نتبادلها، لا نتصادم أو نتعثر واحدتنا بالأخرى في الذهاب والإياب بين الغرف. واللسان، لساننا كان ينكمش في مؤخرة البلعوم، فلا يوسوس له الكلام إلا كنوع من الضيق الشديد. ففي أحد الأيام وبعد أن غادر الجميع، حسبت عدد

الكلمات التي تبادلناها بيننا، خالتي وأنا، فلم تزد على:

ـ نعم، بلى. اي. زين، يمكن. ها، طبعاً، لا، لا.

بالتأكيد كنا نتلقى عينات من المفردات والجمل، وكانت العبقرية اللغوية تبدو مكشكشة. فالجمل تباغتني بطريقة صاعقة فلا يبقى عليّ إلا إيجاد الحلول بهزة من الرأس أو التخلص من عناء كل ذلك بالتواري في الداخل والابتعاد عن الجميع. فعملت على إعادة ترتيب كل مرافق البيت ثانية، أواصل الاشتغال كأجيرة تبدو أكبر من عمرها الفعلي، وتصر على انتحال صفة تنسل من الحيوانات إلى البشر فيتشكل العبد الأسير. وأنا أسحب السجاد على سبيل المثال من تحت أقدام الضيوف، أرفعه وأطويه وأحمله وحدي صاعدة به إلى السطح العالي، وأعود ثانية ولا أتفوه بشيء محدد. بيدي المكنسة وسطل الماء، أشطف وأكنس، دافعة الكراسي والكنبات وأواني النباتات، أدفعها بين الأقدام والمياه تغطي سطوح الغرف. ورائحة عرقي تزداد زناخة. أما الزجاج فقد كانت وحول شهر شباط وأمطاره وزوابعه هي ما دفعني لاستخدام الصحف القديمة والجديدة في تلميعه، التي واصل عادل جلبها إليّ يومياً. كان يضعها في كيس من البلاستيك ويدفعها من تحت الباب الخارجي، أحملها ولا أنظر إلى العناوين. أكومها بيدي وأقطعها إلى أقسام وأبدأ بتدليك الزجاج المعكر. كلما أنجزت شباكاً، فتحته إلى الآخر وحدقت فيه بإمعان وهو يبرق متألقاً وأنا أغدق عليه حيلي، فأبتسم لنفسي وأردد: ها أنت تترجمين بنود الثورة على خير وجه، فيبدو الزجاج ثورياً. كل الموجودات في الغرف الثلاث والصالون، بالأثاث والسجاد واللوحات والبوسترات، بالأدوات المتناهية الصغر والآلات ذات الحجوم الكبيرة، كانت تتلقى الأوامر مني وأنا أرفعها وأبدل موقعها باليدين المتورمتين. أمهر عليها ببصمتي فأترنح آخر الليل. وكلما أرى شعاع النظافة يتضاعف من حولي كنت أعاود من جديد. هل اكتفيت بذلك؟ كلا، كنت أفز في منتصف الليل وأنطلق إلى

الأغطية السميكة، والمخاديد، والمساند واللحف الموشاة بالحرير اللماع، بيدي المقص، أقطع وأتأمل الخيوط والشقوق والطيات. أجمع وأرمي وأشاهد الأبخرة والحشرات والعث الصغير قافزاً وغير آبه بحركاتي، زاحفاً أو طائراً أو دافعاً بروحه إلى الخارج، فأفتح الشبابيك والأبواب له على مصاريعها.

أغمضنا عيوننا أول ما تحرك القطار. كلا لم ننم، أنا على ثقة من ذلك، كنا نتوهم أشياء كثيرة، لكننا نتواصل بالوهم. حين يطلع صوته الصدىء وهو يتوقف في محطة «سدة الهندية». رفعت خالتي رأسها إلى أعلى ونظرت إليّ. كانت تريد القول؛ إن الطاهية حضرت بعض الطعام وما عليّ إلا البدء بالأكل.

كانت دور السكك الحديدية أمامنا ذوات طابق واحد وأسقف واطئة ونوافذ ضيقة. تحيطها سياجات صغيرة بنيت من الطين المفخور الذي بهت لونه. أشجار الدفلى القصيرة والنارنج مكسوة بغبرة كثيفة، والرواسب تطفح على سطح القلب. اليوم آخر أيام عيد الفطر، وأنا بجوار خالتي، لا رقبتي تزينها القلادة الجديدة من الخالة أو الوالد، ولا جسمي يتبختر في ملمس الثوب الجديد.

هجست بوجه شاكر ابن خالتي يظهر في الدرجة السياحية، فركت عيني تحت النظارة الشمسية على سبيل تعدد الصور عندما كان يظهر من بين الأشجار والبيوت وهو يلاحق طيوره الجميلة. شاكر «المطيرجي» لأسراب الحمام والفخاتي عبر السطوح العالية، قافزاً بحيوية من تيغة حوشهم إلى حوشنا للفرجة عليّ وأنا أحنّي شعري. خائباً كان في كل شيء إلا حبي. وحدي لست محل خلاف والباقي خردة. بقي يردد أول ما جاءني الحيض، أمام أفراد العائلتين:

ـ صبوحة مرتي، اي، بالحلال لو بالحرام. مخبلة لو عاقلة، والله حتى لو تصير كاروك أهزها بيدي وأضفر شعرها الأبيض لازم ازفها

لروحي، وهسه تشوفون.

يختبيء ليلاً وأنا أدرس، ونهاراً وأنا أحضر طاسة الحناء، فاردة خصلي على ظهري فيتحول شاكر إلى عمود نار. أدري انه موجود ورائي أو حولي، إذا ما صحت عليه سيحضر مثل خادم مطيع. لا أطلق عليه اسماً، لا لقباً، ولا أذكر انني ناديته شاكر، فقط:

ـ تعال، روح، ها، شيل هذا بالعجل.

لا يتضايق، لكن يدخل أصابعه في فمه ويبدأ في مصها. فرغم أن بدنه رياضي بمعنى من المعاني، لكن ذلك لم يشفع له لدخول الجيش. وهو واقف أمامي:

ـ صبحبح أدري انت ما تحبين الشرطة، زين عيني والجيش؟

لا أنظر إليه وأنا أصب الماء فوق العجينة وأبدأ بالعجن:

ـ أسكت، انت ما تشوف وجهك بالمراية؟

السيد الوالد أوقفه أمامه ولاحظ أنه لا يصلح إلا لسلك البوليس فأغلق الطريق عليه، وعلينا معاً. لما تبدأ الحنة بالتخثر جيداً، يتقدم ويقف فوق رأسي:

ـ صبوحتي آني راح أحنّي شعرك ها عيني تقبلين؟

أعابثه وأضحك:

ـ زين، زين.

أول ما يلمس ظهري يتكهرب وتنمل أصابعه. يقول لي ذلك فأسحب رأسي إلى أمام دافعة به إلى وراء:

ـ اسمع، شوف ذاك الطير البعيد، تقول انت خبير بالطيور. ها، ذاك شنو اسمه؟

يدور حولي مثل ذبابة الفجر، ثم يرفع رأسه إلى أعلى ويعود خافضاً بصره عليّ:

ـ سنابل والله شعرك. قداح وجوري. صبوحتي انت جمارة عمري.

ـ يالله اشتغل زين. خصلة ورا خصلة.

يستنشق ويتنفس شذى شعري ويطلق حسرة. يتأفف ويتابع. عيناه تدوران إلى فوق، فأجذبه من ذيل دشداشته دافعة به إلى النزول ورائي:

ـ اي، ذاك طير الرفراف، مو؟

بسرعة يرد:

ـ لا، لا انت ما تفرزين زين. هذا طير السحنون. مثل السهم يطير. لكن لما يشوف الهدف، يعني المأوى والطعام، ينزل على مهل، عبالك يرقص. هسه احنا ما نشوف لونه المدمى زين. المرحوم أبوي كان يقول هذا طير ما عنده غير دمه. والله مثلي، لكن لحمه مو لذيذ ولا يصلح للشوي.

ـ زين، زين لا تدوخني بسوالف الوالد، راح اسأل بدر وأعرف الصدق.

في غضون أسابيع انتقل شاكر من السماوة إلى سدة الهندية بعد تخرجه من الإعدادية، بجوار والد هدى، السيد جميل أحمد المعروف. كانت وساطة والدي تحدث أموراً غاية في الغرابة وليست كلها مطابقة للقانون. شاكر كان في الخامسة والعشرين، فقد نصف حاجبه الأيسر في إحدى جولات الصيد لما ارتدت ماسورة البندقية على وجهه فشقت جبينه وتراجع نصف الحاجب إلى آخر الصدغ على شكل نتوء كريه وبشع. لكنه لم يهتم واستغربنا جميعاً؛ أنا في المقدمة، حين عاد من مستشفى السماوة الحكومي وهو أمامنا:

ـ الله ستر ما راحت عيني. زين شلون راح اشوف صبوحتي بعدين؟

وأنا أطلق قهقهات بصوت به بعض التشفي:

ـ كان أحسن لنا كلنا.

أغيظه، أناكده، وهو يخترع أمامي أشخاصاً آخرين يضعهم جميعاً بين يدي لكي أختار ما أشاء. فيزداد لياقة ورشاقة من التدريبات. شذب شاربه فانتظمت ملامحه، لكن بقي ملكي، جزءاً من أملاكي وهو يخاطبني ليلاً من محطة السدة والجميع نيام:

ـ اسمعي صبوحة راح أتزوجك حتى لو تصيرين جيفة.

لما يعود بالإجازات يقف أمامي وهو يرتدي قبعة نائب العريف التي تغطي نصف جبينه، فلا تبدو إلا عيناه الفاترتان الراكدتان الضيقتان والمتباعدتان إحداهما عن الأخرى، كأن الأولى تأخرت عن الثانية بنصف يوم، فتشكلت إحداهما بلون بني كالح، والثانية بسواد تشوبه عروق حمر وصفر، تحتقن وتزداد حولاً كلما كان في سورة غضب. وخالتي لا تبالي بكل ما يجري أمامها، تخبئني لها أو له، لا فرق عندها. فالفلوس هي الرمز الباقي من خرائب والد شاكر، فهي تستطيع إقراض الحكومة الوطنية إذا ما دعت الحاجة، وتضفر شعري بالياقوت وتحشو أسناني بالذهب. فوالد شاكر مات فجأة في إحدى الرحلات إلى إيران وكانت السفن محملة بالسجاد العجمي النفيس والأحجار الكريمة. هو الذي أقام لأبي محلاً لصياغة الذهب. فدائماً كنا نرى أوراقاً مالية كثيرة، مصفوفة ومربوطة بخيوط ومنظمة في أكياس كبيرة من اللون الأسمر. اشترى الأراضي والحواش، الأغنام والمزارع. وكان عاطفياً ومغرماً بها فسجل باسمها المجهول والمعلوم، لهذه الجالسة بجواري والقطار يعود للتحرك ثانية. خالتي هي التي ألحت وتوسلت إلى والدي للانتقال إلى بغداد بعد نجاحي في الإعدادية لتستطيب الحياة بجوار أمينة أسرارها الوحيدة: الحاجة وفيقة، جدة هدى وعادل.

كانت بغداد تصيح عليّ، وحدها صاحت شهوراً وأعواماً، وبرقق في بادىء الأمر. تتمنن عليّ بالملاطفة وهي تشق الكبد وتريدني أن أبتلعها لوحدها كما تفعل الثعابين بالصيد العجول. أبلعها ولا أهضمها، ولا

أفككها. فقط أضعها في بطني، أسور عليها وأدفنها هناك، كما يدفن البحار اللآلىء والجندي القنبلة والمرأة مهجتها. لكن بغداد بيدها المقص، وباصبعها الإبرة والكشتبان وهي تعاود الدرز على لحمي ورنين الألم يرتب الهندام.

لم يحب أحد بغداد إلا بنقص، بالنقصان، هو الحب الناقص.

خالتي زغردت حين تخرجت من الثانوية. «وكردانتي» أم الفصوص الشذر واللؤلؤ تتمايل على صدري فتصيح والدموع في عينيها:

ـ عيني صبح تريدين كردانة لو أم السمكة لو أم الليرات المقرنصة؟ والله العظيم باون إنكليزي، ذهب حر، صاغ سليم، ثلاثين مثقال كله أضفره بشعرك يوم التخرج من الكلية.

كانت وليمة والجميع بجواري، عائلة آل معروف، هدى والجدة والعمة فريدة وعادل. هدى رسبت ذلك العام بعد واقعة السيد جميل. كانت تلوب أمامي في غرفتي التي لم تحبها كثيراً. فكل ما تدخلها تتذمر عندما تشاهد صوري وأنا وسط فريق الكرة الطائرة وبجواري نجاة وساهرة وتودد، أو أنا جالسة على جرف الفرات في السماوة بالضفائر المفرودة على صدري بالأسود والأبيض:

ـ أنت مو محبوبة بالصور. عبالك غولة وعندك مخالب. ها شوفي حتى صديقاتك مثل الفئران.

ـ زين وبعدين؟

ـ وهذه الأكوام من المجلات الإنكليزية والعربية والكتب مخربطة كل ما نمشي نتعثر بيها. ما احب هاي الفوضى. راح أجيء يوم وأرتبها اني وعدولي.

ـ لا، أني أحبها مخبوصة. ما أعرفها لما تترتب.

لكن حوشنا كان نظيفاً جداً، مهوى وبه عتمة. أول ما دخلته هدى بهتت:

ـ عبالك بيت أرامل. ليش ما تتحولون من هذا الحوش؟ تعالوا بشارعنا حتى نصير جيران ونسوي عصابة من صدق انتي واني وهجران، ها. اي، كبير هذا الحوش بس أظلم شوية.

أرامل في قطار نازل إلى الجنوب. لكني كنت أحب الطرف والجيران. أصوات الباعة المتجولين وزعيق الصبية الملحاحين وهم يجرون أطراف ثوبي حين أعود من الثانوية المسائية فأحمل لهم الحلويات.

في الداخل ثلاث غرف كبيرة وصالون أكبر والأثاث على الطراز العربي القديم، وأوراق النباتات المتسلقة من حولنا كانت تمشي على الحيطان كثيفة ويانعة، وعلى أحد جدران الصالون «بوستر» كبير يشي بجو استوائي وأشجار اصطناعية، وخصلة شعر لامرأة على وشك الغرق لكنها مستسلمة، بشرتها صقيلة ولا حركة في اليدين تنم عن المقاومة بعدما غطاها الرمل. ومن بعيد كانت هناك قوافل من عوائل صغيرة لا ترى بالعين المجردة وقد تحولت إلى ما يشبه الحشرات. كلما تشاهد خالتي البوستر تدير وجهها إلى الطرف الآخر، تتعوذ من الشيطان وتحدث روحها بصوت لا يسمع:

ـ اي شنو هذي الحواوين والمرة ميتة بنصهم. اي ما تخافين من هاي الصورة؟ والله كل ما أشوفها ما أعرف أنام زين.

لكني لم أهتم. أواظب على مشاهدتها والتمعن فيها كلما أكون وحيدة. وغرفتي صرفت عليها خالتي المال الوفير لتعجبني. سرير بأعمدة برونزية على الطراز التركي. لحاف مشجر بزهور صغيرة وجميلة ومضلع بخيوط من الدانتيل الهندي في الأذيال. مرآة كبيرة في مواجهة السرير وتحتها طاولة زينتي من الخشب المضفور بالعاج، صففت فوقها قوارير عطوري ومخشلاتي الكثيرة. في الطرف الآخر خزانتي الكبيرة وجهاز

صغير للتلفزيون، هاتف، أضوية، راديوات ومسجلات وأشرطة، وخيوط كهربائية كثيرة تتعثر بها فخرية كلما تدخل غرفتي فتصيح:

ـ شنو قابل احنا بمحل أبو أنور مصلح الكهرباء، شنو هاي؟ يمه أخاف تتكهربين.

والمكتبة نقلها شاكر من السماوة بصناديق خاصة.

خالتي أسمع نبضها من بين الضلوع، تقبض بيد طرف العباءة واليد الأخرى أراها بجواري وحيدة.

منذ عام تقريباً لم نزر السماوة. كلا، منذ واقعة السيد جميل. حين حضر الوالد وعباسة زوجته الثانية، تلك المرأة الصبور التي ظلت تنتظر من الوالد لقب أم البنين والبنات. وريحانة، شقيقتها اليافعة هي الثانية حضرت إلى بغداد. كان طريق أبي محفوفاً بالمغامرات، حين كان يتعقب الصغرى نكاية بالشقيقة الكبرى الملحاحة والعصبية التي بزرت له البنات تباعاً. أما السيد جميل المعروف فقد تجسد لوالدي بطلاً على الفور. حين وصلت إخبارية وكان ذلك في منتصف الخمسينيات، في ليلة شتوية باردة جداً، عن حادثة نهب ومحاولة قتل ما بين سدة الهندية وبغداد لتاجر الذهب المعروف في الفرات الأوسط؛ السيد خلف صالح عبد النبي أبي. لا أحد يعرف شيئاً حتى اليوم عن المبالغ أو سبائك الذهب المسروقة، أو تلك التي عادت في صناديقها وخزائنها ملفوفة ببطانية عتيقة. الوالد لم يمت بعد، والفجر في أوّله وهو عاجز عن نطق أية كلمة. حين فتح عينيه عثر على نفسه في حضن السيد جميل وهما بعربة الجيب الحكومية والخزنة لم تفرغ بعد، تهتز بجوار السائق. الوالد ينزف وجميل يسقيه الخمرة العراقية المشعشعة. يفتح فمه ويصبها في جوفه فيسترخي ويهدأ، والرجلان لا يتحدثان. حتى بعد شفاء أبي بقي يعرج قليلاً بساقه اليسرى، فأفرط في عاطفته الجارفة لعائلة آل معروف، في مقدمتهم معاون شرطة سدة الهندية الشهم. أول ما تحسن ملأ صناديق السكر وأكياس الأرز

العنبر النفيس والتمور وتنكات من الدهن الحر، وغادر في طريقه إلى بغداد. فاز السيد جميل بنجمة جديدة، وذاع صيته بعد تلك الحادثة ونقل إلى العاصمة.

كانت أمي «نوعة» ما تزال حية، ابنة الحسب والنسب من آل تميم، أنجبتني وتوقفت. يوم وصل أبي شارع عمر بن عبد العزيز، وساعة فتحت الباب العمة فريدة، شعر أنّ كوكب الأرض لم يعد ثابتاً في مكانه.

فريدة تجاوزت الثلاثين بقليل لكنها لم تكن راضية. مكدرة ومكروبة. نظراتها مؤرقة ومتغيرة بين الزجر والتذمر. وجهها ينبيء عن حزن أسر ولونها عاجي لكنه شاحب، شحوب التي ارتشت من نفسها فلم تشق الثمرة ولا اخترقت النواة، البتول التي عافها ابن العم فبقيت تأكل نفسها كأنها عدوة، فتبدو وهي في تلك الصلابة وبذلك الغلاف من العذاب جميلة كقرنفلة ذابلة. قامتها طويلة، لحمها مشدود، وغلظتها موزعة توزيعاً مناسباً في الخاصرة والفخذين والصدر الناهض. عيناها واسعتان مغريتان، إذا غضبت أو بكت يحمر بياضهما الصافي فيختض سوادهما الداكن الساحر. قوية كانت العمة فريدة، بحركاتها من اليدين والشفتين على الخصوص، تعبير ما يبعث على المنة والتعالي. وإذا ما فتحت شفتيها الغليظتين الوارمتين تكشف عن أسنان بيضاء نظيفة ولثة حمراء. كانت ملامحها مرسومة بشيء من السطوة، كأنها في حالة استغناء عن أشياء كثيرة دبرتها بإباء وترفع فأنتجت كل هذه الهيئة. أطلقت عليها أول ما شاهدتها لقب مديرة مصنع حربي لإنتاج الأسلحة الفتاكة. وإذن ما عليها إلا استحقاق اللقب. تلك كانت حالها لما التقاها الوالد والعربة تقف بباب الحوش وهي محملة بالأطايب، وعلبة من القطيفة الحمراء تضم أقراطاً وخاتماً من الذهب المطعم بالألماس. لم يتم الزفاف، فالجدة وفيقة دبرت وفصلت وخاطت ثم لبست كل واحد الثوب وعلى المقاس.

لكن «نوعة» ذات الحياء والهدوء والرتابة الطبيعية لم تحتمل ذلك. لا

أتذكر انني سمعتها تضحك فيهتز زجاج الشباك كما يفعل أبي حين يعابثها فتستجيب ورأسها منكس. خدودها تتورد وهي تلقاني في طريقها للحمام. جمالها من النوع المقتصد لا يشعر به أبي إلا إذا هزه من الجذر الندي حتى يحصل على المراد. فلساعة متأخرة من الليل يرد الباب عليهما ويبدأ بتقشيرها. فيترقرق الوالد وهو ينصت لصوت البدن البض الممتلىء. . ماجن أبي في الصورة الخام للرجال. شره وذوّاق في الأكل واختيار أجود أصناف الخمر. وإذا ما بدأ بالسكر فهو يتفاخر بأنه لم يبلغ فقدان الرشاد. على العكس، يصير خفيفاً طائعاً ومجونه يتحول إلى نوع من الورع. وكلما تقدم درجة في العشق لنوعة كانت الشهوات تسعى في قوة وخطر فأسمع صوته يتباهى بالفحولة، فلا ينتزع نفسه من جسم أمي إلا بعد أن تبدأ بالانتحاب السري الكتوم.

كما نفعل، خالتي وأنا، ونحن في القطار الذاهب إلى السماوة. هذه نسائم الربيع الذي لا أحبه من بين جميع الفصول. أطلقت عليه اسم الشائعة التي تموت أول ما تذاع.

«نوعة» كان أبي يسميها «فص الألماس» سحقت في هاون حديدي، توارت في باديء الأمر لما تناهت إلى سمعها رغبة أبي المتأخرة في الزواج من فريدة. حتى الرفض الذي نقلته فخرية أختها الكبيرة لم يشفع لأبي. اختفت في غرفتي تغزل وتحيك الصوف، تغنيَ وتذبل. فأبي كان الطريقة الوحيدة والملائمة لها للوجود وما دام كذا وكيت، ومهما وإذا، فلا شيء ينفع. حتى صبوحة أسقطتها من البال. فتنازلت عن الزاد وظل صوت غنائها الملتاع وحده يذكر بطريقة التنازل عن الدنيا.

لم أبغض أبي أبداً ولا تلك العمة، كما لم أنتزع أمي وأدفعها للإهمال، على العكس ثبتها بطريقة معقدة وغامضة. فبدأت أقلبها كلما جاء المد والجزر: كيف تظاهرت بالاستغناء عن الشهوات واللذائذ وأعاجيب السيد الوالد فبلغت سن التلاشي وهي لا تزال في السابعة

والثلاثين. أما أبي فقد خصصت له المشاعر اللطيفة رغم تقلبات مزاجه.

سبع ساعات أو أكثر بين السماوة وبغداد. لم أضع الساعة بيدي منذ... وبجواري فخرية تهتز في نومها. حين يصلها شعاع الشمس تفز وتمسك يدي، تفتح عينيها وتنظر نحوي مباشرة ودون كلام. كنت أجزم أنها ترى مثلي الصور القديمة، تلك التي حصلت ووقعت لنا جميعاً. يوم جلس الوالد في صدر الصالون الكبير، في مكانه المعهود وسطنا، وبعد مرور شهور طويلة على وفاة «نوعة»، معلناً بصوت هادىء، لكنه ضعيف، عن رغبته في الزواج من «عباسة».

كان الحديث للإبلاغ فقط وليس للمناقشة أو التداول. فهم كل واحد منا ذلك بطريقته. فخرية وشاكر وأنا. استدعينا الإشارات البعيدة، تلك التي ترددت:

ـ اي أبو صبيحة واقع تحت سحر كرجية الغجرية.

شاكر تولى تفصيل ذلك لأمه، وخالتي تلوب ليلاً وأنا بجوارها وهي تواقع وتردد:

ـ كذب، كله كذب.

والسماوة بلدة صغيرة بها ثقوب كثيرة وكبيرة. مراهقون يقطعون الطرقات مساء. نشالون يتبادلون البضائع كالتحيات بعيون ضيقة وشوارب ضخمة وابتسامات سوقية. قوادون لا يتراجعون إذا ما بدأ الظلام، يتظاهرون انهم غرباء حضروا للبحث عن نزل زهيد الثمن. سكارى يأخذون غفوة وأبدانهم تتكىء على أحد الحيطان. أنفار من الشرطة ورجال أمن بملابس مدنية. تجار وكتبة وأعضاء في أحزاب يحبسون أنفاسهم وهم يختفون وسط الخان الكبير أو وراء المقبرة في أثناء التحضير للمظاهرات. ونسوان مكروبات، وحيدات، معطرات بالمسك.. وبدويات يظهرن نصف أبدانهن وهن يبعن الخضار والفواكه. وغجريات كالأفاعي المريشة يطلعن من بطن الفرات في أوقات المد فتبدأ التربة

بالتشقق والانحسار. من الجائز أن السيد الوالد التقى بكرجية بين جرف الشط وصراحة شكلها هو الذي أوقع أبي بين فكيها؛ فكانت علاماتها تظهر على محياه في واضحة النهار، فلا يلقي اللوم عليها، لكنه يبدأ صداقة الفرات الذي كانت «مياهه تبرىء المرضى وتطهر الأبدان وهو الذي يحكم بين الناس». اتكل أبي على قوته البدنية وكرجية تراوده، وحسب تعليمات الفرات الذي كان يسميه الامبراطور، يضفي على الماء ألقاب السحر، ومزاج الآلهة وهو يتهيأ لتعداد محاسنه، حين يتمدد على السرير وأنا فوق رأسه أقرأ له في كتاب. يستفحل أمره كثيراً، وكرجية تشبه نسوان خياله. أخذتني إليها يوماً فخرية وأوقفتني قبالتها. آفة كانت. وأبي يتقلب بين الشك واليقين وأنا أتلو عليه من كتاب الملحمة. وهو يتقوى ويتخذ شكل الإله ـ ايا ـ فيسمع صوت الزوابع والرعود وهي تقتلع الأشجار من الغابات والألواح من الأبواب. يقاوم هو، وصوتي يتغير وكأني أنقل الأمانة إليه كاملة غير منقوصة: يا أبي نحن أيضاً نأخذ شكل الفرات: «أشد أنهار العالم عنفاً، ومن الجائز أن يكون ذلك أحد أسباب تلك الصفات الخاصة لطابع هذه الأقوام التي جاورته في العنف والتشاؤم والتأزم وتوقع المفاجآت».

ينخفض ويرق صوتي وهو يتحول إلى ترتيلة:

«فإن البغي رأته. أبصرت البغي المارد، الآتي من قلب الصحارى فأسرَّ إليها الصياد. هذا هو أيتها البغي، فاكشفي عن نهديك، اكشفي عن عورتك لينال من مفاتن جسمك.

لا تحجمي، بل راوديه وابعثي فيه الهيام.

فإنه متى ما رآك انجذب إليك،

انضي عنك ثيابك ليقع عليك».

كرجية المليكة وأبي نفر من الحاشية. أخذته إلى ما بعد الموت ومشقة اللذة. يقص شاكر لأمه. وخالتي وأنا نرتعد ليلاً. وراء مقابر البلدة كانت

خيام الغجر. نادته هي أولاً. أول ما حط قدمه هناك وهو يتلو الصلوات على «نوعة». عن طريق الموت اتصلت به، فمن غيرها يدري أن سلطة الموتى هي الكمال التام.

كرجية أول ما أبصرته، قالت هذا نصفه رجل ونصفه ثور مجنح. وأبي شديد الحياء، اي، تماماً، ذلك عبء أبي، حين كان يقارب المسرات في ذلك العراء الفاحش. كانوا ثلاثة رجال. شاكر يقول:

ـ أبو بدر واحد منهم.

حتى لو كان بدر هو الثالث، فالضواري لا تلاحق إلا الضواري. والخطر يتضاعف والبلاء يحل قالت كرجية:

ـ انتي تعالي. انتي سأبدأ بك.

دفعوه إليها دفعاً. كلا، ليس لأن أبي بلا تجارب، لكن كرجية تلدغ مثل الحية. وأبي كعروس في يوم زفافها صار، وهي عربيتها ذات لكنة:

ـ اي، تعالي انت، اقتربي أكثر، انت.

صوتها مخلوع ومشاعرها سائلة. أمها من القفقاس ووالدها غير معروف. بيضاء بالكامل. لما أبصرتها في السوق الكبير فطنت لوجودي لكنها لم تهتم. في أنفها حلقة بفص شذر صغير. حين اقتربت بدأ الوشم يتحرك من الحنك البيضاوي نازلاً إلى مفرق الصدر. والنهد كان ثقيلاً كائناً لوحده تحت الثوب الأصفر اللماع: «تعالي، تعالي».

ويدأ صوتها يفكك أبي. أصابعها وهي تسوي البضاعة في الأطباق الكبيرة، الشالات والبخور، العلكة والصوابين ذات الأريج القوي، العقود والأساور والشموع الطويلة والكبيرة الملونة. أصابع كفها كانت غليظة وكبيرة. لم أر هذا الحجم من قبل، وأبي كان يردد:

ـ جاءك الموت يا تارك الصلاة.

وكل إصبع من كفها كان على دراية تامة بما يقوم به. الكف يمضغ ثم

يبلع. وهي تنزع عن والدي ثيابه وتقبض عليه من الأكتاف العريضة:

ـ شفتك أزيدهم حياء وآني أموت على هذا. الحياء ليرة ذهب والنوم معه يموت. اسمع، ها، لا تدير رأسك عني. خليهم يدبكون ويرقصون أصحابك ويتفرجون علينا. الفرجة بفلوس والنوم ببلاش.

ينكس رأسه فتعيد رفعه. يتعرق فتلفه بين ذراعيها:

ـ شوف، شوفني زين، شيل رأسك عليّ وباوع جوه عيوني. خلي عيونا بس وحدها تغني.

صوتها يعيد اتصاله بالأرض، تغني وتعابث الوالد:

«عين العين حامي العين بالعين
لجل عيناك أثر مرض بيه»
«ترف لجلك نبيح العين بالعين
مدام العين ويه العين»
«ابد ما زلزلك حالي وهدك
عفاه شيحمل الكلفة وهدك»
كصدي بس اصيدنك وهدك
وريد اتصير حر وترد ليه»

تضحك، ضحكت بطريقة شيطانية فارتعب أبي كثيراً. كانت حرة بطريقة مزعجة، وهو يعرف المخاطر إذا ما تجمعت اللذة والحرية. لم يجرب أبي ذلك من قبل، ورائحة افتراس وجوع وبخور فارسية تركضه بين خصلات الشعر الثخين ومفارق العرق الغزيرة. شواربه تختض. وعيناه الكبيرتان تجحظان فتتحولان إلى قرنين. صافية الذهن كانت وهو يهلوس ويتلاشى فتوقظه ثانية فاتحة له الغدران وتبتسم، ولما يأتيها طائعاً تبدأ من جديد. حين وقفت في السوق الكبير وأنا وراءها، بدت وكأنها ظل ذكر يريد إفراغ الزوبعة. فكانت تنادي في السوق بصوت يتذبذب بين

الغلاظة والرقة. وأبي يغلط وهي لا تهتم، تسترحمه أن يصير هو، هو بس. تعب أبي وهو ينصت إلى صوت الرقص والدبك وفحيح اللحم وهي تشفطه فيشعر أنه خاو. أسابيع وشهور والوالد يتبدد بالتدريج، يمرض ويقل. ولما أجلس ثلاثتنا في الصالون وأعلن نبأ اعتزامه الزواج، كان السحر بدأ بالتراجع بعد رحيل الساحرة. وبدأت الخمرة، يغالب فيها الفقد والمرض. والشائعات محيرة: كأن شاكراً دفع بالسيد جميل وفرقة من البوليس الجوال عن طريق المصادفة إلى طرد كرجية وربعها. والحال، أن فخرية هي التي طوّحت بهم وبواسطة الحاجة وفيقة، والدة السيد جميل، فيعود الوالد إلى طاولة العرق ومواعين الخيار والخس، والقلب، قلبه صار مثل الحصى.

- ٧ -

«ليحفظ الله الملك»

نغادر القطار ونستقل عربة أجرة رأساً. السائق لم أره من قبل. جميع السائقين كانوا يرحبون بي أول ما أكون قادمة من بغداد، كانوا يبتسمون ويتوددون إليّ وأنا أصعد سيارة الأجرة: «سيفرحون في البيت لما تدخلين عليهم دون انتظار».

الآن، في المرآة الأمامية يزورني السائق بعينيه العصبيتين، كأنه يريد أن يفتح شجاراً ما. لم تتغير السماوة، ما زالت على وشك الانتقال بين القضاء والمحافظة. طرقاتها الداخلية غير مزفتة، مبانيها متباعدة والشوارع مكتظة بالعربات القديمة، وأصحاب الدراجات الهوائية ما زالوا يتسابقون بدءاً من وراء الجسر العتيق وصولاً إلى مجموعة الحواش الكبيرة والمسورة بالأسلاك الشائكة لدور السكك الحديدية في أول السدة الترابية. بدت لي المدينة في هذا الجانب مفككة في الجوانب والمقدمة. فأين سأرى بدءاً ثانية؟

أجانب يحملون كاميرات تدلت على الصدور. رؤوسهم تحميها قبعات ذات أشكال مضحكة. وحوشنا في الدائرة الثانية من الطرف الآخر من الكورنيش الجديد. شيده أبي بطابقين على طراز حديث نوعاً ما بعد ازدهار ثروته. سقوف الغرف عالية والدهان بلون البصل الفاهي. في الليل تبدو السماوة ثملة فلا تجادل نفسها كثيراً، لكنها تدقق في ملامح الآخرين، ويغدو الأمر لا يطاق، وهذا سيكلفني الكثير فيما إذا وقفت أمام

السيد الوالد ووجهي ينبىء عن الأشياء: «لكن يا والدي»، أتمايل وأريد الارتماء بين ذراعيه. وعباسة تغرز نظراتها في وجهي: «ستبدأ المباراة إذن» وصوتها الرفيع الحنون يطلع من جوفها:

ـ زين عطلة نص السنة خلصت وما شفنا وجهك، والعيد هم مر. زين هلا بصبوحة هلا عيني.

دروعي من قش ويدي بين يديه. عيناه العسليتان بلّلهما دمع يابس قديم:

ـ والآن. . .

ـ لا تنظر إليّ هكذا يا أبي أرجوك.

لكنه يواصل النظر، فليكن، حتى النظرات تنتمي إلى الماضي وترمز إلى الانسجام. حين يبدأ بالتحدث كانت القوة والحيوية والشجاعة تنتفض منه. حتى بعد أن عاد من مواراة أمي في مقبرة السماوة البعيدة، بقي صوته شديد الوقع، حامياً:

ـ سنظل نقول يا صبوحة، كما في المرة السابقة، كما في كل مرة. كما يحصل من قبل، كما يفعل الأهل والناس. كما يفعلون ذلك على الدوام؛ الموت حق وأم صبيحة لا تعوّض لكنها الدنيا.

بقي يستقبل حشود المعزين في غرفة الخطار الواسعة المضيئة. أمر أهل البيت بتغيير الستائر واستبدال الطلاء القديم بلون أزرق هادىء. رفع الكنبات العتيقة وجاء بأخرى من الخشب المضفور بخيوط ذهبية، موضة تلك السنين في الأقضية الصاعدة بسرعة.

كنا ندري أن أمي زعيمة الروح وهذا البيت. يردد ذلك أمام الأقارب والأصدقاء. حتى بعد أن انزوت وتباعدت ولم تعد تبتسم وتذوق الزاد.

أضاء الغرف جميعاً، ذبح دجاج الحوش كله. وفي اليوم السابع نحر الذبائح وجلس في الصدر يتلقى العزاء. فحضر القائم مقام ومديرو النواحي المجاورة وأفراد من سلك الشرطة. أنفار بملابس خاصة

وحركات حذرة. والد بدر وبدر، استضافهما فمكثا للمواساة. ولما فرغ كل شيء وصرنا وحدنا، نحن أفراد العائلة الواحدة، كانت دموعه تقرأ علينا الكلام. نكس رأسه وشرق بالدمع ودمدم بصوت موحش:

ـ لا أحد يأخذ مكان أحد، وحدها نوعة كانت قوتي وحيلي، سطوتي وعزوتي، إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم عانقني بطريقة محيرة كأنني تقمصت روح نوعة، فسمعت دوي قلبه بين الضلوع. لا يقدر على تعزية النفس ولا بمقدوره اعتياد الغياب. يصعد يدي إلى فمه، يضمها ويبوسها من الأصابع ويعول: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير».

هذا اليوم بدت نوعة أكثر جلبة من أية واحدة من الحاضرات بعد مرور تلك السنين. لو يتغاضى الجميع عني، أولهم هو، فأترك وحيدة لكن الفرجة بدأت، باستحياء في بادىء الأمر ثم بعيون تبحلق كما تشاء. أطلقت عليهم في الأيام الأولى وأنا عائدة من بغداد، اسم «الشعب». يندلع صوتي وبيدي الهدايا وأنا أصرخ:

ـ وين الشعب؟ فليحضر حالاً ليتذوق أطايب بغداد.

اليوم شاهدت الجميع كما لو كانوا ممرضات في مصحة وهم يقبلونني باحتراز. تفحصوني جيداً:

ـ لا شيء يا والدي والله. شعرت أنني أريد أن أراكم. اي بس. الشوق، الأشواق. أليس هذا سبباً كافياً؟

فخرية تنحت بعيداً على إحدى الكنبات، صوت عباسة عاد بشيء من التهكم اللطيف:

ـ زين عيني هلا. قبل العيد ورا العيد هم ميخاليف.

كانت العناقات تسبب لي أذى جسمانياً كبيراً، وأخواتي ملكة وونسة وبدور واقفات وراء أمهن، وعلى كتف عباسة كان فؤاد لا يزال يرضع من ثديها. البنات يسحبن ذيل منامتها المنزلية بالحاح، فرحات لكنهن لا

يعرفن هل يركضن للارتماء في حضني كالمعتاد، أم ماذا؟ هذه ليست صبيحة الأولى. بصوت حاد قليلاً وبعد سكوت أجبت على نظرات الجميع:

- أريد البقاء في غرفتي لوحدي.

مشيت رأساً ودون تعليق من أي أحد. بعد ساعة أو أقل دخلت ملكة وبيدها كاسة من اللبن الرائب:

- هذا لبن أمي.

جلست بعيدة. لم نتبادل النظرات. كبرت فجأة، امتلأت باللحم والشحم. لم ترفع نظراتها عني، غير هيابة. تسأل بصوت حقيقي:

- ليش جيتي من بغداد؟

بوغت وأنا أتمدد على سريري. لم ألتفت إلى سرير نوعة إلا خطفاً. كان مسوًى ومرتباً. البطانية الجوزية المليئة ببراعم الأزهار الكبيرة تنزل إلى الأرض. تقدمت ملكة ومدت يدها إلى ثوبي، أمسكته وجرته إلى أسفل:

- ها، ليش ما جيتي بالعيد؟

تنحني وفي حركة أسرع من البرق تعانقني دافنة رأسها في صدري. حسناً هل يخطىء الكذب معها فننتهي من كل هذا بسرعة؟ أرفع رأسها وتعود لعناقي من الوجه والرقبة والخدود. تحشر وجهها تحت إبطي وتبوسني من شعري، فأبتسم ابتسامة ضعيفة. حركة الأمواج من بعيد تعصر القلب. حضرت إلى هنا لكي ألوذ بغرفتي. صبيحة، تلك كانت فتاة قديمة. أمسكت بيد ملكة وقمت على مضض. أوصلتها إلى الباب وأنا أبوس كفها:

- الصبح راح نلعب سوياً وتنامين في الغرفة معي. هسه آني تعبانة وأريد أنام.

لم أنظر في وجهها. خفضت رأسها دون كلام، والدموع معلقة في

طرف العينين الشهلاوين. كانت غرفتي في آخر المجاز، قريبة من الحمام والحديقة الجوانية وبعيدة عن باقي الغرف. إذا ما فتحت الشباك فبمقدوري رؤية أشجار الغار أمام الجرف من وراء السياج الواطيء. هنا أستطيع سلخ جلدي حين أضع رأسي على المخدة. لم أخل بروحي في الأيام السابقات. بقيت صبيحة بجواري وأنا أواصل حرقها بلا اقتصاد، فلم يعد بمقدوري احتمالها. كيف تلازمك نفسك المحبوبة وبمستطاعك الظهور بها، لكنك لا تنتظر عودتها، لا في تلك الليلة ولا في الليالي القادمات. إن الأداة الممكنة لهرس صبيحة، كانت صبيحة الأولى. كيف أفسر هذا الأمر؟ وأنا وسط جميع الأوضاع القائمة في الخارج والداخل، بعدما أدركت أنني أخضع للمراقبة التامة وداخل البيت. كنت أتلقى تهديداً من الجميع. وبدا الحب ذاته، حتى لو حرك إصبعاً واحداً في وجهي ومن أي مخلوق، فهو يعرضني للخطر ويورثني الكرب بعدما يتم اجتذابي إليه بالكامل، تلك الجاذبية المغايرة لجاذبية الأرض والقمر أو الكواكب السيارة، كانت تتكرر مليارات المرات في الثانية الواحدة، والنتيجة، انفصال أو تركيب أو استنساخ شيء آخر. والمبدأ واحد في الكون: إما تحسين الطبيعة بمعجزات خارقة، وإما تقبل الطبيعة كما هي بصنوف الأعداء الجدد. في حالتي كان الاستغناء التام هو حجتي، كما هو المثل الإنكليزي القديم: «إذا كان هناك شيء غير منكسر فلا تصلحه» أردد هذه الفرضيات التي كانت تتلاحق في رأسي ولا أحاول البحث عن صبيحة. يجب أن تعلم هذه الأخيرة، أن عليها الانسحاب بهدوء ودون وداعات باترة. إذن، ما عليّ إلا تنظيم أوضاعي مجدداً. هذه غرفتي، أدواتي، طاولتي، كرسيي وموجوداتي، مخلوقاتي الرثة والمسكينة. فخرية لم أقل لها:

- تصبحين على خير.

فكنت أجيب على نفسي وبمنتهى الهدوء: الكذب لا يحتاج إلى قفازات، وهو الذي سوف أتشمس عليه وأنا أعرض بنيتي مجدداً على

سرير نوعة التي لم تعمل على مرضاة الوالد بإنجاب غيري. هل كان سوء الطالع، طالعي، لكي تهيم بي لوحدي. فأودعتني لا الجمال فحسب، لكن وسواس الذكر وزمجرة الأنثى. كانت تقاتل بي على طريقتها لقب الصبي الذي ظل والدي دون انقطاع يستميت للاتكاء عليه. فأظهر مرة فتاة مذهبة، كفّاها وقدماها الصغيرتان منقوشة بالحناء وأنصاف الليرات بحجول الذهب. وكلما أمشي تعلن الخشخشة عن حضوري بين الغرف. بقي الذهب سلاح الوالدين سوياً، يا للعجب. أنا الطريدة التي بمقدورها تهديد الصياد: أبي. فأبدو في غمضة عين: أرض الصراع والعراك فيما بينهما. تتفنن نوعة في اقتناص أجزاء جديدة وغير مطروقة من قبل على جسمي، فتحصنه بسلاسل الذهب. ليس في المعصم، الزند، الرقبة، الأصابع، الصدر والقدم فحسب. كانت تتمتع بمخيلة غريبة وهي تترصد طيات جسمي حتى تجهز الأماكن التي لم تستخدم بعد. أرتعش بعد الاستحمام وهي تنشفني وتمددني أمامها على السرير. تناغيني وتغني. تنصت إلى صوتها الجاهز الغريب، فألتقط الكلمات وأنا عارية. تبوسني من أطراف أصابعي، تشم ما بين الأصابع بيأس وكأنها تريد اقتلاعي من بهجة ما، لا أعرف ما هي وأنا في السادسة:

«فوطة على فوطة والعين مجلوطة
رجلي محناية وديتها للخان
والخان ميريدها ويريد بلوطة»

«يهل اللوام كفوا اللوم باللوم
ولا ينفع صريخ الجبد واللوم»
«وعجزت انه وعجز لقمان باللوم
أو عجزت الطبيب امن الدوه»

يغيم صوتها فتتعلق بذراعي وتبدأ بشمي كباقة زهور. تبوسني من الصدر وتنزل إلى البطن. كانت تتنفس في لحمي وتملأ خياشيمها رائحة

الهيل والصابون والرثاء، وتهبط وأنا أختلس النظر إليها وشعرها الثخين تدغدغني خصلاته فأكركر بصوت عال. أداعبها وأقرص خدودها حتى تصل إلى بقعتي تلك. تندفع وتنقض عليها وتعاود. ترفع رأسها قليلاً والدموع تصير مجاري. كان التكريم ذاك لا علاقة له بالحب فقط، لا بالبنوة ولا بالأمومة. كان حالة أقرب إلى التعبد. فأمي امرأة مباشرة وواضحة. تتوقف قليلاً لتخرج صرة من القطيفة الحمراء تبدأ بفتحها على مهل وهي تدقق في بطني: زنجيل ثخين من الذهب وفي طرفه أكبر ليرة مقرنصة، عليها صورة إحدى الملكات البريطانيات. تحركني وتمسكني بذراعيها وتشبك السلسلة على خصري فيقشعر جلدي قليلاً وأرتجف لما ينزل المعدن على بدني.

ـ يمه كل ما تطلعين من الحمام أشوفه عليج وأنت تمشين قدامي وكلبي يفرح شوية.

الذهب يبارك جسمي لكنني لا أقوى على التحرك بكل الأثقال تلك. ضاعفت نوعة العيار عليّ فنزل حتى ذلك المكان. وكلما يتضاعف الذهب على بدني كانت الآمال، آمالها تتضاعف بالتعلق بي، فأشبه أرضاً يراد إعادة حرثها.

أبي من جانبه، وهو يراني أرتدي الفساتين الموشاة بالدانتيل الملون والشرائط المكشكشة نازلة بضفائري وصدري مخيط بالذهب، يمسكني ويقودني من الذراعين، ثم يرفعني إلى أعلى، يحملني بين كتفيه ويدور بي بين الغرف وصولاً إلى غرفة النوم. هو أيضاً يضعني على السرير العريض ويبدأ بملاطفتي. يبدو معذباً ويشكو من شيء غير محدد: مصيري أو هويتي، شكلي أو زيي. فيتحول إلى رجل أكثر من وسيم. هو بحق جميل تنطبق عليه الأوصاف والكلمات: رابط الجأش ثابت الجنان. لكن هذا لا يكفي، كان عراقياً من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. أي حلو، مرصرص باللحم، الصدر واسع والبطن بدأ بالترهل. يقول هذا من أغنية

أمك نوعة ونفسها الطيب. معتدل القامة، وسمين قليلاً. لا أشعر بالشحم واللحم إلا عندما يضعني في حجره ويبدأ بتقبيلي. رقبته قصيرة عريضة وبها طيات. كلما أبوسه أفتح طية بأصابعي الصغيرة وأبدأ بدغدغتها فيتعالى صوته وتدمع عيناه. وجهه كان جميلاً إلى حد الخبال والجحيم. لو بقيت صبيحة الأولى لتمرغت بأذياله ولو بعد فوات الأوان. بمستطاعي ألا أحبه، بذاك الحب الموجود، غير المتأخر فيّ. فيحق لي القتل، قتله من الحب المحال.

في تلك الأعوام وهو يضعني أمامه على السرير، كان يتحرك كما تفعل نوعة. يفتح الخزانة ويخرج صرة. كل واحد منهما كان يرتب لنفسه، وعلى جسمي وإلى ما لا نهاية: صناعة قدري.

بعزيمة يبدأ في خلع ملابس الفتاة. بمفردنا نكون وفي الإمكان خداعي. لكنني متأكدة أنه يبدلني، ليس بالثياب، لكن بالخطر والأفعال والميول وهو يركزها فيّ. يتهلل وجهه ويخاطبني بصوت آمر:

ـ صباح.

يقرفص على طرف السرير ويبدأ من أقدامي. يلبسني جورباً وسروالاً، يصل منتصف ساقي، يفك الحجل ويضعه جانباً ويدخل كتفي الصغيرتين بكمي قميص قطني مقلم بالأزرق والأبيض، خاص بالبحارة. كان يعمل كرجل صبور، أنفاسه تصل الذروة وهو يشد خصلات شعري كلها ويدفعها إلى فوق واضعاً قبعة من الكتان الأزرق الخفيف فوق قمة رأسي، يحرك حوافها حتى تغطي الشعر بأكمله، قابضاً يدي:

ـ يالله صباح البس الحذاء.

نقف سوياً أمام المرآة. عيوني ترمش وقلبي يخفق وأنا أركز بصري على هيئتي الجديدة. بدون قتال صرت صبياً وأوحي بالثقة أيضاً.

وبحركة من يدي، رفعتها إلى فوق وأشرت بالتحية كما يفعل الجنود أمام رؤساء البحرية. كلا، لم أكن شبحاً يريد التحدث بصوت آخر، بنبرة

نبيلة أو رقيقة. كنت أتوفر على ضيافة الجنسين بتلقائية، هكذا بثوان. يسحب أبي يدي ويقودني بجواره ونطلع إلى الشارع العام، وكأنه يدعوني إلى مدينة العجائب. نمشي في البداية في الطرق المتعرجة، وإذا ما هب النسيم ثم تغير إلى هواء يسرع في هبوبه، كنت أنزل يدي إلى فخذيّ الصغيرين لكي لا ترتفع التنورة أو الفستان. وأبي يتضاحك وأنا ألمس نسيج السروال. أدوس الحصى والتراب بصورة نافرة وتتصاعد الذرات أمامنا. نعبر السواقي والبرك الصغيرة، وحين نصل الشارع الرئيسي كان بوق إحدى العربات التي تشبه الشاحنة يطلق صوته العالي، ورجل يمسك مذياعاً كبيراً وهو جالس في المقعد الأمامي، وحين يرى جمعاً من الأطفال والكبار يتوقف ويعلن بصوت بح من الصياح:

ـ اليوم تعرض سينما السماوة الصيفي فيلم غزل البنات، هلموا، هلموا، أربع دورات بعشرة فلوس. فينطلق صوت ليلى مراد فجأة من بطن السيارة كلها. ذلك الصوت كان يعيد للسماوة بهجة العيد وأنا أريد سماعه لوحدي، لكن سرعان ما يتسرب مني وهو يبتعد وأنا أريد الانفلات من يد أبي واللحاق به إلى جرف الفرات أو التسلق على الشجرة للقبض عليه. في تلك الثواني يطلع بدر فجأة ووراءه غمامة من الصبيان كلهم على الدراجات الهوائية. كان المنظر لا ينطوي على إحدى نوبات الدنيا، كأن الحياة كلها أمامي. ولأنني لم أستسلم، لا لأبي ولا لأمي وهما ينشرانني أمامهما كما لو كنت إعلاناً مفرطاً في الفجاجة، فلا أبلغت أبي بهزيمة الذكر وأنا وسط أولئك الذكور، ولا كان بوسعي مقابلة أمي إلا بالغفران والرأفة، لأنها تكفلت بموارد أنوثتي لوحدها وحذفت عني التلذذ بكل هذا الذي يرتعد في أوصالي، وأنا أدري أن الأحابيل كانت ترافقني والغرائز كافة، وجميع تلك الرحلات مع والدي تلاحقني بقلب الدور أو الوظيفة، العنوان والاسم والمتع بالطبع.

كان بدر يقود دراجته وهو في المقدمة واضعاً ذيل دشداشته في فمه

وهو يتصبب عرقاً. أنفه أكبر ما في وجهه. عيناه كانتا كضفتي نهر. حاجباه غليظان في منتصف جبينه العالي. شعره مجعد أسود، وبشرته بيضاء. كيف توفر على هذا البياض وهو يتطوح أمامي والشمس تلفحه على عجل؟ كان لونه يتحول وهو يقبل نحونا. لا على التعيين كان يقصدنا ونحن في طريقنا إلى السوق الكبير، حيث محل أبي في سوق الصاغة.

بدر كان طويلاً ويدي كانت تريد، وحدها أرادت ذلك، لو تحط عليه. على الكتف المعروق لكي أقول له فقط:

ـ إني هنا.

أردت التوقف والفرار من يد الوالد والدخول وسطهم وترديد:

ـ هيا انظروا إليّ.

وبدر لا ينصت إلا لصوت المغنية؛ والأغنية: «حبيب الروح».

كان نحيلاً لكنه كبير. أول ما أبصرته استغربت، فقلت هذا سيجعلني امرأة وأنا بجواره. لم أذكر أكثر من ذلك. فأينما التفت وأبي، كنا نراه أمامنا أو بعيداً عنا. كانت دراجته عتيقة وحركاته تنبىء بأنه يعرفني وحدي. وهو على وشك البوح أمامي بكل شيء، ألست أنا الفتاة الوحيدة هنا وسط الصبيان اليافعين الذين كانوا يتبارون أمامي؟ جميعهم عملوا بعض الحركات قدامي، وأبي يبتسم دافعاً بي أمامه، إلا هو، لم يتدل في حركات جنونية، نصفه في الدراجة والنصف الآخر يطوح به الهواء. لم يدع قلبي يتوثب من مكانه لكي ألحق به. كلا، كان يعرفني والقبعة فوق رأسي وأنا صبي، لكنني ضحكت يومها. كانت سلطتي كفتاة لا يجوز التضحية بها بتاتاً. وأبي لم ينجب غيري والجميع على علم بذلك. والعرق يطفح من بدنه، عرقه هو الذي سمرني في مكاني. بقع دشداشته، في البطن والظهر وتحت الإبطين. أصير حالمة، حلمت في تلك اللحظة انني أشمه وأبوسه من العرق. لم أسمع صوته في اللقاء الأول. لم يناد أو يصرخ. كانت الدراجة هي المعركة الأولى فاستغنى عن الباقين وهو

يكشفها أمامي، فلاحظ أنني لا أعيره انتباهاً. لا ألتفت إذا ابتعد ولا أغير مواقعي إذا صار ورائي. وأنفاسه على ظهري بدأت بحرقي. أول ما حفظت من سحنة بدر، أنفاسه وهو ينسحب من أمامنا وأبي يتوقف ليصافح أحد المارة، مسلماً ورافعاً يده إلى أعلى، كما أفعل الآن. كلما أرفع يدي إلى أعلى، أمسح عرقي الطافح وأهذي. بثيابي نمت أو تراءى لي أنني أنام، فأرى البدر أمامي مكتملاً هذه المرة. أحدق فيه من وراء الشباك ولا أنزل بصري عنه. إنه أقل خطراً وما هذه النظرات إلا تكريماً له، وأنا رافعة يدي إليه فتحط نظراته على تلك اليد. كانت يدي ضخمة ولا تربطني بها أية صلات. كما فعلت في العام الماضي ونحن في غرفة هدى في الطابق العلوي. أشاحت بوجهها عني ولم تتفرس كالسابق في خلايا يدي، في العروق والطيات، وحز الأصابع. كلما امتدت يدي وأنا أحركها كثيراً في الحديث أمامها. كانت تتوقف عن التنفس وتقول:

ـ يدك تشبه يد المحاسبين.

تقول ذلك وتضحك، في الشهور الأولى من التعارف، وتكمل:

ـ تعرفين صبيحة لو تشتغلين محاسبة بعد التخرج أحسن من الترجمة. دائماً أتصور يدك لا تغلط في الحساب.

كانت مواهب يدي منذ البداية هي التي احتفظت بهدى في بادىء الأمر. فأضافت:

ـ تصوري لو كنت رسامة لرسمتها لوحدها دون باقي أعضائك. أتصور حتى لو بلغت المئة ستبقى يدك مرتبطة عندي بالمال. ليش؟ لا أعرف الرد لو سألتني.

هكذا كانت تبدأ وتعود معي من تلك اليد التي دربتها وعلمتها، كيف تمص سم الثعبان ولا تموت من اللذة.

يدي الآن لا ترشد أو تدل على أحد. ولا تحلي أصابعها خواتم الذهب، ولا بمقدورها تدوين الأحداث. فماذا تفعلين يا صبيحة وأنت

تنسلين إلى غرفتك كالحرامية؟ وكيف بمقدوري حساب الساعات التي ستحضر، فأقع في حبائل نفسي وأنا أرفع ذراعي إلى أعلى وأشير بها إشارات مبهمة، فأتحرك فوق السرير، أترنح قبل أن أنادي على أحد. أتعرق وأختض وأبدأ في تلقي اللطمات من يدي العصبية، وليس لمرة واحدة. أضرب نفسي بضراوة. تطيش يدي على الخدود والرقبة، الصدر والأفخاذ، على حمولة الأعضاء الظاهرية وتلك المحتالة عليّ وهي تتضخم أمامي وتستهزىء مني، فيبدأ زئيري وعوائي وأنا أهتز وسط السرير. موجة تعاركني وتخدعني، وكلمات تزاحمني وأنا أوجهها لنفسي، قصد النيل التام مني على أفضل صورة، فأشتم الموتى والأحياء. ألطم جسمي الطفولي، الرجولي، المخنث، الرياضي وغير المستخدم جيداً. الآن يا صبيحة، أيتها المتروكة، خلوتك ستبلغ الكمال، وأنا لا أفضلك هكذا، ولا تعجبني تجاريك الجديدة. فأقطر الدمع، لكنني لا أجيد العويل مثل هدى وباقي النساء. فلا أتضرع للبشرة التي تجعدت، البشرة الهزيلة المريضة وغير الميالة لأحد. فأطلب الفراق من صبيحة وأخطىء كالعادة. لا أقدر على القيام ولا على النوم. أخاصمك يا فاجرة وتزداد التلميحات فلا أتبع الاحتشام ولا الخلاعة. لكن صبيحة تزداد في هذه الثواني هذياناً وذلاً، بعدما تركوني حتى أتفاقم وأسيل، نسيت انني في الحادية والعشرين: سن العرق البارد والتواريخ التي تنتهي أيامها بالأصفار الكثيرة: «يابا، يابا، زين وهسه شلون؟».

أنقل الصوت إلى الطرف الآخر من البلعوم. وخلال برهة عابرة، لا يطلع، لا واضحاً، ولا مشروخاً، لا يطلع.

* * *

نقلتني فخرية إلى دارها وتأكدت هي قبلي أنني سأحبل، وما عليّ أو عليها، لا فرق، إلا الاكتفاء بنصر ضئيل: تزويجي بهدوء وبعيداً عن الأنظار. كيف وافق في النهاية؟ كيف غافلته وهو يدور حولنا مشتت

البال، كل هذا هراء. لا شيء أمام خالتي يدخل في الارتجال. دفعت عني أبي وزوجته وأولاده، وكأنها أخذت على عاتقها تدوين نهاية مرحلة من حياتي وبشيء من الوقار. لم تتحدث عن تقرير المصير، ليس لأنه تقرر وانتهى، وإنما لأنه تم التنكيل به فلم نعد بحاجة إليه. فبدت امرأة فذة ومفاتيح القرار بيدها.

أبي تهدم وعاد للتواري ثانية وهو يرتب معداته أمام طاولة الخمرة. صار رجل الظل بعد استسلام الزعيم وبعض ضباطه حيث تمت محاكمتهم وإعدامهم رمياً بالرصاص. كان يسجل جميع البيانات التي يذيعها الراديو والتلفزيون. فسرت ذلك من جانبي بشغفه بالفضائح السياسية. يضع نظارته الطبية على عينيه المتعبتين، يجلس أمام سدة النهر ويبدأ بالقراءة: «إن الجيش قد أنهى نظام قاسم الذي قسم البلاد وأوقف الضمانات الدستورية وأهان المواطنين ومنع تقدم الشعب العراقي، وان هدف الثورة هو تحقيق الوحدة الوطنية ومساهمة الشعب في حكم البلاد، وأن الثورة تحترم قرارات مؤتمر باندونغ وحركات التحرر العربية، وتضمن للشركات البترولية حرية الاستثمار».

كنت أتوقع أن يكون والدي مثيراً للشفقة لكن ليس للحد ذاك. يلملم من هنا وهناك الأخبار والشائعات ويتوجه لنفسه بأن يتقمص أدواراً ما بين قصر النظر والعمى. هكذا كان حاله بعد أسابيع من عودتي من بغداد، فاكتفيت بالمرئي منه وهو يعاود قراءة أو التقاط بيانات الطرف الآخر، في بيانين خبأهما في نهاية المطاف في رأسه. فكان ينقل أصولهما بصوت طلق وهو يكرع الكأس بعد الأخرى مردداً على شكل أهزوجة: «إلى السلاح، إلى السلاح لسحق المؤامرة. وإن مجموعة صغيرة من الضباط المتآمرين قاموا بمحاولة يائسة للسيطرة على الإذاعة، كونوا جاهزين لتخليص بلادنا من الخونة».

كان شارع الجمهورية الكبير والعريض في السماوة يريد تحاشي الضربات أو استباق الوقائع عن طريق الحدس والفعل، فبقيت الحملات

التفتيشية المتلاحقة مستمرة لليال طوال، وأثناء الظهيرة. فبدر كما بدت الأمور اختفى، فر أو مات. كل ذلك كان يشبه القصص البوليسية الشديدة التفاهة. والاتهامات كانت تتساقط فوق سياجات الحواش والمقاهي ودور السينما: «معاداة الوحدة العربية وارتكاب المجازر. . .» ففي الثامن من آذار وبعد أيام من وصولنا إلى السماوة وبدء مرضي الطويل وغير المعروف علمياً وطبياً، أبلغنا الراديو: «ان صفحة جديدة بيضاء من التاريخ بدأت بيضاء أيضاً في سوريا ودون مقاومة تذكر». وكعادة والدي وهو مخمور كان يعاود قراءة البيان كما لو كان ينوي الظهور في التلفزيون من فرط صفاء الصوت والصورة وهو يتلو: «باسم الله وباسم العروبة، منذ فجر التاريخ وسورية العربية وشعبها لم تعترف أبداً بالحدود ولا تعترف إلا بالوطن العربي الكبير». يأخذ خيارة وينوي الوقوف وقفة عسكرية لينصت لشريط الأغاني الحماسية. فقد ضعفت تجارته وكلمته بسبب «فتاة الشمس العراقية» كما يطلق عليّ. فكانت الأمور تبدو كأنها مجرد مزحة وهو يدير الاسطوانة إياها كلما طفح الكيل. يضع وجهه بين يديه ويصيح بصوت مذبوح:

ـ كعب أبيض أخوي أبو عادل.

تتملكه الأريحية وهو يطفو فوق الرؤوس، رؤوسنا كلنا، حين يتدفآن هو والسيد جميل المعروف أمام المنقل المتوهج، والأقداح تدور بينهما ونحن نتفرج عليهما وهما يسترسلان إلى ما لا نهاية عائدين إلى أوائل الخمسينيات. ففي مقدورهما رؤية ما حدث وهما على بضعة أمتار فقط، وكأنهما يذيعان نسخة مكررة من بيان عمره عشرون عاماً. فالخمرة كانت تجنبهما الأسوأ: الغلط والنفاق. والدي يبدأ بفتح الستارة وجميل يواصل ونحن وراء الحجرات كنا نترجم ونتفرج: أي «ليحفظ الله الملك».

تجرأ أبي يوماً وسأل جميل مباشرة:

ـ هل أنشدت هذا النشيد يا أخي جميل كما رددته أنا وعديلي والد شاكر. اي، للملك فيصل الأول بعد طرده من سوريا؟.

ـ والله لم ينس الملك ذلك أبداً. لم ينس الجنرال الفرنسي غورو. كنا يافعين جداً ونحن وسط الحشود. هل جئت من السماوة؟

ـ لا، كنت في بغداد في تلك الأيام في بيوت محلة الفضل. نزلت عند السيد نايف الجريان لكي نشهد التتويج.

ـ آخ على تلك الأيام. أعداد وفيرة حضرت من كل فج عميق. كانوا يشبهون الأضوية ويلمعون. وجوههم حليقة وشواربهم مقصوصة، ثيابهم جديدة ومكوية، وأنا يا دوب تخرجت من مدرسة الشرطة بعد المتوسطة وعلقوا على كتفي خيطاً أخضر. قالوا لي بعد التتويج ستعلق النجمة الأولى. أمي قالت أصبر شوية. فوقفت بساحة السراي، كانت مكشوفة والملك فيصل أقبل من سكناه في القلعة يصحبه كل من المندوب السامي البريطاني السير «برسي كوكس» ورئيس أركان الجيش البريطاني العام (السير يملر هادوين). الله أكبر على ذاك اليوم. كانت هناك وجوه عراقية وعربية كثيرة أطلقت اللحى واعتمرت العمائم، بعضهم ارتدى البدلات الافرنجية والطرابيش الحمراء. والأغلبية كانت ترتدي الثياب التقليدية.

ـ اي، مثلي، نايف أعطاني عباءة جديدة من الحرير ذات خيوط ذهبية تنزل على الكتفين وتحتها دشداشتي من القطن الجديد حضرتها قبل شهر لهذا اليوم. تصور لما لبستها صرت عبالك في العشرين من عمري. أبو عادل ترى اني أصغر منك ها؟ لا تغالط في العمر ولو راح الكثير منه وما بقي إلا القليل. ما علينا، كانت العباءة تلتصق على ظهري وصدري من حرارة يوم الثالث والعشرين من آب في العام واحد وعشرين. آخ يا أخي، الكل يريد الوصول ولمس ذلك الموكب.

ـ تمام. كنت أدفع الحشود إلى وراء. فلقد صدرت التعليمات لنا، دعوهم يفرحون ويتفرجون. كانت الفرجة مبعث سرور وفرح. تدري أبو صبيحة، اني لمست خيطاً من خيوط بدلة الخاكي لجلالة الملك. كم كان شاباً وسيماً وهو يتقدم: «وجماعته في طريق فرش بالسجاد إلى منطقة واطئة فرشت بالسجاد أيضاً. ووضعت فوقها الكراسي وعرش صمم على

طراز عرش وستمنستر». أي ذاك يشبه العرش البريطاني في إنكلترا. لكن لو تدري كم كان وضعنا نحن، أنفار الشرطة صعباً، فذاك العرش سرعان ما أصابه الوهن نتيجة الصندوق الذي حفظ فيه، حيث ظهرت علامات تدلل على أصله. فقد قيل، سمعت ذلك من بعض الواقفين بجواري، كان ذلك الصندوق في الأصل يستعمل لحفظ قناني البيرة اليابانية علامة «اساهي».

ـ تدري كنت أريد أهوس وأدبك لما بدأ عزف جوق الموسيقى.

ـ تمام. قام حرس الشرف بعزف لحن موسيقى «ليحفظ الله الملك» وتم إلقاء التحية من الفوج الأول من كتيبة «دورستشاير» وهو يعرض السلاح ويطلق إحدى وعشرين طلقة تحية للملك.

ـ هل صحيح أن الجوق كان يعزف السلام الملكي الإنكليزي؟ نايف كان ورائي وقال ذلك بصوت عال.

ـ اي صحيح. يا لله أبو صبيحة كعب أبيض للعراق الملوكي. للملك فيصل الأول.

ـ لا تستعجل أخوي، على مهلك بعدنا بأول الليل واليوم صباحي. غداً الجمعة تطلع على كيفك للتفتيش.

بطريقة مروعة كانت تصلنا تنهدات السيد جميل وهو يطلق سيلاً من الشتائم الفاحشة والبذيئة على الإنكليز:

ـ ما أدري إذا توجد ملة أحقر من الإنكليز. كل مصائبنا القديمة والجديدة منهم.

يكرع ويريد فتح تحقيق مع نفسه فيتدخل أبي معه بالتشكيك والمزاح:

ـ يا أخي يوجد أحقر من الإنكليز أبو عدولي. الإنكليز لو نسيت ها؟.

يطلقان صوتهما بالضحك العالي، العصبي، تدمع عيونهما ويبادره أبي بغتة:

ـ مرة ذكرت لي خطفاً أنك شاهدت الملك فيصل الثاني قبل مقتله بشهور في الثمانية والخمسين. لما زرتك في بغداد في مكتبك بشرطة

الخيالة. كنت في الخفارة الليلية. ترى كنت شوية سكران ها؟ تمام لو لا. وجهك أحمر وعيونك بلون الدم وبدأت تعربد وتصرخ قدامي، الوصي غدار وخرا وهو الذي سيغدر بالملك الصغير. صافحتني وقبلتني. كنت تضع القنينة في الجارور الأيمن من الطاولة وأمامك ماعون الحمص وصحن الباقلاء المسلوقة. تكرع رأساً وصوتك يزداد عصبية.

ـ والله حتى بنتي هدى بكت على الملك الصغير. لا تسأل على نحيب الحاجة أمي وأختي وبيت الجيران. أبو هجران العسكري المتقاعد منذ ثورة رشيد عالي الكيلاني وأم هجران وبيوت الطرف. كلهم بكوا على ذلك الخائب الحظ، فيصل الثاني. عجباً، الآن أتذكر قدامك أنني ودعت ثلاثة ملوك خلال عشرين عاماً. لما مات فيصل الأول مشت النسوة والرجال والأطفال حاملين صورته وسعف النخيل وهم يولولون ويلطمون كأنهم يتامى. لكن لما قتل الملك غازي أنت أين كنت؟.

ـ بالسماوة. كانت فخرية قد أنجبت شاكراً وكان طهوره ذاك اليوم. أمه حضرت صينية مليانة بمواعين أشكال وألوان. الشموع الملونة تشتعل والسعف واقف والهلاهل والدبكات واصلة إلى عنان السماء. لما سمعنا الخبر من أحد المارة... لكن أم صبيحة الله يرحمها، وكنا مخطوبين بس، قالت هذا فأل أسود على شاكر وأهله. لكن اني طيبتُ خاطرها وقلت لها هذا مقدر ومكتوب.

ـ آخ، اني لازمني الحزن. أمشي بغرفتي بكتيبة الخيالة وأقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير. يا أخي فيصل الثاني مثل ما سمعت لم يكن هدف الثورة. لكن الناس والدنيا كانت مخبوصة. تمام. تصور الناس أمواج، كأنه أعظم يوم في التاريخ. في ذلك الصباح أذيع البلاغ رقم واحد وأعلنت الثورة: «بأن الجمهورية، جمهورية الشعب ومن الشعب وإلى الشعب، وعند إعلان الدستور الموقت جاء أن العراق يشكل جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية. وان العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن. وان الجميع متساوون أمام القانون ولن يكون هناك تمييز بين إنسان وآخر

بسبب العرق أو القومية أو اللغة أو الدين أو المعتقد. كان الجميع يعرف أن العائلة المالكة فاسدة، وعلى رأسها الوصي».

يصبان واحدهما الخمرة للآخر، ويضعان الثلج في الأقداح، وصوتهما يتعالى، ومظهرهما كأنهما ليسا صديقين تجمعهما ليالي قسوة الوقائع وتاريخ الساعات المتوالية. كانا ينتقلان بين كآبة الزمان وبراءة المكان الأول فلا يريدان التعرف على النهاية. فالحديث بينهما كان دائماً يبدأ بطريقة روتينية حتى يتصاعد بأفعال عديدة على رأسها الخمرة وفي القاع المرارة وهما يؤديان الواجبات وفروض الشكر أمام الأقداح الملآنة وكأنهما يعودان إلى مكان بعيد عن التصديق، لا يقدران على اللحاق به. فالسيد جميل معاون الشرطة كان يصاب بالتوهج وهو يواصل الحديث بلا مقدمات ولا ينتظر أسئلة الوالد، حتى انه بقيَ يتحدث مما جعلني أعيش ثانية ولوحدي إلى حيث يقودانني. فالسيد جميل لم يكن يؤرخ، كان يترك جسده ورأسه مسترخياً إلى وراء ويده تريد أن تصفق وهو يردد:

ـ كانت المسامير قد دقت في نعش الملكية وأنا يا أخي لا أفهم السياسة. شلون أحب بلدي؟ اي أحبه وبس، على المكشوف وبلا مكبرات صوت. عبالك حب الوطن يحتاج إلى جمع تواقيع. يمكن داد سكرنا ها؟ فلم نعد نميز بين التراب والذهب؟.

ـ اشرب أبو عادل لكن على مهلك. اشرب علها تنجلي. أخذت حيفك من الوصي وطفيت نارك ها. نيالك أخي انت أحسن مني.

ينود السيد جميل كما لو أنه في مأتم. وبصوت بعيد، مذهول لم أسمعه من قبل:

ـ في الأيام الأولى من الثورة والحماس كان منقطع النظير، وباعتباري من سلك الأمن الرسمي، سافرت إلى الرطبة لجلب هداوي من بيت خالها الدكتور شفيق. ولما وصلنا إلى باب المعظم كانت الصورة مستحيلة يا أخي: «لقد انقضت الأيدي على ملابس الوصي وخلعتها حتى عري الجسد الذي بدأ أصفر مائلاً للبياض. وتصايحت الجماهير، اجلبوا

الحبال من الأكواخ المجاورة. واللوريات واقفة فربطت الجثة بحبلين، واحد من الرقبة ومرر الآخر من تحت الإبطين. فصعد إليه حملة السكاكين، فبتر الذكر». تصور، خجلت من هدى وهي ترى ذلك المنظر. بقيت تشوف بطريقة عجيبة فحاولت منعها لكني لم أقدر. كانت هناك مثل الأشعة فوق رؤوس البشر. «فما فصلت الرجلان عن الركبتين وقطعت الكتفان عن الرسغين، فألقيت أمام مجموعة من الفتيان الذين سرعان ما تلاقفوها حتى وصل الركب أخيراً أمام مبنى البوابة الخارجية لوزارة الدفاع في باب المعظم. فصعد أحدهم متسلقاً العمود الكهربائي المجاور للمبنى وعلق حبلاً في شرفة الطابق الأول، حيث وقف في تلك الشرفة بعض النسوة والأطفال يتفرجون على الشارع».

ـ كنت تتباهى أبو عادل بأنك أخذت حصتك من لحم الوصي؟ ها.

ـ كان مستحيلاً أن لا أعمل ما عملت. حتى ثيابي الرسمية احتقرتها. تريد الصدق؟ شعرت بالعار انها على جسمي. كنا وسطهم وكان الجسد اللئيم أمامنا. لا، لا تقول حرام، كان مجرد كلب للإنكليز. بدأت بقطع اللحم بسكيني التي أعلقها مع المفاتيح. أخذت من الذراع قطعة لحم صغيرة. وكان الناس يقطعون مثلي والوصي يتدلى أمامنا وينتقل من هذه اليد إلى ذلك الكف. والسخونة الشديدة بدأت بشي اللحم فغيرت لونه من الأصفر إلى البني. صدق أني أخذت حصتي. أخرجت منديلي الأبيض ووضعت اللحمة البائتة داخله، لفلفتها بصورة مستعجلة واحترت أين أضعها، فبقيت بيدي، وباليد الثانية أمسكت هداوي في طريقنا إلى الأعظمية. في الحافلة بدأت أنظر إلى كفي وكنت أشعر بالقشعريرة والقرف. ونحن ننزل من الباص. كانت الحاجة وفيقة ما زالت جالسة في صدر الصالون تقرأ القرآن وتهدي الآيات إلى الملك الصغير. إهمالها لوصولنا في تلك الظهيرة كان نوعاً من التأنيب أو التأديب، لا أدري. لم ترفع رأسها، بقيت تقرأ وتتعوذ من الشيطان. أنت تعرفها يا أخي. وهدى ساكتة وأختي فريدة في المطبخ. وحين أردت مسح عرقي وأنا أفرد

المنديل سقطت تلك القطعة على الكاشي. كانت تشبه الدودة. لم أنحن لرفعها، لكني ارتعبت من شكلها الغريب، نكست رأسي وبدأت أقص الحكاية أمامها. التفت بغتة كمن تريد الاستفراغ. أغلقت القرآن، قبلته ووضعته جانباً ووقفت بقامتها النحيلة وهي لا تلتفت إلينا. كانت في طريقها إلى الكنيف. أطلقت صوتها الداوي من المجاز:

ـ روح اغتسل وصل واقرأ القرآن عسى الله أن يغفر لك. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

انخفض صوتها وهي تسعل وتتهوع، استنفرت فريدة ولحقت بها هدى وهما تمسكان بها من الذراعين وهي تردد:

ـ اللهم لا تؤاخذنا. اللهم اغفر له ولنا. اللهم اغفر لي ولوالدي. اللهم أنت الرحمن الرحيم. حسبي الله ونعم الوكيل.

يغيب صوت جميل كأنه يتنازع وصوت والدي يختنق أيضاً:

ـ الله يساعدك مولانا على سطوة الحاجة وفيقة.

ـ والله عملت مثلهم، مثلهم بس. لو لم نمر من هناك لما فعلت ذلك. أقسم لك. لكن ماذا ينفع الكلام الآن؟ فقد قرأنا في الأيام التالية انه «صبت صفائح البترول على ما تبقى من الجثة إلى مساء ذلك اليوم. ثم حملت البقية المحترقة وألقيت في دجلة. كانت البداية أن تقدم شاب في مقتبل العمر من الجثة المعلقة. سمعت فيما بعد أنه ابن أحد القادة العسكريين الذين أعدموا بعد أحداث الحادي والأربعين. تمام، إني أعرف والده. كان يسكن في منطقة راغبة خاتون ولقد أعدم. ذلك الشاب ناولته الجماهير مسدساً ليطلق النار على الميت لكنه رفض القيام بالعمل».

ـ ٨ ـ

الضحك

يتلذذ بدر وهو يقول:

ـ كل شيء في هذه الدنيا سياسة بدءاً بالبطاقة البريدية وانتهاء بالخمرة.

استخدم ما يعكر مزاجه ـ الضحك ـ بفوضى وشطط وأنا أجاوب:

ـ طبعاً ستقول الضحك أيضاً.

ـ الضحك. . . ؟

ـ اي الضحك. أنت لا تعرف كيف تضحك. حتى عندما تبتسم أتصورك كمن سيدفع فاتورة حساب لوجبة شديدة الغلاء.

بدر يتجرع الابتسام ثم الضحك. كان صارماً، حازماً وصبوراً، وإذا ما ضحك كان يتحمل ذلك بصبر فيبدو لي الأمر نوعاً من الحذق، لكنه ليس فناً. يسيج نفسه بالموانع والمحاذير. شفتاه تتقلصان وأنا أحاول أن ألقي عليه بعض الدعابات فلا يرد إلا بهزة من الرأس، والمنشورات في جيبه وما عليّ أو عليه إلا التحصن بآداب السلوك لكي ينتهي الحفل الختامي. حتى الصحافة الوطنية تتوفر على نوع من التعليمات في هذا الشأن. في بغداد وسائر المدن العراقية، تصاب بالقنوط، وأحياناً بالقتامة الشديدة، فيما إذا انبعثت منها رائحة ضحك، حتى لو كان مكتوماً، مسموماً أو متقطعاً. المدن لا تضحك والعاصمة أيضاً. لم أسمع ما يجلو القلب بذلك النوع من الضحك الانفجاري الذي يسبب اختلالاً في القوى

والملكات، فيتوقف الدم في الدماغ. لم أسمع أن أحدهم مات بسبب ضحكة مدوية، ولم تنشر الصحافة هذا بالرغم من دوامي الطويل على المتابعة لها، وحصول أمور غاية في الغرابة. الصحافة لم تتوصل إلى رسوم ضاحكة أو هاذية، حتى لم تفكر باكتراء ذلك من الغير. ولدينا عدد من الصحف والمجلات الأسبوعية والدورية لا تعرف الخروج عن المألوف. إلا في حوشنا في السماوة وأنا أقابل إخوتي من زوجة أبي عباسة. الضحك هنا فاتحة حياة ونوع من الإلهام. لا أحد عندنا يضحك بصورة زائفة أو منافقة كما لو أنهم يسعلون أو يتمخطون. كانوا يضحكون كما يتنفسون وكان هذا الأمر شديد الوقع عليّ في البداية، إذن، ليس من أجلي، ولا لرفع معنوياتي لأطلع من حالتي المزرية التي كانت تتفاقم في الأسابيع والشهور الأولى، فيأخذون بيدي بهدوء، وكأننا في فصل دراسي، تقف في أول الصف عباسة وباقي الربع وراءها حتى يوصلونني إلى الضفاف الرجراجة: توبة الضحك.

قبل عامين استدعانا الوالد على عجل وصوته في الهاتف كان ساطعاً:

ـ تعالوا بسرعة. أخيراً جاء فؤاد.

كان قد غادر المستشفى بعد نصف ساعة من ولادة ملكة قبل ثماني سنوات وطرد نفسه إلى محل شغله. قال هذا ممكن طبعاً. وبعد ساعات قال لأبي بدر، بائع الأقمشة المعروف الذي يجاوره في الخان الكبير: «لقد قضي الأمر».

لم يكن مسروراً ولا تعساً. ولما شرّفت «ونسة» بعد عامين، دخل غرفة الضيوف الكبيرة، نصب طاولته ولوحده، صب لنفسه الكأس وهو ينادي بصوت ملتاع:

ـ خل نفسك مكاني يا أخي جميل. أنت بزرت الأولاد وأنا لا أستحق الذكر. سأشوي فروتي وشعر عانتي إذا ما حضرت الثالثة وسأخبرك.

ظل يمشي في الطرقات على غير هدى لما ولدت «بدور» فاستعد

للزواج من ريحانة أخت عباسة الصغرى، ليس بتأثير الرغبة والوجد فقط، لكنه ظل يردد حتى بعد طلاقها:

ـ عباسة المصب وريحانة الفرات.

عباسة الفوضوية، الملحاحة، الجذابة، والطيبة. بقي أبي شديد الأناة عليها في الأعوام الأولى. يتعقبها طوال بقائه في الحوش ويلاحقها من حجرة إلى حجرة وهي تطلق سيلاً من الضحكات وسنتها الذهبية الأمامية تزيده هوساً بها، تنتقي الأشغال التي لا تتصف بالدقة والإتقان. كانت مؤهلة للمغامرات الجهنمية والورطات التي تنهك الجميع ونحن نجري وراءها، أبي في المقدمة. تفلت منا مستخدمة كلمات مفككة للرد ولا تقف لتواجه عينيه العسليتين الماكرتين. تتفنن عباسة بالغريزة والتلقائية صنوفاً من الأعمال وتخترع طرقاً في اكتشاف طاقتها العجيبة على التحمل. تذرع الحوش أو تطلع إلى الحديقة التي تطوق البيت من الجهات الأربع. ترفع رأسها إلى أعلى وتواصل بكلمات غير مترابطة:

ـ ليش يا رب السماوات خليت أربعة أوقات بالسنة؟ والله لا تكفي. لا تكفي.

تكشف عن نهدها الصغير وتضعه في حلق ملكة، وباليد الأخرى تدق اللحم بالهاون الحديدي، تدهن الصينية وتدفعها للفرن. يتنازعها المطبخ والسطح العالي والغرف الواسعة فتمشي مثل جندي مكلف بالتحية العسكرية لقائد غير مرئي: الشغل. بالعنفوان الراسخ كانت جاذبيتها تروح وتجيء، ومن غير الممكن التعرف على خططها القادمة، فيحار والدي في أمرها وهو يدقق في الغرف والموجودات والأدوات. صحيح انه كان يباغت بالعزيمة التي تتصاعد بخاراً من خياشيمها، لكنه يقف قبالتها، يمسك بيدها ويجرها أمامه:

ـ شوفي زين كل هذا بلا نفع. شوفي الزجاج بعده مقلم والياقات بعدها وسخة. والأرض ها، تعالي مدي رأسك زين وشوفي هذه الزوايا

مكوم بيها مخاط الشيطان. ها شوفي زين.

تضحك. تطلق ضحكاً متقطعاً بصوت منخفض سرعان ما يتعالى:

ـ اي أدري. كل هذا أعرفه زين حتى أبداً من جديد.

في أحد الأيام اشترت علباً للدهان بألوان مختلفة فكانت تجلس الساعات. تبدأ بمزج الألوان في طشت كبير. بعد وقت طويل تقلب شفتيها وتبدأ بالدندنة، تغني بصوت مسموع جميل، ثم تصرخ. أسمعها وأنا في غرفتي البعيدة. ترى الأخضر والأصفر وقد تحولا إلى الأزرق، فتعيش على تلك القصة طويلاً وهي تشمر عن ساعديها ونحن لا نعرف ماذا ستفعل. تندفع بغتة:

ـ فوق. اي للطابق العلوي.

بعد أسابيع نشاهد الغرف بألوان متضاربة. كل حائط بلون وكل لون ليس هو، فتعاود ثانية. كانت تشق سكون الفجر وقبل انبلاج الصبح، فتبتسم في وجه الوالد وهو لا يزال نائماً. بعد أن تتلقى القرصة واللطمة الأولى على فخذها:

ـ نامي، نامي، بعد الفجر ما طلع. اي وين رايحة هسه؟.

تصمت قليلاً وتندس في حضنه. تبوسه من شواربه، تمد يدها إلى طيات رقبته الملحمة:

ـ النوم للمجانين وانتوا كلكم مجانين.

تحوص، تتأفف حتى يتم استيقاظ الوالد، لا يباغت أبداً وهو يراها أمامه، في يدها عدة الشغل وعلى وجهها ابتسامة الظفر. كانت تدري بالفطرة أن هذا هو الإخلاص الزوجي. الشغل حنان الزوجات، والحركة جنس الأمهات، وإذا ما تأخر الوقت ليلاً أو تقدم نهاراً فما عليها إلا الإفلات من الزمن والسير صوب الأشغال. فما تقوم به ما هو إلا التمرين الأول. هكذا ترد. وقفت يوماً أمام البستاني الحاج عبد الله، بعدما

تحزمت بحزام أبي. وارتدت بيجامته المقلمة وطوت الأذيال إلى نصف الساق. شدت ضفيرتها الطويلة بشال مذهب وأخذت تضحك وهي تسحبه من يده وتدل بيدها إلى أعلى، إلى النخلة الباسقة وعذوق الرطب تتدلى في كيان مستقل كاللآلىء. قالت له بصوت متقن:

ـ يالله حجي شدني على النخلة واصعد انت قبلي حتى اتعلم.

عبد الله استحى من هذه الورطة فبدأ يلوك لسانه، يتحجج ويدير وجهه إلى الجهة الأخرى. تلاحقه، تقف أمامه وتعاود:

ـ راح اتعلم أحسن منك وهسه تشوف.

بدا كطالب المدرسة وعينا المعلمة تلاحقانه من كل جانب. لونه يتغير ويتبدل من الأصفر إلى الأحمر. وقفت أمامه وبيدها الحبال السميكة فبدأ يربطها في بطنها وهو لا ينظر إليها تماماً. كانت واقفة كالعمود، وضاءة الوجه، ونحن جميعاً نرقب المشهد: الخالة فخرية وشاكر والبنات وأنا، والدي كان غائباً. تتعوذ من الشيطان وتنفخ على نفسها وترش الدعوات على قامتها الطويلة:

ـ اللهم يسر أمري. اللهم توكلت عليك يا أرحم الراحمين يا الله.

زمت شفتيها ولم تنظر صوبنا. وحين بدأت بالحبو فوق النخلة، سرعان ما وصلت إلى ربع المسافة من الساق، فحضر صوت ضحكها، كأن أحداً يداعب خاصرتها. يتعالى تنفسها العالي وصوتها بين العصبية والسخرية، فندير رؤوسنا ونتحرك وراءها، نلاحقها فتظهر كجرذ النخيل السريع القفز الذي يحمل مؤونة غذائه في جوفه ولون فرائه الزاهي بعدما تضربه شمس الظهيرة. عبد الله في الأمام، قائد لا ينحرف يميناً أو شمالاً. حاسر الرأس وذراعاه تخطوان في قوة ورتابة. وصوت عباسة متقطعاً يتعالى:

ـ والله كل يوم راح اصعد إلى هنا. هذه أحسن شغلة.

دشداشة عبد الله الزرقاء تنتفخ في تلك اللحظات الخاطفة مثل بالون. ترتفع كلما مسها الهواء في الأعالي والرجل غير قادر على لمها أو شدها، ونحن ننتظر ونصفق بانتظار باقي الخطوات، واللعبة في تمام الاكتمال وكل شيء على ما يرام. حين خلخل صياح عباسة الدائرة التي كنا نقف فوقها. علا صوتها بطريقة محمومة طويلة بين الضحك العالي والعياط ونوبة من الحركات العصبية:

ـ اللهم أعوذ منك يا لساني. حجي، هاي انت ما لابس شيء جوا الدشداشة. اللهم لا تؤاخذني على نظري.

كانت تطلي صوتها بكل طبقات الخجل والوقاحة معاً، وأعضاء عبد الله العارية تحت الدشداشة تتدلى أمامها. أشاهدها وهي ترفرف مثل عصفور مبلل. البلية بانتظارها وهي تخبط بحركات عشوائية، فبلغ صوتها مداه في المراوغة. كانت ترتعد لما حطت قدميها على الأرض. أنفاسها تعلو وتهبط، نظراتها زائغة وهي لا تستطيع التحديق في عين أي واحد منا. وعبد الله التأم أخيراً بنفسه، وسوّى الدشداشة بين فخذيه. وعباسة تمشي على عجل من أمامنا:

ـ اي عبد الله مثل أخوي. شنو يعني. كل الرجال عندهم بيضات.

يوم وضعت السلم الخشبي في غرفة الطعام، صعدت وبيدها فرشاة التنظيف الطويلة وقامتها تناطح السقف، والمسافة بين الذراع والسقف والفرشاة كانت كبيرة. وهي تنظر إلى خلف كأنها تريد أن تحادث أحدنا. هنا غادر جسمها الدرجات الأخيرة من السلم في لمح البصر. حدث الأمر هكذا كأنها في نزهة طيارة. صارت تشبه وطواطاً بثيابها السوداء، والفوطة تشد شعرها، وهي تستغيث. في تلك اللحظة ارتطمت بالأرض الزلقة الغارقة بماء الشطف، ورغوة الصابون كانت تبقبق أمامنا. ضربت الجدار ثم انفصلت تماماً والسلم فوقها. تلبط وتتشبث بالسلم وبيدي التي مددتها إليها، فسحبتني من ضفائري وتهاويت أيضاً. أخذتني فوقها فانزلقنا رأساً

وكأننا في عربة تزلج. ارتطمنا بدولاب المواعين الزجاجي الكبير الثقيل، المعبأ بالصحون. وراحت السكاكين والأقداح الكبيرة والصغيرة تتساقط علينا، وهي تمسكني من يدي، وأنا أقبض عليها من منامتها. تتعوذ من الشيطان، وينكشف جسمها المدمى أمامي. فأسمعها تبتهل وتئن. أول مرة أسمعها تتوجع والدم يسيل ولا ندري من أين؟ فبدأت تبتسم، ابتسمنا في وجهي بعضنا. كان الدولاب الزجاجي في ذلك اليوم ينافس كوارث الطبيعة. والحصيلة كسور في الحوض والساق. ثم حل واحد كان أمام الوالد لما استدعي على عجل: تجبير الكسور وشد ساق عباسة بحديد السرير لكي تتوقف عن الحركة.

زوجة أبي امرأة طويلة، رفيعة، جذابة الوجه وذات شفافية وخفة. في ذلك اليوم المشهود أجهضت أول ذكر لأبي فغضب غضباً قاتلاً. كانت في التاسعة والعشرين وهو في أوائل الأربعين. وريحانة الأخت الصغرى، دخلت في تلك الأثناء كأحد أوهام الوالد لإغاظة عباسة فتركت لها الباب موارباً. ريحانة لم تحجب جمالها ببرقع ولا وضعته بأكمله أمام الوالد الطائش. يأخذ مكانه في الصالون وأمامه كأس العرق. ساقاه مفتوحتان وريحانة تمشي أمامه داخل الحوش بفساتين لماعة ومزهرة وجسمها مغوي وحر. والوالد يبتل ويتخدر حين تمشي بقدمين حافيتين أمامه. فيشتهي لو تنقط الماء في جوفه من ينبوع سن العشرين. ريحانة تجيد القراءة والكتابة، وشبان ورجال السماوة مصابون بها حين تذهب إلى محل أبي في السوق الكبير وعباءة الحرير تزيد فورتها هياجاً. لكن لا يهم، عباسة تقدر ثانية على اختراع امرأة زلقة، براقة وحتى صغيرة، حين تبرأ من الكسور. والسيد الوالد يتربص بالأختين معاً. عباسة عرفت ذلك مبكراً من اهتزاز ساقيه وهو يحدق بريحانة، كان يتلألأ، وجميع ما يتعلق باقتراف الفاحشة لم تخطر بباله. فأمام طاولة الخمرة كان يشتم الزواج في الأصل. إذن لماذا لا يقتسم الثلاثة بعضهم بعضاً؟ بلا عداوة أو بغضاء.

لم تزعل عباسة، كثيراً ولا قليلاً. تصورت أنه يمزح، أو ربما يكذب.

في ذلك الصباح الجميل اعتقدت عباسة أن أبي يريد خادمة شابة ترعى طعام البنات الصغيرات وميقات سهراته الليلية. بلى، ريحانة حلوة، أحلى منها بكثير وصغيرة أيضاً. هزت رأسها وهي قبالتها تروح وتجيء ولم تضف.

فكرت بنوعة، وعباسة، كرجية، فريدة وريحانة. كان قبول الجسد أمام أبي مشرعاً هكذا، يكلف شجاعة قاتلة. فالمادة الخام تكهرب أبي أول ما يمد يده إلى أحد أوتارها في جسم أي واحدة منهن.

ريحانة كالثريا وبها أبهة وهي تخلد في حضن أبي. يمامة بللها الندى والضوء ونشيد الراعي المزدحم بالنغمات. شديدة الانتباه والإصغاء والنظام كانت. لحمها مشغول كله حتى يطابق هوى الوالد. حين تدخل حمامها اليومي تنقع اللحم الفياض بزيت الجوز الذي يستورده لها من التجار الهنود فيطير عقله عندما يمد اليد واللسان والفم وهي تتمطى وتتعرى في الركن الفسيح، واقفة بطولها الذي لوحته الزيوت، الأغذية، الزبدة البلدية والأسماك النهرية. يستعجلها لكنها لا تهتم. تفك ضفائرها وتدفع بشعرها إلى وراء. تمسح البخار عن المرآة لترى وترى وتواصل الابتسام. تطلي الوجه والرقبة والزنود وترش عليها ماء الورد. وجهها يتغير، يقطر الدم من الخدود:

ـ وجهك يطلع منه ضوء. تطلع منه أنفاسي. لا تصدقين؟ تعالي شوفي وجهك بعيوني.

تضحك، وأبي لا يحب المساحيق والأصباغ، الكحل فقط وهو يشرط الجفن الأسفل فيردد بين الصحو والسكر:

ـ هذا خط الجرف وعيونك الساحل.

يريدها متعافية. يحب قبل جمال الزوجات عافيتهن، يريد منا جميعاً ذلك، فيحتمل هرج وصخب عباسة عندما كان يدخل عليها ليلاً:

ـ خليني أشوف حيلي وتعبي وفلوسي. خليني أشوف اللحم والهبر، الثريد والدجاج، واشم ريحة الشوي والزفر والمرق والشحم المحروق واني أبوسك وأشمك.

وحدي أسمع صوته وهو يفرط في الكلام الفاحش ويواصل:

ـ أحب ضحكتك. يا الله اضحكي وخليني أشوف أسنانك الذهب. كلما أحبك أحبك أزيد. اي كلما أحبك أحس بالجوع فآكل أكثر.

ولريحانة كان يحضر طاولة الطعام القصيرة الأرجل. يرد الخبز الطالع من التنور للتو ويبدأ رافعاً كم دشداشته إلى أعلى. كان الطعام أحد رموز السلطة، سلطته، فيلاحقه، يطيعه وهو يفصص اللحم بالتساوي على الجميع، فأشعر أن قلب أبي سيتوقف عن الخفقان، عيناه تصابان بالعمى عن أمرين: الأكل واللذة. فيبدأ يغلط في الحساب وهو يرفع كأسه إلى أعلى، أعلى. ينادي على صديقه الذي رحل، جميل المعروف، مردداً بصوت أسي:

ـ ياالله أبو عادل كعب أبيض.

كانت عيناه تغيمان بالدموع الشفيفة، لكن سرعان ما يهمهم وهو يضرب مؤخرة ريحانة:

ـ اللعنة عليك وعلى النسوان جميعاً.

هكذا قسم أبي المرأتين، عباسة عافها بعد الطلاق لخلفة البنات والصراعات الذكية، وريحانة لخلفة الذكور والتلذذ الذي لا يوصف. لكن ما حدث كان فوق التصور. فبعد عام ونصف ترجل الوالد عن حضن ريحانة، لما أخبرته الدكتورة عفيفة، رئيسة القسم النسائي في المستشفى الجمهوري في السماوة، أن ريحانة كيت وكذا... حسناً، أجابت عباسة انها إرادة الخالق. ففي آخر المطاف حل التعب، التعب من السرور واللذة. وبين طلاق وعودة وبالعكس، كان أبي يستحق أن يكون فرجة للعين وهو يضع ريحانة في خانة التعطيل، وعباسة واصلت وضع الخرزة

الزرقاء في زنجبيل ذهبي طويل وتركتها تتدلى على صدرها حتى نالت المراد. فنسمع الهلاهل تصدح والأصوات تتعالى، والوالد يدبك في الخان الكبير. رقص وغنى، عاط وناح، وبكى أيضاً. حول دم الحيوانات إلى سيول ووزعها على المحتاجين وأبناء السبيل، رجال الأمن والشرطة، المخابرات وأعضاء الأحزاب المتخفين. سكر مع عامة الناس وختم على بطن عباسة بالشمع والبخور، الذهب والماس، قال لها بصوت عال:

ـ أنت أم البنين والبنات.

التصق بها كما الوشم باليد. قال نسميه فؤاداً. يا فؤاد السلام والرجولة، يا فؤاد الدنيا والآخرة. قال سيكون فؤادي الأبيض النظيف، يا فؤادي الطاهر. عجباً، ظل يردد عجباً وينادي على والد هدى بصوت دام:

ـ وينك أخوي أبو عادل؟ تعال شوفني، هسه الدنيا بدأت تحلى.

كيف تحلى؟ بالاستسلام للضحك وحده. وأنا أضحك بصوت مسموع والطبيب النسائي يخبرني انني حامل. ألملم ثيابي وخالتي جالسة في العيادة والساعة تشير إلى السابعة مساء. إذن، ما عليّ إلا الإذعان وبدون شروط. لم تكن تلك ساعات مأساوية. ولا كانت حالتي ميؤوساً منها. على العكس، كنت فتاة ستحصل على زوج متواضع، وسوف تمضي إلى الاحتياطي الوحيد الذي بقي سالماً حتى تلك اللحظة، ومن غيره سيرد العدوان ويستعجل بتضميد آثار الجروح: شاكر. كيف لا أحتمي بمنطق الضحك والمتطرف أيضاً؟

كل الطريق من العيادة والطبيب النسائي يكتب في مفكرته الاسم وباقي التفاصيل وهو ينظر إلى يدي ووجهي بتشنج وبلاهة وأنا أقهقه. من المؤكد أنني لا أبدو زوجة رزينة بانتظار طفل إنساني. ولم أفكر بالتخلص منه حتى، من أين جاء هذا التأكيد؟ من الضحك والسياسة معاً. الأول سأبحث عن خرائطه حين أعود إلى الكتب والطاولة والتراجم، والسياسة

ما زالت تعرقل مرور الضحك في فمي، وأنا أشاهد وجه عبد الناصر الذي وافق أخيراً على اتفاق ١٧ نيسان من أجل «تقوية الحركة الناصرية في كل من سوريا والعراق»، لكن عبد الناصر لم يتجاذب أطراف الحديث مع الحاكمين الجدد في كلا البلدين. فقد بقي القائد متردداً في إقامة الوحدة وهو يردد في أثناء المفاوضات «لست مستعداً لأن أضع نفسي بين مطرقة بغداد وسندان دمشق». هو فقد الأمل. أما أنا فعلى العكس وأنا أسمع «أصوات إطلاق النار والدبابات والمدرعات التي تملأ الشوارع وإعلان الراديو عن إغلاق المطار ومنع التجول في أحد أيام الشهر الفلاني، من العام كذا وبعد تسلم السلطة. . و».

موضوعي أنا لم يدرج في جدول أعمال هؤلاء أو أولئك. خالتي وحدها رتبت الجداول والمواقع. شاكر، وليس شخصاً آخر، سيحضر وحسب القوانين المرعية. الوالد دخل في الصمت بعد عودتي ومرضي الذي كان يطول بلا سبب أو حجج معقولة. عاد إلى محله في السوق الكبير بعد الحملات التفتيشية على الحوش والعمل. لم يتملك الخوف أبي، بعدما تجاوزه فنبتت له أمور غاية في الطرافة: لحية كثة وشائبة وفي أعلى الفم غلظ شاربه جداً. هو أيضاً يريد أن يكون شخصاً آخر. لم يعترف أنه صار اصطناعياً، حتى وهو يبارك زواجي من شاكر بلا صخب ولا ضجة. لم يدع أي واحد من أصدقائه، على الخصوص والد بدر. كان الزواج مجرد أمر روتيني. خلال ثوان تم كل شيء. وأنا لم أعد إلى الصف الثاني في كلية الآداب. فيما بعد، بعد عام أو أكثر، قابلت الأستاذ زياد المرهون رئيس القسم في الكلية، على عجل ختم على شهادة الغياب بعلامة سرية لم أفطن إليها إلا فيما بعد. توقفت عن الترجمة والقراءة وسماع الموسيقى والنكاح والقرف. كنت أشغل مكاناً في داخلي ومن هناك كنت أواصل الضحك. صار الفعل «اضحكي» هو عضوي الجديد، هو الواقعية، والمثالية، الزوج والتاج.

كنت أشبه لعبة لا تتحرك إلا إذا ملئت أو لمست أو دفعت. إذا تغير الطقس ألبسوني الهندام الصيفي وإذا حل الشتاء أوقدوا المدافىء النفطية في غرفتي. وأنا أضحك وأسمن، أترهل ولا أتوهم أي شيء إلا الضحك، فأغري بالسرور غيري.

شاكر لم يقاربني قط. أرسلت فخرية في طلبه فحضر حالاً من بغداد. بلا معدات دخل غرفتي وأغلقوا الباب علينا. لم يكن متذمراً أو متأففاً. استمر على المشي أمامي وهو لا يرفع رأسه لي. لم يكن ميتاً، فكرت لو أبدأ أنا بالمداعبة، لكن وجهي كان مروعاً وأنا أضحك وأريد أن أجيب على أسئلته بإجابات عاقلة فيما إذا حاول ذلك، لكنه لم يفعل أي شيء.

* * *

ظل شاكر حنوناً، يقطر تلفاً وأنا وخالتي نتهيأ لنغادر إلى بغداد لإكمال الدراسة. الحقائب مفتوحة، الدواليب خاوية والكتب في الصناديق وهو يدور بين الموجودات جاحظ العينين. وقف أمامي:

ـ راح اسميك صبح. مو صبيحة ولا صبحبح. تدرين عيني شوفي.

اقترب جداً ووقف في مواجهتي لأول مرة:

ـ كل واحد يتعرف عليك يتشوه، يعمى لو يطرش لو يتصفى دمه. شوفي هسه ما أقدر المسك أخاف تعوج ايدي لو اتكهرب.

أتحرك أمامه وأدفعه قليلاً عن طريقي. أضحك بصوت غير مسموع لكن مظهري يزداد تعالياً وهو يندس أكثر وراء ظهري:

ـ زين، بس تعالي اسمعي دقات نبضي ها عيني؟.

ينحني حتى يقارب شعري ورقبتي. أنفاسه تغلي. أدفره على صدره بضربة خفيفة:

ـ كافي عاد، اي بس.

لا ألتفت إليه، لكن فجأة أسمع حركة هبوطه على الأرض ودوي بدنه

وهو يرتطم ما بين السرير والمكتبة. ممدداً، طويلاً ومضروباً في الوجه، شاحب البشرة ومطعوناً. دشداشته تحولت إلى حانة من العرق. لعاب أبيض ينسل ببطء من بين الشفتين.

كان أبي يقول عنه:

ـ شاكر شوية دماغه ثخين لكن فجأة يقول أشياء عجيبة وغير مفهومة. بس صبيحة تفهم عليه.

بدأ يتجعد ويتلوى، خلقته تغيرت. يداه اعوجتا، رجلاه أيضاً، وأنا أمسك نفسي عن السخرية والضحك في بادىء الأمر. لكن ما إن اقتربت حتى عرفت انه في الرمق الأخير. بدأت أمسد الرأس نازلة إلى الجبين، فبدأ يرتعد ويدمدم. واللعاب الأبيض يتكوم، ما إن يسيل حتى يتكثف، وهو يهتز وأنا أمسك به من الكتفين. أهزه وأبدأ باحتضانه. أضغط على بدنه فينتفض أكثر. لسانه محشور بين الأسنان، ويبدأ بإطلاق أصوات غريبة. اخشوشن الصوت، تحيون وهو يبربر. صوتي تعالى بدلاً عنه وجميع أفراد العائلة وقفوا فوق رأسه. رفعناه إلى السرير، مددناه، ولثانية خمد كل شيء فيه تماماً، بدا كجثة.

لم يغلط، لا في الكلام ولا في الأسماء. مستلقياً على ظهره كأن الأمواج قذفت به من الشاطىء وكل شيء استقر في مكانه. هل حان الوقت؟ وكل ما حصل ليس سوى تمويه. هو أكبر مني قليلاً أو أصغر. لم أعد أدري أو أهتم، ويدي تمس عرقه الدافىء. أول مرة أشاهد رجلاً يقتل نفسه بنفسه وبدون آلة حادة. فيما بعد، بعد ساعة، بدأت أنفاسه تتصاعد ثانية، لكن لم يكن بمقدوره فتح جفنيه. صوت أبي الخفيض:

«اللهم لا اعتراض على حكمك».

خالتي تتعوذ من الشيطان. تقرأ الآيات القرآنية وتنفخها على الوجه والبدن وتدفن رأسها في صدره. بدا لي، ولثانية، حراً بطريقة مروعة. النوبة جعلت منه رجلاً وحيداً بصورة تامة، وما كنت أشاهده وهو مستلق

أمامي، كأنه تخفف من جميع العلل والعاهات والمكروبات. لم ألتفت لأحد وأنا أحاول دفعهم عنه:

ـ وحدي سأبقى معه.

لم يعد ابن الخالة المغروم، المتطير، والموهوم. فقط كنت أريد ألا تتكرر النوبة ثانية. صار شفافاً وكبيراً، كبر على دشداشته وسريري وأنا أصب الماء بيدي وأمسح الوجه والجبين. أدخلوا صينية من المشروبات الساخنة والباردة. ثلجاً، لبناً، حليباً ومناشف.

أول من أمس قال لي وأنا عائدة من سوق السماوة الكبير، وكان يقف في حلق الغرفة وبيده صرة كبيرة من القماش الثمين:

ـ شوفي هاي دشداشة العرس. أمي خيطتها. ها شوفي، وهذه عباءة الوبر الجديدة أم خيوط الذهب. صبح، بعرسنا سألبس كل هذا وأخلي بحزامي خنجري الفضة ويزفوني عليك. ولا أقول أحبك. ما أعرف شلون أحبك. شنو الحب غير هذا المرض والخبال والهلاك. ترى اني كل يوم أسولف معك وأنت غائبة عني، أسولف وأنت ما تردين عليّ، وأبدأ أدبك وأرقص وحدي، أغني بصوت مذبوح وكلما أرقص أصير مخبل أكثر. ويعدين أشيلك على رأسي وأصيح بفاطر السماوات، يا إلهي أحرسها لي وحدي. إني حارسها الأمين. وأنت فوق رأسي تضحكين وترفرفين مثل البيرق، وتطفر الدموع من عيوني، وأشوفك تبكين، الله يا صبح، أول مرة أشوف دموعك وهي تجري على خديك وتنزل على خدي وهدومي وتقولين: اسمع شكوري نزلني هنا أريد أحضنك. وصدق تحضنيني من صدري. تبوسيني. تبوسين شواربي ووجهي. شلون صار هذا؟ شلون يصير كل هذا؟ ما أدري صبح. ما أعرف. انت اللي بدأت تدربيني شلون أبوسك وأشمك، لكني آني ما أقدر. ما أعرف شلون يبوس رجل امرأته؟ شلون يحب الرجال النسوان؟ شنو الحب صبح؟ هم ما أعرف. وأنت تسوين بي كل ما تشتهين، وآني أقبل.. اي آني خادمك. ما أريد أكثر

ولا أقل. ما أحتمل ولا أحتاج. أقبل الإهمال والموت والمرض. أقبل أضيع وما أرجع. أمي تقول لما تتزوج صبح، لما ولما، وهي ما تعرف الزواج ما يكفي، والنوم معك ما يكفي. آخ لو كان غير الزواج والموت وهذا النبض اللي يمشي بي وأنت بعيدة وأنت قريبة، واني وأمي نجمع لك الهدايا والقماشات الغالية، الشراشف المطرزة ومثاقيل الذهب، الشذر والياقوت. وخالتك تقول، لما، ولما تقبل صبوحة، لما توافق، اي، لما تموت صبوحة. اي لو تموتين صبح حتى اخلص. لو تموتين البارحة قبل اليوم. اليوم أحسن من باكر. لو يموت بدر، والله اني ما أغار منه ولا أكرهه، شلون أغار من ميت. هو هم ميت بك مثلي، لما أشوفه وهو راجع من الشط مخطوف وخلصان، لكن انت لما ترجعين من هناك تصيرين أحلى. آخ وهسه شلون؟ تصيرين أحلى من الروح. أحلى من النسوان والرجال كلهم. كل ما تبقين بالليل وحدك وتكتبين مكاتيب أتخبل وأموت مئة مرة. أدخل غرفتك وأنت بالحمام، أقرأ، ولا أفهم ولا أفرح. مرة واحدة فرحت لما قرأت «لو يموت بدر» فرحت شوية. أنت هم تريدين مثلي موت بدر. لو تموتين صبح يمكن بالموت تصيرين ملكي وحدي وما أخاف مثل هسه. كل ما تمشين مفرعة بالسماوة أموت وأخاف. يمكن احنا بالدنيا نخاف أكثر من الموت ويمكن هذا هو اللي يسمونه الحب. ها عيني. موتي انت مرة واحدة وأبقى اني وراك حتى أموت كل دقيقة. عيني صبح بدر مو حلو مثلي، اي والله. يعني شنو الجمال. قسمه الله وأخذه منا حتى يحطه عليك وحدك. زين وهسه شلون بحالي وعمري وانت راح تسافرين لبغداد؟ تدرين مرات أمي تقول، شكوري لو تموت اعرف هسه مكانك وين ويعد ما أخاف مثل الأول. صبح لو، لو تموتين قبل ما تسافرين.

تترقرق الدموع وتسيل من عيون شاكر. يفتح الباب ويغادر إلى الصالون. يجلس بجوار أبي. يحضر قدحاً له. أول مرة يشربان سوياً.

رأسه منكس إلى الأرض. يتقبل نصيحة الوالدة بالسكوت والابتعاد. ساخنة وأرتعد، ورائحة نحيب مكتوم أشمها في جنبات الحوش. هل نام الجميع؟ محمومة وأهذي. عيناي داميتان وخداي ملتهبان. أيار دافىء وشديد التهذيب وأنا أتداعى. شاكر كان جميلاً. ويدر كلما أبوسه وأعضه من الشفتين كان يتحمل الآلام ولا يبتسم. لكن ساعة يبتسم كنت على يقين اننا سنختفي عن أنفسنا. سينقرض دون أن يعوضه أحد. أنظر حولي والعتمة تزداد وخيالي لا يعجبني، انه لا يذهب بعيداً، إلى الأقصى.

- ٩ -

الفرجة

حبلى، من أية جهة أبصر حالي. فأرفع ثوبي إلى أعلى وأواصل الفرجة. هذا هو الجانب الشيق في شكلي الذي كان يتخطاني باستمرار فأبدو شخصية مستعارة وأنا أمد يدي من تحت الصدر، مروراً بالخاصرة وإلى ما تحت، صاعدة في ملامسة عنيفة إلى وسط البطن.

لم تكن تعنيني جميع تلك النعوت: البراءة، البرعم الصغير إلخ، فكل اللطف اللغوي كان يسبب حرجاً شديداً لي. كنت أريد فقط التجرؤ على النظر إلى نفسي ثانية وبدون توقعات باعثة على التناة.

أستلقي على السرير وأنصت إلى لهاثي أثناء الليل، فأعود للجلوس ثانية وأنا أغالب الوهن والتعب والسكوت الطويل الذي تحول إلى إحدى علاماتي العلنية.

لم أكن جائعة لهذا الطفل، وهو ليس طفلي تماماً لكنه طفلي على كل حال. كنت على أتم الاستعداد للذهاب إلى طمره ودفنه بكل ما كان يقع تحتي وفوقي ودفعه للخارج أو قتله في الداخل. لكنه اتخذ لنفسه شكلاً خاصاً به واندفع برمته في داخلي. كان حراً أكثر مني، أن يكون هو، فيسحبني إليه، وليس العكس. ألحق به، ولا يفارقني، فلا أفارق الدنيا. هكذا كانت تتكاثر المخلوقات التي كنت لا أطيقها من حولي: هو وأنا، مجدداً صرنا كثرة ولا نعرف إلى أين سنذهب. فلا الموت يحف بنا لتتركه يصيبنا، ولا الحياة كانت بجوارنا لتجلسنا في قلبها وتنشد لنا الترتيلة

إياها: الوالدة والابن، الصوت والنوطة. تركته هناك وأنا ألقي عليه تحية الفرجة، منكفئة على حفظ الثمن: لقد اشتراني رماداً فحضرت له ثياب الحداد على مهل، وأنا ألقي النظرة بعد الأخرى على نفسي ولا أعير التفاتاً للداخلين والخارجين من وإلى غرفتي. جميعهم يحضرون، أفراد العائلة الاستثناء الوحيد: غياب شاكر. فخرية تحولت وبالتدريج إلى مهنتها الوحيدة. تتنقل بين الغرف وبيدها تسقيني الحليب الدسم وتكشف ثانية على البطن الذي تضاعف انتفاخاً، بنظرات فاحصة، ومجربة. لا تسأل أية أسئلة بلا معنى، ولا تتوقع مني إلا هزة من الرأس وابتسامة سرعان ما تتكور وتأخذ شكل ضحكة. الضحك، كان آخر الأجوبة طوال الأيام والأسابيع والشهور فسكت الجميع عني، أو تقبل صمتي وهو يجهل الطريقة التي توصلت بها إلى إلغاء الكلام.

كنت ألتقي بالفرجة وأريد تحويلها إلى نزهة من النسك الذي يدمر في طريقه هفوات اللسان فيما لو أفلتت عرضاً.

الغريب أن الفرجة التي كانت تحت تصرفي، والضحك الذي انصاع لي في الأخير كان يرشو الآخرين، الزوار والضيوف، بالتوقف أمامي وتصدير الحديث إليّ والمحاورة ثانية، فكان لازماً عليّ تعويض ذلك بتجربة ابتسامة قائمة على القرف والرفض، وأكثر الأحيان التقزز. هذا ما حصل فعلاً لما حضرن: نجاة وساهرة وتودد، زميلات الدراسة الإعدادية وصديقات التواطؤ بيني وبدر. لكني لم أقو على استقبالهن. هن أيضاً كن مغرومات، كل على طريقتها. فالحب في السماوة لا تحمله صناديق البريد إلا نادراً ولا يبتدع حيلة للوصال. في أول المطاف يسلب اللب وفي آخره. حب صريح، فج، حر ويترك على السجية. المحبوب موجود حتى إذا حجب النوم يوماً، يومين، شهراً، فلن يدوم لفترة طويلة حتى ننتهي لحب ثان ونعقبه بآخر. نتقبل النزوات ويتقبلون المغامرات، الشبان والشابات. لا نحمل مناديل للدموع السخية في الظهيرة الساخنة، فالغرام

الليلي، لا ننتظر قدومه، كما يشاع في الربيع فقط. في الصيف كان طنيننا يتضاعف، وفي الخريف صريرنا يتعالى. الحب في السماوة كان يهز الأذرع والسيقان. فتتساقط الأشواق وتضرب الآذان بصوت عال وهي تنقل لقاحها فيما بيننا، فنزهر مثل ثمار المزارع في الأشجار العالية. من هنا كانت تصمد المدينة وتبدو «اللناظر جميلة بفضل الكورنيش الذي تمتد عليه في خط واحد بيوت تتألف من طابقين، مبنية بالآجر وتقسمها إلى أحياء منفصلة عدة شوارع عريضة ومستقيمة. إن هذه الواجهة الجميلة تبدو كما لو أنها ديكور يخفي وراءه السماوة الحقيقية بأبنيتها الطينية وصرائفها وبساتينها وحقولها المحروثة» حتى لو كان آخر طرف من السماوة ما هو إلا عبارة عن صحراء تنتهي بسجن «نقرة السلمان» توارى خلفه يوماً بدر، وغيره، وغيره. لكن بقيت المدينة تنصت لأصوات المحبوبين والمحبوبات في كتمان ومهابة. تطبخنا على مهل واللهب يتصاعد من أسفل إلى أعلى فنتحول إلى جمرات جديدة. كما حدث لما أغرمت نجاة بمعلم اللغة العربية الأستاذ هادي. وضعت ساقاً فوق ساق، جلست على الكرسي المخصص له أمام الصف، لما دخل بغتة، قالت له بصوت واثق:

ـ اي أحبك، أحبك. راح أزورك في الليل وأحط على سياج الحوش. انتظرني بعد الواحدة ليلاً. سوف أصفر لك لكي تنزل إليّ.

تودد أغرمت بالسيد «ايشو» الأرمني، الموظف في مصلحة السكك الحديد. في حديقة دارها الخلفية وعلى العشب الرطب وبين أشجار الرمان تدفع به وهي تعيط:

ـ لا تقول اني أرمني وأنتي مسلمة. . . خلينا سوية قبل ما تسافر إلى أميركا.

وحدنا نزداد جنوناً فنتحول إلى أميرات ألوهيات مثقلات بقدرات عجيبة تتربص بنا أناشيد الغرام علانية. فتتعالى أصواتنا بالضحك العالي، نحن

الأربع ونقتات على الشمس والطمي والتمر ونعرف أمراً واحداً لا غير: ان بمقدورنا أن نأكل اللحم النيئ حتى، أما الزواج فما هو إلا وظيفة تبدد الأعياد. وها هن في غرفة الصالون، صديقات تلك الممتلكات التي خلفتها ورائي سيرددن؛ صبيحة رسبت في أول الجولة لكنها في الأخير عثرت على مهنة برمة.

لكن الحبل ليس قصة شخصية. إنه اقتسام الصيد بين البهيمة والمروِّض. هكذا كانت حالتي وأنا أرفض استقبال الصديقات. لم يماطلن أو يتذمرن كما فعلت هدى. كان صوتها مكتظاً بكل الماضي. لكنه صوت ناجز وحاضر، يفرض برهانه ويحاصرني من جميع الجهات. يصعب عليّ الآن تدبير أوصاف معقولة لتلك الطريقة التي دخلت بها عليّ. كان صوتها ينطحني بالضبط، فأخطىء أكثر من السابق وأنا أبتعد برأسي وأعضائي عنه لكي لا أصل إلى الرمق الأخير. فحضور أي مخلوق، طاهر أو سفيه ومهما كانت صلته بي حميمة كانت تفتح أمامي منافذ الخطر والتهديد. وإذن، المطلوب كان الانقلاب رأساً على عقب. وقفت أمامي وبجوارها جميع أفراد أسرتي بانتظار القول الفصل. كان ذلك آخر شهر آب. بيدها حقيبة صغيرة ووجهها نيراني وهي تتصبب عرقاً. رمت الحقيبة على الأرض ووصلتني بأكملها كالزوبعة التي تريد اقتلاعي، بين البكاء والقبل، اللثم والعناق والكلام الذي يخطىء وهو يطلع كالطلقات. بوغتت بعد ثانية بانتفاخ بطني، وعلى افتراض أنها فهمت أو تفهمت، فلم تسأل في بادىء الأمر، لكن حركتها توقفت حالاً. تصلبت وهي تبتعد عني. بدأت تجفف خديها وعينيها بكفها وكمّ قميصها إياه، ذاك الذي أحبه، أحببته يوماً.

فخرية كانت أشدنا حيطة:

ـ يمه هداوي ستبقى الليلة عندنا.

أكثر مما ينبغي هذا الذي عليّ احتماله. تنود برأسها، هدى، لكنها

تختض أمامنا جميعاً. فخرية تكش الأولاد من حولنا. ملكة تضحك في عبها وتركض من أمامنا لتعود حاملة صينية عليها أقداح من اللبن الرائب المثلج. تنظر موارية وتبتسم. أمام الباب وقفت:

ـ أسد الباب لو . . . ؟.

لا أحد يرد، فتركتها موارية.

هل حضرت لوحدها، أم أن فخرية اتصلت بها لكي يتم إنقاذي؟ على الأقل أثبت لنفسي ولمن حولي أنني من فصيلة تستجيب للتغيرات الفجائية كهذه. والآن ماذا سنروي لبعضنا البعض؟ من أين نبدأ؟ وأي المواضيع سنستسلم لها أولاً؟ منذ دهر لم أجد لها موطىء قدم في الروح هذه الهدى. وها هي قدامي الآن وما عليّ إلا إعادة التمارين الملائكية البلهاء لكي أدفعها لمجرد الابتسام. تحركت، سحبت الكرسي من وراء الطاولة، دفعت به كثيراً لكي يكون اقترابها مني تاماً. جلست بعدما خلعت صندلها الأبيض الذي تشقق كعبه الواطىء.

ـ إذا كان الكلام يضايقك سأحشو لساني بالقش وأسكت.

قالت ذلك وهي تنظر داخل حجرها. مددت ساقيها على طرف السرير وصار وضعها مريحاً أكثر من السابق. أنا عدلت قامتي، أسندت ظهري ورتبت المخاديد ورائي. غرفتي باردة، في أعلى الشباك مبردة كهربائية ومروحة سقفية يهدر صوتها فنزداد توتراً. الكلام موجود لكنه لا ينتمي إليّ، كأنني نسيته بين اللسان والمريء، وما هذا الذي يتحرك بين فمي إلا مبصقة.

ـ لماذا لا تتحممين؟ افتحي الخزانة، خذي المناشف. هيا سترتاحين وأنا أيضاً.

طريقتها في السكوت والإصغاء وتلبية النداء استفزتني وأزعجتني. قامت وفعلت ما طلبت. وضعت قدميها في نعلي. كان كبيراً. وأنا أشاهد بصمتها الحافية على الكاشي، كانت بصمتين لحيوان خال من الهموم.

فتحت حقيبتها، أخرجت منامتها المنزلية وطلعت.

بعد يومين من تعارفنا في ثانوية الأعظمية المسائية للبنات والسيدة أمال حسني مديرة المدرسة تحملق فيها. وهدى نفورة كأنها حضرت من غابة. أجابت وهي ترد على سؤال السيدة:

ـ اي، وماذا يعني؟ أستطيع الدوام ليلاً. لم لا؟ صحيح أنني لم أرسب لعامين متتاليين ليتم قبولي لكني سأفعل هذا قريباً.

ضحكت هدى بشماتة من روحها، والمديرة ضحكت بصوت رنان وبدنها النحيل يتمايل أمامنا وهي تقف وسطنا تريد تهدئتها: كانت صديقة العمة فريدة، عمتها. فغيرت الموضوع رأساً. طلبت الصور، الطابع، ورقة المختار، شهادة الجنسية وقالت لها:

ـ عال، وقعي هنا.

كان توقيع هدى مضحكاً وعصبياً:

ـ ها ارتحت الآن؟ نحن هنا نقبل بعض الحالات الطارئة، اللواتي يعملن صباحاً أو الراسبات لأسباب شتى ويحاولن النجاح ثانية. أو اللواتي لهن أسباب قاهرة. يعني عملت هذا من أجل خاطر العمة العزيزة.

ـ يعني تريدين أن تقولي انك خرقت القانون العام من أجلي؟ والله عال. من يستحق ذلك العمة أم أنا؟

ـ لا أنت ولا هي تماماً. لكن من حقي في بعض الأحيان عمل ذلك. أنا التي أملك بعض الصلاحيات في تقدير الحالة.

ـ وحالتي ميئوس منها كما ترين؟.

تدخلت أنا، أول مرة يطلع صوتي، كنت أقف قريبة منهما لكني لا أعرفها تماماً.

ـ سيأتي اليأس فلم العجلة؟.

في تلك اللحظة التفت هدى إليّ ورأتني. ابتسمت وانحل غضب

السحنة المتوترة. كان الغضب يجعلها كريهة، كالحة وبشعة، لكنه أيضاً يراكم السلطة والعنف في قسماتها. منذ ذلك المساء تيقنت من أمر ارتبط بها ولم يتنقل إليّ: إنها من الذين بمقدورهم قتل أنفسهم، هكذا بيسر وبلا ادعاء، لمجرد أن أحدهم داس لها على طرف الروح. بدت لي آنسة يرثى لها، صغيرة، عنيفة ونحيلة جداً. وأمامها صبيحة، تلك التي أطلقت عليها «أم أربعة وأربعين» الواقفة في منتصف الطريق بين السماوة وبغداد، بين بدر وبدر، والآنسات والشبان وهلم جراً.

هل هذا هو المعقول الآن؟ في أوائل الستينيات تم التعارف. نجحت أنا ورسبت هي بسبب واقعة السيد جميل. فطنت للتو أن الموت جعلها لطيفة في عيني، بعدما ابتعدت عن الجميع وكدت أفقد أثرها، فحشوت فمي بخصلات شعري لكي لا أطلق صوتي بحثاً عنها، حتى شاهدتها واقفة بثبات منقطع النظير تحدق من أعلى الشباك وهم يغسلون والدها في الممشى الفسيح. تخيلت أن والدها خفف الغلواء ضدها وتصدق عليها بنظرة واحدة وما شابه ذلك. نظرة لها طعم النبل. بدا لي أنه رجل يعرف الأصول. تعلم ذلك على الأغلب من الحاجة وفيقة. لكن عليّ الاعتراف فعلاً أن شكله في تلك الظهيرة كان مسالماً إلى حدود إتقان الموت. ففي عموم الميتات التي حضرتها بين أفراد العائلة والأقارب، كان السيد جميل يلمع، كان الأكثر لمعاناً من جميع الأحياء. اليائسون وحدهم يفعلون ذلك وبرضى شديد. معظم الموتى يكتفون بحد هزيل وتافه من الموت. يتوارون من أمامنا ولا يقصون علينا كيت وكذا. السيد جميل كان شبه حي. شاهدته أمامي ينتقل بالحافلة أو سيارة الحكومة. يرتدي ثيابه الرسمية وشارة مأمور الشرطة على كتفه في أول التعارف في منتصف الخمسينيات. ولما يدخلان في السكر هو وأبي، كان يندب حظه العاثر ويبدأ بالانتحاب:

ـ والله آني مظلوم يا أخي. أنت وهذا العرق خليلي.

ثم يبدأ بالسباب البذيء على الوصي ونوري السعيد والإنكليز. يتأوه ويتحرك كثيراً في مجلسه. تتنمل أعضاؤه ويسرع نبض قلبه فيضع والدي قطعاً من الثلج فوق رأسه وصدره. كان يشعر بالحرارة الشديدة جداً حتى ونحن في كانون. فيوصينا أبي بتحضير قوالب الثلج حين نعرف أنه قادم في مأمورية. وهو يكاد يترنح من وصال الخمرة، فهي الوحيدة التي تفك لسانه وروحه. لم أصدق انه كان يريد التخدير أو النسيان، ربما تصور الجميع ذلك وهو غير صحيح، كان يريد خلق الدنيا ثانية، وهو يتضاعف وسامة وتلفاً. وبين امرأته الجميلة في كربلاء، والزوجة الرابعة، اليافعة، ابنة الحسب والنسب، كان دمه يتصفى حين يعود إليها في بغداد.

ـ النسوان قتلن والدك يا هدى، لا السكر ولا القلب الساكت، فتراكمت فحولته بعدد الذكور الذين أنجبهم، كأنه يريد الثأر منك.

قلت لها ذلك فيما بعد وبتفاصيل أدق من هذه التي كنت أكتبها يومياً فأغلط كثيراً. ورأسها على الوسادة بجواري، لحمها حار ورائحتها بها صوت الصابون أبو الهيل وهي ثملة كوالدها. عال، والآن ماذا سأفعل بها؟ متعبة أنا وهي ضيفة زئبقية. أخيراً توظفت هي وقبل التخرج من الثانوية وأنا تقاعدت. عاملة هي تجاوز دخلها كل رزقي السابق. والسيد جميل تواري وأنا صرت صفراء وهي بدأت المسيرة من الميل الأول.

لما عادت من الحمام قالت بهدوء غريب لم يلائمها يوماً:

ـ اشتغلت أنا وعادل في مديرية السكك في بغداد. أني الآن مغرومة بالسيد المدير. الأستاذ مصعب عبد اللطيف. حضر من أجل حملة تفتيش لمحطات الجنوب. أنا جئت حتى السماوة وعادل أكمل معه إلى البصرة. غداً صباحاً سنعود إلى بغداد.

كانت تجفف شعرها الطويل الناعم بمنشفة وتواصل:

ـ لا تكفي ليلة واحدة معك، لكن أحسن من العمى. مصعب متزوج وهو أكبر مني كثيراً ولديه حفنة أبناء. عجيب لا يبدو عليك أي شيء ها؟

زين أكمل لو اسكت؟.

أول مرة يحضر اسم السيد مصعب. غافلتني وكبرت دوني. أغرمت وتسللت ببطء بعيداً عني فلم يعد بمقدوري كالسابق ملاحقتها كما في تلك الليالي الأليمة. ازدادت لطافة وإيماناً وتقوت ذاتها. تقوت إلى حد أن صار لها هدف وافر يريد الانتشار من على سطح جلدها ويريد التهامي. بدون اتفاق تواصل. لم تكن تفضح أو تبوح أو تعترف، كانت تمزج كل هذا وسوياً ولا تحاول لفت انتباهي. تستنشق اسم مصعب فتزداد صحة وتغدو حركاتها شديدة الرشاقة.

لونها الشمعي الجاف انتعش وتوهج. لحمها ينحسر عن ثيابها ويريد بعثرة تلك الطلاقة الأولى التي استحالت إلى رباطة جأش. وهي لا تكف عن الشهيق والزفير وبصوت مسموع. كان شكل ذلك الرجل، واسمه، وفكره، وذكاؤه، يتطاير بيننا كثمرة شديدة الحلاوة والدمار معاً. كانت تتقبله كما هو وبلا حذر أو فزع، وبشيء من الخطر. هذا النعت الأخير كانت تفضله وهي تردد:

ـ الخطر يضاعف احتمالنا للدنيا، وهو الذي يجعلنا نعرف ماذا سيحدث لنا وفيما بعد.

بغتة قامت بحركة سريعة، التفت ووقفت قبالتي وجهاً لوجه:

ـ وين بدر؟ معقول تتزوجين رجلاً لا تحملين له إلا السخرية؟ ليس في علمي أن شاكراً تغير إلى حد أن يصير بديلاً لبدر. اسمعي صبيحة، الجامعة سوف تطردك لأنك تجاوزت الحد الأقصى للغيابات، فاقترح مصعب أن تداومي السنة الجاية في فرع آخر. سوف يدبر الأمر لك. هجران أيضاً عافت الكلية مثلك لكن بسبب رامي. حالتها تصعب على الكافر.

يغص صوتها بالدمع الذي ما أن يترقرق حتى يسيل على الخدود، فتواصل:

ـ رامي خطب آنسة كردية. تصوري قال لمصعب أن سبب القطيعة هو تقلب حالتها النفسية والصحية. خلود حبيبة عادل خطبت لرجل في سن والدها. ثري وأرمل، سوف يأخذها ويغادران إلى بريطانيا. عادل تقلص حجمه وصار أسود. من الصعب أن يرفع رأسه إلى أعلى ولا حتى أمام المرآة. قرر أن يهاجر إلى كندا أو أميركا. قال سأذهب إلى الأسكيمو. الثلج يداويني منكم كلكم. إني دفعته إلى هذه الرحلة قبل أن يعاود الانتحار ثانية. حاول ذلك مرة في الدائرة، وأنقذه مصعب وصارت فضيحة. مصعب يقول يسموننا في الحزب بالوجوديين أنا وعادل. صبوحة، مصعب يقول انه فتحت تحقيقات بما حدث في النادي الأولمبي. تدخل هو وغيره لإنقاذ الكثيرات. تتذكرين الشاعرة عفراء؟ أنقذت في آخر رمق. لكن الدكتورة أنيسة. . . .

سكتت واغتم صوتها. عرفت وسكت. أدرت وجهي إلى الجهة الأخرى ولم تعد تبصرني. ابتعدت قليلاً وبدأت تتمشى في الغرفة. فتحت الباب وجاء صوت الموج، رائحة الطعام الذي يهب من المطبخ، صور مكبرة، أكبرها كما أشاء وأنا في سريري ممددة. وهدى تروح وتجيء. كما في ليلة واقعة والدها في الصليخ. بيدي صينية القهوة المرة، الدلال الصفراء اللماعة والفناجين، أدور وأسقي، وعباءة الحرير القصيرة فوق رأسي، أقصر من قامتي الطويلة أتباطأ، وأسرع كأنني أمام لجنة امتحانات صف البكالوريا. كانت ساعات مثيرة جداً، حين سمعت أصوات النسوة:

ـ من هذه الشابة؟

يكذبن، أولئك النسوة. يشبهن وجوه المهربين في الجبال الشاهقة وهن يتناقلن اسمي وينظرن إلى زوجة أبي عباسة. يحاولن تعكير مزاج الجدة وفيقة والعمة فريدة. لكني لم آبه. من سيرد في تلك المناسبات؟ التقط أنفاسهن المكبوتة داخل صدورهن الضيقة والعالية. أوشكت على

الابتسام ثانية من شدة البطالة والحيلة. وأنا في طريقي إلى المطبخ، كنت أمنّي النفس: ستنام الليلة سوياً. سأهرس لك الهيل في قدح الحليب الساخن وأضع قطرات من ماء الزهر في القناني المثلجة لأشم رحيقك. أتبعك وآخذك بعيداً عن هؤلاء. أضيعك في الطرقات وأبحث عنك في الجنينات، فأصيح عليك، بيدي الفوانيس، لكنهم يمسحون آثارك ولخمسة آلاف سنة قادمة، فلا تصلي، لا إلى هنا ولا تعودي إليّ. في الليل لن يأخذوك مني، ولن أحبك ليلاً أكثر من النهار. فليس للوقت أهمية فيما بيننا. سأقوم بتطبيق الكذب الذي حاولت إتقانه. أكذب ولا أقاسي الأمرين من جراء ذلك. أكذب انطلاقاً من الصدق الذي يجعلني أبدو متكلفة، ومنافقة، فأدلي بالشيء ونقيضه.

ـ يمه منو هذه الحَذْيثة؟

جيران أهلك كانوا يتساءلون عني، كما هم أفراد أسرتي يتسابقون للتعرف عليك. فنحن محل خلاف، أنت وأنا. الألقاب تتساقط على رأسي وبيتي وقامتي من الطلبة الجامعيين. في الجامعة يفسرون أنفتي انطلاقاً من أصلي الريفي وثراء والدي، وكأنهم حضروا من المدينة الفاضلة. الأساتذة بوسعهم انتخابي شخصية العام التي يقتدى بها. لا يمتدحونني لأنني أتمتع بالدهاء والمكر والحدس الذي نادراً ما يخطىء، وإنما لاجتهادي الشديد. أما الجمال، جمالي، فلا أحد بمقدوره أن يعرف إلى أين سيقودهم. كنت أحمل رزماً من روحي وجسمي، كل رزمة أضعها أمام طاولة أستاذ وأكبس عليه فيتخدر. طبعاً كنت أتعمد الصدق في بعض الأحيان بسبب سوء النوايا، أو من أجل طبيب الأسنان، أو محامي العائلة، فأشعر انني أصفع على خدي، وكرامتي تتدلى من هيئتي فأضع اللوم على نفسي على الفور.

وسط كل هذا أراك يا هدى، وسط العزاء والمعزيات اللواتي كانت أصواتهن تشق الأبواب والسماوات وهن يتحسرن، يتأوهن أمام ملامح

البنت الجوعانة أنت، اليتيمة، والكسلانة. فلا شاغل لهن إلا نفث السم في مجرى الدم، دمك ودمي.

ـ من هذه الشابة؟

قولي لهن يا هدى. لمحت تلك النظرة في عيني، لكنك أشحت بوجهك عني. ألم يكن من الأفضل أن تقولي؟ من أجلك وحدك.

إذن اتركي لهن بعض أدوات الحرب، فالسلام كالصدق، ضعيف البنية. قولي لهن نحن لسنا صديقات طفولة، ولا بيننا حمولة الزاد والملح، ولا كنا طالبات في صف واحد. نعم في مدرسة واحدة، وماذا يعني هذا؟ فالمدرسة المسائية كانت مثل صندوق العجائب، كل شيء فيها مزور، زائف، لكن ما علينا إلا المرور وسط ذلك لكي تستقيم الأمور ثانية.

ـ من هذه الشابة؟

تبهجني الهمسات تطلع من الجهات أجمع، فأفتح عيني على آخرهما لأسمع الآهات. هن شديدات الجرأة، أعني أكثر منا، لا، منك فقط. فمن الأفضل ربما في ذلك الوقت، لو اختفيت عن طريقهن. صدقيني، وأنا أنقلها إليك اليوم وبعد مرور تلك الأعوام ولا أطالب بعطل أو ضرر: لو تبقى واحدة منا ذخراً للمصائب التي ستتلاحق فوق رأسينا، والأخرى تتراجع وتتوارى كأفضل الجبانات. تراجعت أنت إلى المطبخ بطريقة أمومية. لم يطاوعني لا القلب ولا القلم أن أنعتها بالتفاهة والابتذال. فهذا يسير الآن، ومن قبل. لكن اسمعي، منذ تلك الساعات فكرت أو قررت أن أناصبك العداء بطريقة فاجرة. أقاتلك وأراقب قهرك، أملأ به جميع شواغر أيامي ولا أتراجع. أصدرت الأوامر لنفسي وأنا أدخل المطبخ وراءك. لن تنالي الحماية يا هدى، لا خلال تلك الأيام ولا فيما بعد. من الواضح أن الحرب هي التي جعلت سلاحنا دائماً على أهبة الاستعداد، وضحايانا لا يتراجعون إلى وراء: نحن.

ـ من هذه الشابة؟

أخيراً أجابت عباسة وأنا أمر أمام الجميع ولا أنظر إلى أي أحد.

ـ عيني احنا أصدقاء العمر، خل ما تشوفونا هنا دائماً، لكن أبا صبيحة صديق المرحوم من سنين طويلة، من أيام ما كان مأمور شرطة في كربلاء وسدة الهندية. الله أكبر، حتى بهذا اليوم ما تخلص السؤالات.

هل تريدين أدلة عينية أكثر من ذلك؟ كان الجميع ينصت إليها وهن يحركن العباءات عن وجوه تشب وتنطفىء مثل مصابيح الشوارع الخالية. فتراقب إحداهن الثانية ويشرن إليك بالغفلة والفشل، وإليّ بالإنكار والفضيحة، بطريقتين مختلفتين، فأبدو في عيونهن غولة كما صورتني العمة فريدة أول ما شاهدتني. ونحن لا نتبادل كلمة أو نظرة. كأن الأمر حصل مصادفة كما هي البراكين والانفجارات طبقاً لقانون لا يرد.

كنت جالسة في أول المجاز، ظهرك مسنود بالباب الوسطي، بين الصالون والمطبخ. الحائط أمامك ويصعب عليّ رؤية وجهك كله. فأكملت عباسة:

ـ آخ. اليوم الأول صعب والعزيز الغالي غايب، وأم جميل الله يعافيها امرأة مؤمنة واحنا من الأهل. والله لو مو الولد وأمي وحدها بالسماوة كان بقينا للأربعين. لكن راح نبقى للسبعة. الله أكبر، أبو عادل، هذا شلون قدر يكسر الضلع ويهد الحيل؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

عباسة تقرأ في رواية عن الفرسان الأوائل، أشخاص هذا البيت، وأصدقاء السنين الأولى.

ـ صبوحة، اسمعي اني رايحة للمطبخ. راح أحضر العشاء معهم. سنأكل هنا، ها عيني، زين وبعدين نكمل القصص؟

بعدين نكمل ونكرر. الحزن المكرر يتراجع، بحذافيره أمام الهواء الآتي من المطبخ، كما نحن الآن. والنسوان هناك يستعجلن الحزن أن يخلص. وسوف نلاحظ، أنا أفضل منك في الملاحظة، ان الألم الشديد يتناسب مع شهوة الأكل. الطعام ينزع البني آدم من الوحدة فيعود تابعاً

للريق، اللعاب، التلمظ والمضغ. فينتقل الألم هابطاً إلى الداخل، إلى أسفل، ظافراً بالمعنويات الثقيلة عند البعض من أمثالك. أو يذهب زاحفاً بطريقة مباشرة عند آخرين أمثالي. للشره والنهم، أنا. هكذا كانت أحوالنا ونحن نذهب ونعود من المطبخ. نشيل المواعين الكبيرة والعريضة. نحمل أهرامات الأرز وهو يطلق أبخرة الزعفران والدارسين والكمون غارقاً بالسمن الحر علامة السعفة الخضراء.

كنت تتجاهلين هذا الأمر: الجوع. أنت لا تجوعين تماماً ولا تشبعين أصلاً. تخفين ذلك، ربما بتأثير التربية والفقر القديم. سألت فخرية في أول زيارة إلى داركم في الصليخ. أجابت:

ـ اي بنتي، مستورين. يا دوب الراتب يكفي.

ونحن أثرياء. أرجوك لا تتبرأي من هذا. من يجرؤ على التبرؤ الآن؟ أنتم تخفون مشاعركم في الداخل، لست أنت، وتتوالى الحياة معكم. لديكم طريقة عجيبة بانتظار الغد، ذلك الذي تطلق عليه الجدة وفيقة ـ المستقبل ـ. كانت وصفتكم الحياء والخوف من كلام الغير والموت مبكراً، إما بالسل كأمك إقبال، وإما بالغرام الذي يؤدي إلى الموت الجميل كأبيك، وإما بالهجرة والجنون مثل شقيقك عادل. وما بينكم كانت الجدة كالكاهن الذي ينتظر الاعتراف في أول الفجر. لا تناقش طويلاً في أدوات التعذيب التي يتلقاها المذنب، ولا تتعمد إفشاء الأسرار. كانت تريد أن تبدو كالصياد الذي لا ينام ورائحة وشكل الطرائد تتفشى بين منخريه: أنتم. فتفتح عينيها على آخرهما لأنها تدري أن المباهج شحيحة، والنقود نادرة، لكن الوقت سيمر. بالتأكيد سيمر حتى لو كانت الدموع لا تحصى في عيون الأرامل واليتامى فسوف يظلون أوفياء لطفاء يحدقون في الأرض ولا تبدو للعيان صور الموتى والجوعى.

كانت الدراسة، الثانوية فالجامعية وبعد وبعد، لم لا؟ الجدة بقي لها ما تهدد به الجميع، وما عليكم إلا اجتياز المسابقة ولو بأعلى التكاليف لتزداد

خصوبة البيت. فحين يزداد المرض، مرضك، تقعين مغمى عليك، تترنحين من جراء الجوع على الأغلب، تماطلين وتنافقين قائلة:

ـ هذا كله من القراءة والسهر الطويل.

تستأنفين وجودك قبل ظهور الجوع وهو يزلزل بصرك، لكنك تنكرين، فأسمع صوتك:

ـ شلون يأكلون وبعد الميت ما نشف دمه؟ الله أكبر.

أحياء هن يا هدى. يقلن نعم ولهن الأسباب الوجيهة لهز أكتافهن هزاً مضاعفاً. يتوقفن عن النحيب. وعلى الفور يعرفن أن الفناء بعيد عنهن. يقلبن الصالون رأساً على عقب. يفرشن المشمع على الأرض وتبدأ الأفواه في ألعابها. نشاط غريب وعنيف، ورضا ينتقل من هذا الطبق إلى ذاك. الأيدي تفصص اللحم ودعابات سرية تتم بين الأيدي العالقة بالألياف والزيوت، بالروائح والأبخرة، لكن التقارب الشديد محظور عليهن إلا عبر الأصابع وهي تقطع وتشيل الهبر، يدفعنها لبعضهن البعض، فتشع آثار الحياة على الوجوه.

كان التهام الطعام، وعلى الخصوص في المآتم، بمقدوره الثأر من الموت وإفراغ الحقد عليه. لا يتوقفن إلا بعد أن تعود المواعين نظيفة إلا من بقع الزفر الأحمر أو الأصفر. هل ذاك هو الذي أزعجك يا هدى؟ الفراغ أم النظافة؟ وأنت في مكانك المعهود على سريرك، في غرفتك إياها، تتقلبين في أثناء النوم فأسمع نشيجك الليلي البطيء ولهاثك المتقطع. كانت المعمعة، كما يقال، أكبر منك، وأنت تسابقين الأمواج. فهل كنت تأملين من جميع تلك الأفعال الانتقام من نفسك على كل لفظة بغض، على كل مقطع من اسم ووظيفة وعنوان الوالد. لا أحد كان يراقبك وقتذاك، حتى ولا أنا، لكي تنامي بهدوء. أخدعك كما خدعتك، كما سأخدعك دائماً ومنذ تعارفنا الفعلي، فتكشفينني في الحال ولا توجهين إليّ الحديث. والسيد الوالد ينسحب إلى التراب البارد بعدما

شاهدت مركزه التليد يهتز فيك، فيولد مجدداً أمامك وسوف يحترف ذلك من الآن فصاعداً. تصيرين أنت من القتلة، ويحتل هو قاع الفردوس بلا مواساة أو عطف منه عليك. هو الذي وضع الحدود لأول مرة بينكما. القاتل الرقيق هو، الملهم، المنزوع السلاح، المتسامح الذي عرف كيف يدير رأسك، رؤوسهن جميعاً إلى مصدر التعذيب وبضمير مرتاح. وها أنتم ترتبون خطواته بعدما غض الطرف طويلاً عنكم، وتخلص منكم، منهم ومنا جميعاً.

ممدداً في منتصف الليل والجدة تقرأ على روحه بصوت شجي جميع الابتهالات، فالآيات لم تعد كافية. سلوكه كان مفهوماً فهو قادر على هزيمتكم فرادى وجماعات.

لكن العمة فريدة أصابها تشنج عضلي في تلك الساعات الأليمة في إبطها الأيمن من التعرق الشديد وتغير الهواء بين الغرف، فطلعت أصواتهن تأمر بإقفال المبردات والمراوح. وبدأن بتمسيدها بزيت الزيتون الحامي وهي تئن أنيناً سرياً ملتاعاً. كانت العمة موضع إعجاب وهوى لدى الأخريات. صوتها يزداد ارتفاعاً كلما تذكرت صفات الشقيق الميت وآلام الإبط معاً. والجميع غير مرتاح. الجدة في المقدمة: فكرت. هل سيتوقف نمو العمة فريدة من جراء هذا التشنج وتفقد بتوليتها مثلاً؟

صوت هدى وهي تحمل صينية العشاء وراءها ملكة وفخرية. اصطفت فوقها أقداح اللبن المثلج وعلى سطحه تترجرج مكعبات زبدة البيوت. مواعين الشمام والبطيخ الأحمر والعنب الأسود. كانت وليمة ينقصها العرق، بدر وعادل:

ـ ولم لا؟ مصعب أيضاً. أجابت هدى وذكرت اسم الرجل وكأنها تراود روحها به. خالتي حائرة لكنها مبتهجة:

ـ يا الله عيني صبح مدي ايدك وسمي بالرحمن الرحيم لخاطر اللي ببطنك.

ـ راح تأكل خالة خليها عليّ.

مزاج هدى كان من الصعب التنبؤ به. تتفرس بأسياخ اللحم المشوي، الكباب والكلاوي، الكبدة والقلوب، ومن طرف خفي تنظر إليّ. تقطع الرغيف وتصف اللحم والبصل، الرشاد والسماق، تلف كل هذا وتضعه بيدي. تقرب قدح اللبن مني وهي على وشك الصهيل، تمضغ وتبلع بلذة قادرة أن تصلني ولو على مضض. أتجرأ بالنظر إليها بشيء من الحرج في البداية، فياضة كانت، ومباشرة. وأنا، ما إن بلعت اللُّقَم الأولى حتى شعرت أن اللحم كالرصاص، وان هذا الحاصل بيننا كان يضاعف نفوري منها ومن نفسي.

ـ خذي نصف الرغيف الثاني. يا الله قبل ما يبرد. كلي وتقمصي شخصية صبيحة الأولى التي كانت تبعث الرشاوى إلى هدى لكي تذوق الزاد. تذكرين لو نسيت؟

تتحدث كما لو كانت تطلق النار وتوجهه إلى بطني:

ـ تعرفين صبوحة صرت أدخن قدام عمتي. بعد عادل طبعاً. مصعب علمني فعل أشياء كثيرة، وما عليّ إلا أن أقوم بها وقدام الجميع. ذقت الويسكي. وأول ما خلص القدح الأول دخت. بعدين قال لي الدوخة جعلتني مغرية. البيرة لا تكفي. لم تحرك عندي أي شيء. مصعب يحب العرق أيضاً، لكن لما نطلع للمقاهي يفضل الويسكي والبيرة لي. وكل ما يبوسني تطلع ريحة الشرب والبصل والدوخة عليّ، أتضايق وأنزعج من هذا. تصوري مرة فتح لنا شامبانيا ونحن في أحد الفنادق البعيدة من ضواحي بغداد. كل ما قرأت أو سمعت عن ذلك الشراب لا معنى له إذا لم تذوقي القطرة الأولى منه. حتى صوت الزجاجة، والرجل وسطنا وهو يقوم بفتحها، عبالك صوت آدمي جديد حضر من كوكب آخر. وأني أخبيء فرحي حتى ما أبين جهلي وحيرتي. تدرين صبيحة مرات أشعر أن مصعب يتلذذ بذكريات لم تحصل بيننا أصلاً، حين يقول، تذكرين لما كنا

كذا وكذا. يتذكر مثل رجل مهجور ويدور على واحدة تخلصه من وحدته. هو لا يشبه بدر. كلما تتحدثين عن بدر لا أخاف. يمكن لأنكما من جيل وعمر واحد والحب بينكما أشد بساطة وصلابة. لكن مصعب حين يقول لي «أحبك وأفتخر بك» أشعر أنه فخر الأب بابنه البكر. أتصوره يريد مني الوصول إلى الكمال وهذا يخوفني. الكمال يخوف. وحين أتركه تقل ثقتي بحالي وتزيد ثقتي به. إنه يحرك النار في رأسي عندما يتحدث ويصدر الأوامر في المديرية، يطلع الشرر من عينيه وأشوف شبح أبي في بعض الأحيان أمامي. أنت وبدر صديقان ها؟ لكن، نحن لا. بس أني أحبه. تعرفين، قال لي لو يسمع السيد رامي حيدر، ابن عمه بزيارتي إليك سيلعن الأولين والآخرين، لكن هو قال لا تهتمي أبداً. تريدين بعد؟ ها عيني نصف رغيف آخر لخاطر بدر.

أول مرة أبادرها وأسأل:

ـ لم تسأليني عن شاكر؟

كادت تغص باللبن لكنها واصلت بهدوء. بدأت بلملمة المواعين. صارت تتصف باللياقة واللطف ولا تنظر إليّ:

ـ إذا تعبانة سأجلب لك الماء والصابون عندك.

ـ لم تردي يعني؟

وهي تصل إلى الباب وبيدها الصينية:

ـ شاي، ها. شاي خالتي فخرية العراقي المخدر زين هسه وقته.

لماذا حضرت هدى؟ للتشفي؟ للإنصات؟ للمواساة. يدها مبسوطة، كفها حارة، قلبها ساخن وكلماتها مشعة وأنا مكروبة، وهي لا تنصت إليّ. تتحدث وتواصل ولا تكف عن الابتسام. حين عادت فتحت حقيبتها وأخرجت علبة سجاير «روثمان».

ـ هذا دخان مصعب. أريد أشم رائحة تبغه حتى وهو غايب.

بدر كان يدخن سجائر «أم البزون». أحياناً كان يلف سجائره بيده. يسعل ويلهث وهو يردد:

ـ صدري صار مثل المدخنة كل يوم سجاير شكل.

فتحت الباب إلى الأخير ووقفت أمام الطارمة الفسيحة وصوت الأمواج كأنها تتجه إلينا، وهي تسحب أنفاساً وتطلق الدخان عالياً. صارت محترقة والدخان يطلع من فتحتي منخريها. بدا لي أنه يطلع من منابت الشعر ومسام الجلد. كانت تستمتع إلى ذلك الحد الذي جعلني أردد:

ـ يا للسعادة، يا للسرور.

التفتت بغتة وسألت:

ـ هل قلت شيئاً؟

سحقت السيجارة وهي تسمع صوت فخرية تناديها:

ـ هداوي تعالي الشاي حاضر.

ـ تعرفين أبوك تغير. ما أدري شلون. لكن تغير كثيراً. صار يشبه أبوي قبل..

بدأت بصب الشاي. كانت تتلمظ ما سوف يأتي وليس ما ذهب:

ـ آخ لو كانت هجران معنا الآن.

كنت أفكر فيها في الوقت ذاته. يحصل هذا كثيراً بيننا. وعندما يحدث ونحن في الشارع، أو أمام أفراد العائلة، كنا نلتفت إلى الجهة الأخرى ونبتسم بتواطؤ. نعدل جلستنا ونلجأ إلى الصمت الملتبس. كان بمقدورنا استدعاء هجران بيننا. استمر ذلك طويلاً ونحن نرشف الشاي. هي تدخن وأنا صافنة. دائماً يجيء دورك يا هدى إلى رأسي وتأخذين شكل الترياق القوي الذي كنت أريد تدريبك عليه، ونحن نغادر القصة، نعود وندخلها ثانية، من البقايا والمهملات التي استقرت وثقلت وطافت فوقنا والتصقت بسقف لساننا. لم تنس هجران، فأذنت لها بالحضور بيننا وهي تدخل في التيه بعدما فر رامي من أمامها كما فر بدر، كما فر شاكر، كما فررت أنت

من بين ذراعي يا هدى:

ـ لا تقولي نعست وأريد أنام. اسمعي أقدر أبقى صاحية معك حتى يعود مصعب في الصباح، ها؟

قامت وفتحت حقيبة يدها. أخرجت قارورة صغيرة جداً في حلقها فلينة، فتحتها وفاحت الرائحة:

ـ هذا عطر مصعب. أخذت شوية منه ووضعته هنا. تريدين رشة؟ شمي رائحته حتى تقولي معك الحق يا هدى على غرامك به. لكن، صبيحة، رائحة جسمه أحلى من جميع العطور. ريحة بودرة وشمع يحترق، ويفوح تفاح مشوي وخبز ملفوف بالنعناع. كلما أشمه أصير غير شكل.

تضع قطرات في الرسغ، وراء الأذنين، على الرقبة وتحت الأنف:

ـ اي هنا جوا أنفي حتى أشمه زين.

صار لها منصب، المغرمة الولهانة، وبدأ الإلهام يطوف على محياها. عادت تنظر إلى بطني. اقتربت أكثر ومن فوق ثيابي بدأت بلمسه بهدوء:

ـ يتحرك لو تتحرك. . . ؟

هل كانت تعرف؟ هل سترفع الستارة لترى موقع الدفن وشكل الجثة وتذاكر الدخول للفرجة. وأنا أبتسم بوهن. ألمس رأسها بأصابعي ثم أنظر إلى جسمي. هذا جسد لا يعنيني، والسرير ليس سريري الذي سبق أن أفرغت فوقه الأشواق:

ـ لماذا لا تركتي هذه اللعينة؟.

امرأة تخلت عن روحها فبدوت عارية وغريبة. تحركت قليلاً وبدأت بسحب ثيابي عن ساقي وركبتي، هل أنا غير مؤكدة لهدى؟ لكنها بجواري، تمسك كفي ثم تصعد إلى ذراعي وجبهتي. بلى. الحرارة بدأت في الوقت ذاته وهي أمامي. وأنا كنت صماء، تافهة، لا القلب يخفق،

ولا الروح تؤلف القصص. مفاصلي ضخمة فظيعة في ثقلها فأشعر أنني على وشك التقيؤ. دفعتها قليلاً وحاولت القيام والذهاب إلى الحمام. في رأسي دوي شديد وليس بمستطاعي الصراخ. لو تنام هدى. لو أعثر عليها ميتة بطريقة هادئة. في الحمام بدأت أنتحب. فتحت الحنفية وكان ماؤها حاراً، والساعة بعد العاشرة ليلاً. بطني واسع جداً. أريد أن أصب عليه الماء الدافيء. أريد الوقوف في الحوض لكي أغسل فروة رأس ابني بين يدي فأخذته من النظافة الشديدة. أبري الصابون والليفة فوقه ودموعي تهل ولا أدري لماذا؟ أمسك الحائط بذراعي قبل أن أتهاوى، لكن ما أن تستقر قدمي على أرضية الحمام حتى أبدأ بالاستفراغ. كنت أريد أن أبدو أكثر حيطة وحذراً. لكن لا نفع معي. أتقيأ وأنا مغمضة العينين. فتحت حنفيات المياه في الحوض والمغسلة والمرحاض. كان نحيبي سرياً وبطيئاً. أسمع أنيناً غريباً يطلع من بطني، يرتفع ويتعالى. وضعت يدي على رأسي وشعري وبطني. كل شيء كان محكماً، فبركت على الأرض وأسندت ظهري إلى الحائط. كانت رائحتي لا تطاق. لم أتذكر يوم عودتي من النادي الرياضي لكني بدأت أفقد أعصابي وأنا أقاوم صوتي حتى انفرج الباب عن وجه هدى. صرخت وأنا أدل بيدي:

ـ اسكتي. اخرسي تماماً.

هبطت وبدأت في خلع ثيابي. لم تكن في حالة قرف أو اشمئزاز. يدها تعمل كمدربة حقيقية. تلهث وتسحب الثياب من تحتي وتكومها بعيداً. ببطء شديد تمسح رأسي بالمنشفة، تديرها على جميع أعضائي. تشطف وتعصر وتبدل المناشف. ثم بدأت بتنظيفي. لم أحب نفسي أبداً وصوت المياه أسمعه وهو يقطر عليّ، فأبدو عجوزاً مستسلمة:

ـ امسكيني جيداً لأضع رأسي تحت الحنفية الكبيرة.

كنت أتوق للانزلاق على الأرضية. وهدى تقبض عليّ من الكتفين فتندفع برأسي إلى تحت والماء كثير، يتكاثر، يتكرر بتكرار عجيب. رغوة

الصابون تنزل إلى عيني ووجهي ورائحتي تستيقظ ثانية، رائحة أم على وشك الإنجاز. هدى مشحونة أكثر مني:

ـ اسمعي، سوف أساعدك لكي تقفي تحت الدوش تماماً، ها، يالله.

كانت نعمة الماء فوقي. مياه قديمة، دافئة، مبردة وأنا على وشك النوم. والماء يطوقني كالحارس، وهدى شديدة الحشمة وهي تغطيني بجسمها خشية السقوط بعدما وضعت المنشفة الكبيرة على بدني كله وبدأت بتجفيفي. كان بطني ضخماً كأنه هكذا منذ خلق، منذ الأزل..

هنا بدأت عينا هدى نازلتين إلى تحت كمحطة للمراقبة. ثم بمحاولة الملامسة، كأنها تريد قياس قطر بطني وهو في الشهر السابع، وكم كان في العام الأول من التعارف؟ كم تزن المياه الجوفية والحبل السري والمشيمة والدم وباقي المهملات لإنجاز «مشروع ولادة طفل» فلماذا سيختلف طفلي عن باقي الأنواع؟ كانت تنظر بعينين جميلتين، العينين الأموميتين الأوليين ذاتهما اللتين لم أحبهما.. وبدأت اللمس:

ـ تريدين الصدق، أول مرة أرى حبلى عارية. حبلك غريب. أنت تشبهين. وسكتت.

رفعت رأسها إليّ. كانت دموعها سخية بعدما بدأت بالهطول ثانية. شدت جسمي ورأسي بطريقة متقنة:

ـ لا تقلقي، كلهم يتفرجون على التلفزيون.

ـ ١٠ ـ

المفقودون

سيدتان ورضيعة في سيارة أجرة، والساعة تقارب الخامسة عصراً. قلت للسائق:

ـ الأعظمية من فضلك. نمر من باب المعظم، حي المغرب إلى النادي الأولمبي.

ـ يعني للصليخ لو للأعظمية.

ـ أولاً نمر من شارع عمر بن عبد العزيز.

ـ وبعدين...؟

ـ لما نصل إلى هناك أنا أدلك.

هز رأسه موافقاً ولم يعلق. «فخر» بيننا وأنا أتفرج على بغداد ثانية. عام إلا بضعة أسابيع وفخرية لكزتني في خاصرتي بمعنى:

ـ سنعود لذاك الطاس وذاك الحمام. ليش لازم نمر من هناك؟

لم ألتفت إليها. وصوت تنفس الطفلة هادىء وينسل إلى عظامي فأشعر بقشعريرة. المساء بارد جداً. هي وأنا لم نصب بمرض حتى الآن، على العكس. أنا سمنت، تورد خداي ترهل بطني بعد الولادة، ولحمي صار مضلعاً ومخططاً بخيوط بيضاء. نهداي ثقلا ولم يعد من عمل لهما إلا الرضاعة.

أسابيع بقينا نبحث لها عن اسم. أبي سمعته يقول بصوت حنون:

ـ نسميها نوعة. لم أعلق. فخرية أجابت:

ـ لا، نريد اسماً من هذا الوقت. نوعة اسم عتيق أبو فؤاد.

سألوا شاكر فحضر بعد أيام. ما دخله بالأسماء؟ لم ينظر في وجهي قط، ولا في وجه تلك المخلوقة. قال بصوت كالثلج:

ـ نسميها شاكر، سموها كتاب، ناقة. سموها خرا.

لم يرد عليه أحد. بعد أن ذهب إلى الصالون، ردت أمه بصوت ساخر:

ـ مخبل وسكران، ما علينا منه.

ملكة ضحكت بصوت منخفض وقالت:

ـ نسميها فارس مثل اسم ابن جيراننا الجديد.

فضحكت. مر الأسبوع الأول. وحضرت ريحانة زوجة أبي السابقة، وقالت:

ـ نسميها رازقية مثل اسم جدتي. أي اسم الورد. ها شوفوا ما شاء الله تشبه الوردة.

أصابنا التشوش والإنهاك ولم نعثر على اسم، والأيام والأسابيع تمر. أبي ازداد قلقاً وهو يقاربها بين يديه ولا يقوى على حملها تماماً.

رفع صوت الراديو على إحدى أغنيات «زهور حسين» فصوت تلك المغنية يذكره بكرجية الغجرية. صراخي كان غريباً. أول مرة يكون بمقدوري القيام بهذا الفعل وعلى أفضل الصور، ولا يعترضني أحد، كأنني أمسك ميكروفوناً وأريد إفراغ كل الشحنة وأدفع بالصوت إلى الأقصى حتى وقع بصري بغتة على كومة من اللحم والدم والمخاط. وفخرية تنادي على الأولياء والأنبياء والرسل. والجنين يتوهج ويتحول بين يديها وهي تضربه وتقلبه رأساً على عقب دون أن يرف لها جفن. الماء والدم يتسرب من بقعتي الجميلة تلك. فاحت رائحة الطفل وبدأت

تسكرني. لمستها بيدي وهي تطلق الصرخة الأولى. هشة، ضعيفة ومدماة وسوف تفرط بين يدي فخرية. الهلاهل تتعالى. وشاكر غير موجود والجميع يردد:

ـ باسم الله الرحمن الرحيم. اللهم بارك عليها وعلى أمها يا أرحم الراحمين يا الله. بنت، مبارك عليك يا فخرية. مبارك صبوحة. هسه عاد قطعنا حبل السرة ولازم ندور على الاسم الصالح.

لم تكن جميلة ولا لطيفة، تشبه المعزاة، مشعرة كحيوان:

ـ لا تخافي صبوحة كل الأولاد يولدون مثلها، لكن بعدين سبحان الخالق كل شيء يعود لحاله.

لما دخل والدي صاحت عباسة:

ـ تعال شوف اقترب شوية من الضوء. هذا غشاء الحظ وحسن الطالع يغطي وجهها كله. راح أخليه شوية قبل ما أمسحه حتى تتفاخر به قدام الأهل.

بنية منتفخة وهي ترتعش بين يدي أبي. عينان منفوختان مغمضتان، أنف أفطس، خدان وارمان، شفتان رفيعتان وشعر كثيف يغطيها وأنا أتقمص شخصية الوالدة الطيبة.

الأسماء تقاوم هي أيضاً حتى قاربت الضجر وهم يصبرون عليّ. شاكر غادر بعد يومين. بقي يسكر مع الوالد ولا ينبس بحرف. كنت أريد اسماً عادياً ولا يعود لأحد. اسماً بارداً، نيئاً لا محبوباً ولا يجترح الأعاجيب. يا رب العالمين، الأسماء كالمصائب، ولا يمكن أن تحضر أمامنا ونحن نتجرد من ذيولها ومقاماتها. الاسم مشكلة سياسية. فيعودون لاقتراح اسم جديد، ثم نغرق بالصمت. تذكرت جميع أسماء مدرسات الثانوية والابتدائية حتى يئست. بعد شهر ونصف اتصل شاكر بوالدي واقترح:

ـ نسميها على اسم أمي «فخر».

هززت رأسي بالموافقة. لكن ملكة ضحكت ثانية وأجابت:

ـ فخر اسم ولد.

أجاب أبي:

ـ هذا اسم يصلح للاثنين.

أرضعها وأخاف النظر إليها. كلا لم أكرهها. لكني لم أحبها كالسابق لما كانت غير موجودة. حاضرة هي الآن بين ذراعي خالتي، تهزها قليلاً ونحن نمر قدام البلاط الملكي. تغير اسمه بعد ثورة الثمانية والخمسين فصار مجلس السيادة.

ـ عمي دور على ساحة عنتر مرة ثانية من فضلك، ها، اي من هنا، تمام. هسه خليني أنزل هنا وأنت كمل إلى رأس الحواش.

لم ألتفت إلى خالتي. فتحت الباب:

ـ يمه راح أتمشى شوية وأجيء وراءك.

العربة تغادر وأنا أقف وسط الفراغ. أي فراغ أملس؟ يتضح كلما أهز رأسي وأردد:

تماماً هذا هو النادي وأنا أمام البوابة الرئيسية وتلك الشجرة الهرمة التي اتكأت عليها فخرية. ألمسها وأوهم نفسي أنني مررت من هنا. كنت هنا في الداخل. ليس الأمر فظيعاً ولا وحشياً. أعرف جميع الشوارع الفرعية جيداً، كل هذا من البديهيات. وأسماء أصحاب الدور أمامي ثانية. أطباء، عسكريون، طيارون متقاعدون. قصور طبيعية ولا تثير أية شبهة، مرصعة بالأشجار الباسقة والشائخة نوعاً. للأشجار نشاط ثوري على ما يبدو. قلت هذا وضحكت بصوت مسموع، والجنائن في الوسط، وأمام وعلى الجانبين. أزهارها لا تحاول إخفاء شدوها ويناعتها. كلما أمر من أمام إحداها كانت تلك الكائنات تثابر على التنفس بنفس الطريقة الأصولية، فأشاهد أبخرتها تتصاعد أمامي. ما الذي تفعله الوردة من مناورات لكي لا

تبدو إلا لحالها؟ بيوت كأنها بلا أسر. يسكنها القليل من البشر. زوجان عاقران، أرملان يتنهدان من وراء النوافذ المسدودة. كانت الستائر مسدلة بأحكام. لم أسمع صراخ أطفال ولم أصادف شوارع مقفلة كتلك التي أعرفها في الأعظمية الجوانية والأحياء الجانبية المجاورة لجامع الإمام الأعظم. الجادات عريضة مغسولة ونظيفة، والقاطع الأسمنتي في الوسط ما زالت أشجاره القصيرة تواصل النمو. تماماً، ذاك بيت السيد رامي حيدر، دارة موجودة ومأهولة بأفراد العائلة المزدحمة بالسكان. لم أعد أتخيل ماذا يحدث في تلك الدارة. لكن ما كان يوسع الرؤية في هذا المجال هو ميلان بيت هجران الذي أقف في مواجهته على الطرف الآخر من الرصيف. بالضبط هنا. المنزل لا يصلح للأرصاد الجوي. هدى قالت ذلك يوماً ونحن نمر بجواره. دلت عليه:

ـ هذا بيتها وفي ذاك الطرف الثاني من الفرع بيته. اي، هما مغرومان. جدتي تقول بعد التخرج من الكلية راح يصير العرس.

فخرية كانت تكمل القصة وتضيف:

ـ اي عيني هو من أول بيوتات حي الصليخ. عمره حوالي عشرين سنة إذا مو أكثر. اي من عمر هجران الله يستر عليها.

بيت فيه نقاط ضعف كثيرة، لكنه غير مزيف. واسع في الظاهر، بطابقين أو أكثر. كامد اللون، لكنه عريق، قديم، كأنه متوارث من سلالات عدة. لا نستطيع الدوران حوله فهو ملاصق لدار أخرى. مقفل على الدوام. يقف على سياجه العالي ومن الخارج نسر على وشك الطيران. وجهه تآكل، أسنانه وأصباغه تساقطت، جناحاه على وشك الطيران بعد قليل. كان يقال ان هذا النسر هو واحد، واحد فقط من منحوتات السيد الجنرال المتقاعد والعسكري الوطني على الطريقة الكلاسيكية «عبد الهادي أمين» النحات والرسام حين يحاول توجيه اللوم والنقد اللاذع للنظام، أي نظام. كلما نمر أمامه، هدى وأنا وعادل كنا

نشم رائحة بخور قوية جداً طالعة، متناثرة وموزعة من حلق وجناحي النسر ذاك. هكذا تراءى لي ذلك على الدوام. أطلقت على الطائر اسم ـ النسر المصاب ـ.

كان السيد عبد الهادي يشبهه. بالتأكيد له علاقة بالنسور والحيوانات. بالكؤوس والتيجان. وحين أمر أراه جالساً أمام الباب الداخلي في الطارمة المستطيلة المظللة بدالية العنب الأسود. يجلس على كرسي من الخيزران الذي تقصفت أطرافه. فوق عينيه نظارة طبية ذات إطار سميك من اللون البني. يرتدي ثياباً منزلية: بيجاما مقلمة بالأسود والأزرق وفوقها روب حريري داكن اللون. دائماً هكذا. ثيابه مستقلة عنه كأنه قاوم كثيراً حتى أذعن لها، ارتدته هي بدلاً من أن يرتديها. لم أره أبداً في بدلة كاملة أو سروال وقميص أو بالملابس العسكرية. هدى تقول:

ـ منذ تقاعد من الجيش، بعد أن كان جنرالاً في ثورة الحادي والأربعين، لم يعد إليه أبداً. أرسل إليه قاسم وألح عليه للعودة لكنه رفض بإصرار.

كانت الشائعات والقيل والقال تشبه الألغام وهو لا يهتم بالرد: كانوا يحشون رأس الزعيم عنه: «هذا العسكري المنضبط بمقدوره عمل انقلاب بدبابة واحدة حتى لو تقدم به السن».

تضيف هدى:

ـ كان صديق والدي. مرة نحت وجهه وقال له أنا أقترح عليك تغيير مهنتك إلى الخياطة، حين كان يراه أنيقاً وهفهافاً والعطر يفوح منه. «ولد في بغداد من أب كردي. بيد أنه يعطف على العروبة ويتعصب للإسلام ويمقت الاستعمار وسماسرته. رشح لرئاسة أركان الجيش. كان من قبل قائداً للفرقة الثانية. التجأ إلى إيران بعد أن حارب الإنكليز طويلاً. وكان أحد قادة الجيش العراقي».

اليوم الثلاثاء والشهر كانون الثاني من العام أربعة وستين. وجه السيد

عبد الهادي يقرع رأسي. شعر رأسه خفيف جداً وأبيض. عظام وجهه كأنها كسرت وأعيد تجبيرها وبقيت بعض الشروخ. نسر شائخ هو الآخر. غامق، نحيل، ضئيل، غاف على الدوام. إذا نظرت إليه ومن جميع الجهات يبدو أنه لا يلحظك.. منكس الرأس وعلى وشك البكاء أو أنه أنجز عويله قبل ثوان. وحيد معذب وطافح بالموت. موت قديم مرت عليه الملل والأجناس ولا يزال ينتظر. ولداه الاثنان اختفيا ولا أحد يعلم أين هما. لا، هدى كانت تضيف:

ـ جدتي تقول، ولداه هاجرا أول ما بدأت المشاكل مع الزعيم. ناس تقول فرا إلى تركيا وناس تقول إلى موسكو.

يبقى جالساً على تلك الوضعية، على الأغلب في انتظار هجران وهي تعود من مناطقها النائية. اليوم لم أره. الطارمة خالية، الكرسي فارغ والباب موصد. باب الحديقة الأول، والباب الداخلي الخشبي الكبير. الدالية مهجورة يابسة أدوس على أوراقها وأنا أمد رأسي. ذاك بيت هدى، لحسن الحظ هي غير موجودة، فرت وراء مصعب إلى لبنان. حين قالت خالتي ذلك، ضحكت ولم أعلق. ففي صباح يوم ١٨ تشرين الثاني من عام ثلاثة وستين صحت بغداد على أصوات «إطلاق النار وبدأ منع التجول. أُعلن اسم جديد لرئيس الجمهورية، وتم تشكيل مجلس قيادة ثورة من العسكريين فقط، بدلاً من المجلس السابق الذي كان خليطاً من المدنيين والعسكريين. وبالفعل تم تشكيل حكومة جديدة وأُعلن حل الحرس القومي إلخ».

يدي على الجرس الخارجي. لا حركة. أفتح الباب الحديدي بيسر. كنت أسمع رنين الجرس من الداخل، ولفرط ما كان يدور في رأسي من كلمات وجمل حضرتها لهجران أول ما سيفتح الباب. سوف، وسوف. هجست أن أحدهم أو إحداهن كانت تشاهدني لكنها لم تعيرنني أي اهتمام. كبست على زر النور، كان الضياء خانساً هو أيضاً. الطارمة

مغطاة بتراب كثيف. النباتات المتسلقة طوّح بها الهواء فتناثرت على الكاشي المبقع بالأملاح والغبار. الشباك الأول كان من الشبك الخفيف الذي صدىء فتوارت في تجاويفه، بين الحديد والزجاج، العناكب والحشرات الطيارة. الستائر نازلة بإحكام، بدأت أضرب بعصبية على الباب الخشبي وأنظر حولي. على يساري كانت درجات أربع تأخذني إلى الحديقة، وخيالات الأشجار بدأت تتجسم أمامي. السياج كان محتشداً بأغصان كثيفة جداً، والنبتة العجائبية في خلوتها: الجهنمية. فتحت فمي وأعدت الاسم. هذا محتوى جهنم وشكل الجحيم. نزلت ولملمت زهرها المتساقط على الأرض. كانت ألوان النبتة تقذف بنفسها أمامي كما لو كانت عيوناً تترقرق بالدموع، مشبوبة من درجة اليناعة، كأنها لا تعرف إلا هذا النوع من التكاثر: عفاف الحب وباللونين القرمزي المذبوح بالدم والأصفر المشرق بالحياء فيستفز البكاء من شدة تفتحه. ورغم أنها زهور صماء، بلا أريج، لكن الألوان في الشجيرات بدت لي كأنها تعرضت للأخطار هي الأخرى. ألوان نسيت نفسها فتغيرت، مرضت. ألوان صافنة وحيدة، ألوان عراقية تخلى عنها الأمل. كيف تجرؤ الأزهار على التفتح في تموز وآب؟ في كانون وشباط؟ والزمهرير يكنسها ويضرب تويجاتها؟ لكنها ها هنا تستيقظ أمامي فأملأ كفي بها وأنا أحصي ثمار البرتقال والنارنج الذي تساقط ولم يقو أحد على لمّه. الحديقة أوسع مما توقعت، ومهجورة. العشب يابس محروق. أحواض الخضار: الطماطم والباذنجان والفلفل الأخضر عصفت بها الرياح والأمطار والوحول فنامت قبل أن تعود الأغصان للنهوض ثانية.

عندما قابلتني هجران في بيت هدى يوم الواقعة بدت آنسة ترفض طلب العون، كهذه الجنينة. ولما مرت الأسابيع دعتني لزيارتها. أدخلتني من هذا الباب وهي تشير بيدها إلى الحاجز الخشبي الموارب:

ـ هنا يعمل والدي ليل نهار.

وإذن هذه هي الغرفة المتروكة والبعيدة. كان ينتقل من الرسم بالزيت إلى الحفر على الخشب والمعادن:

ـ دائماً يقول لأمي روكزانا، والله اني ما أعرف نوايا منحوتاتي. كلما أبدأ بالرسم أو الحفر لا أحد يحضر إلى أصابعي.

وأمي ترد عليه وهي تضحك:

ـ لا تستعجل عليهم. سيحضرون. والله العظيم سيأتون وسوف تضجر منهم.

صوت هجران يملأ الغرفة وأنا أقف وسطها. هبت عليّ رائحة الطين اليابس والمخلوقات المسهدة:

ـ تصوري صبيحة إذا لم يجد أبي ما ينحته، يدفعنا، أمي وأنا للجلوس أمامه. نحت وجهينا عدة مرات. وأمي تختنق من هذه الغرفة. تسميها غرفة المفقودين. هيا تعالي وانظري كل هذه الأدوات من النحاس والفضة. شوفي صناديق الكتب القديمة باللغات التركية والكردية والفارسية والعربية والإنكليزية.

ـ وإذن هذه هي هجران، ها؟

سألت هدى بعد أن غادرت وانفض المأتم. أجابت بنفور:

ـ اسكتي الآن فهذا ليس وقته.

ـ لكنك ستقصين عليّ كل شيء، كل شيء.

التصقتا برقبة بعضهما بعضاً، تمايلتا وعلا صوتاهما بالنواح الوحشي ولم تتفوها بأية كلمة. كانتا تتلاشيان أمامي فانسحبت من أمامهما. بدوت مجوّفة وزائفة إزاءهما. لما وقع بصري عليهما بغتة، كانت هجران تتفكك بين ذراعي هدى. فوجئت وإلى حد الساعة. لم أر جمالاً بمقدوره التلاشي والذهول كهذا. هجران كانت تحاول التذكر. هي لا تنسى دائماً، هي تنسى في أغلب الأحيان. هل كان ذلك سوء نية، أم بداية المكروب؟ أمها تمزح قائلة:

ـ ورثت النسيان عن أجداد أبيك الأكراد.

والوالد يطلق ضحكة وهو يجيب:

ـ لا، لا تصدقي. أنت ورثت ذلك عن أجداد أمك الأتراك البعيدين جداً. هم نزلوا من الجبال فاستقر بعضهم في شمال العراق بقيادة الجد الأكبر، مراد الكبير أسمعتما زين روكزانا خانم وهجران خاتون؟ لا تصدقي يا هجران. هذه شائعات. أمك ذات نسب عربي لجهة أجداد والدها. حضروا من الحجاز، وأمها من الجبال العالية في روسيا. وإذن نحن من قارة واحدة. اختاري ما شئت لوحدك، فالجميع ينسى، العرب والأكراد، الأتراك والروس، وأية غرابة في ذلك؟

الجد الكبير لروكزانا استشهد في العام ١٩١٦ حيث كان يقود قوات العشائر، لما حاول الإنكليز فك الحصار على حاميتهم المحاصرة في الكوت، ودفن بالقرب من منارة جامع الإمام أبي حنيفة في الأعظمية. لقد اختير ذلك الجد ضابطاً في الحرس السلطاني وكانت الروايات والأساطير تروى عن شجاعته. «فبعد يوم قائظ من الأيام التي سبقت الحرب الأولى. شاهد ذلك ـ المراد ـ جاثماً كالأسد في جنوبي العراق وهو غارق في النوم على سطح القلعة.

«كان السلطان عبد الحميد يخاف منه لجسارته. وقد حدث أن انطلق أحد الأسود من قفصه فتقدم نحو السلطان يعترضه لكنه هاجم ذلك الأسد. أمسك به وأعاده إلى القفص. وإذاك سارع السلطان إلى إبعاده عنه. فأرسله إلى بغداد. كان ذلك في العام ١٨٨٨».

ظلت روكزانا محافظة على بعض العادات في ارتداء «القلباق الأبيض» أو القبة الطويلة المصنوعة من الفرو في أيام الشتاء الباردة. لما دخلت تلك الغرفة مع هجران في حزيران، الحرارة كانت شديدة. لكنها لم تقاوم تجربة ارتداء تلك الثياب ثانية أمامي بعدما استحال لونها إلى البني الوسخ. دلت بيدها إلى أعلى، حيث وضع الجنرال شجرة الأنساب على

طولها متفرعة إلى أغصان وفروع، بدءاً من مقاتلي الجبال الملثمين الأقوياء القساة. مروراً بالصيادين والمزارعين الأجراء الذين يموتون أحياناً لتعرضهم لافتراس الحيوانات الكاسرة. وهجران تميل على تلك الموجودات وأنا بجوارها فتزيح أحد الشالات الشفافة عن وجه منحوت تام الاكتمال:

ـ هذه أمي.

كانت جاذبية المنحوتة آسرة.

ـ تصوري أمي لا تعرف إلى اليوم أي نوع من أنواع الزينة والأصباغ.

ـ يعني من هي الأجمل، هي أم أنت؟

تستحي بصورة تحرج الناظر إليها:

ـ لا، أمي هي الأحلى. لو تشوفيها لما تلبس العقود والأساور وتاج الرأس المرصع بأنواع كثيرة من الفصوص والأحجار الكريمة وهي بثيابها التقليدية العربية أو التركية، أوقات النذور والأعياد. كأنها ملكة بتلك الثياب. تفتح صندوق العاج وتمسك بيدي وتجلسني بجوارها، وبعدين تأخذ كفي وتبدأ من أصابعي تشك الخواتم وتزيح شعري وتلف عقود الياقوت والزمرد عليّ. تضحك وتقول هذا مهرك يا مهجة قلبي. لحسن الحظ لم نجمع ثروة كبيرة غير ذاك الصندوق. أبي يقول جمعناه من قارتين، وأمي تضحك وترد عليه، شوفوا يسميها قارة ويناكدني وأني أسميها ولايات. يقهقه والدي ويقول كل هذه سفاسف. تجلسني قبالتها وتنظر وسط عيني: لما تجيء أم رامي تشوف العروس حاضرة هي وخشلها.

بدأت أفقد صبري. إلى أين مضى الجميع؟ إلى الشمال أم إلى الجنوب؟ هل حملوا الصندوق العاجي وشجرة السلالات؟ تعمدت الحركة في الحجرة، أضأت النور. حركت الستائر. أسقطت بعض الأدوات الحديدية على الأرض وأطلقت صوتي:

ـ هجران، هجران.

من هنا كان يطل السيد رامي. من هذه النافذة. رفعت رأسي إلى فوق. كان شباك غرفتها العالي مقفلاً، والعتمة تعاديني. أبعدوا أربعة من القادة بعدما أعلن راديو بغداد في تشرين الثاني في الثلاثة والستين: «بأن وحدة الحزب في خطر، وكذلك حياة الملايين من الأعضاء. وعلينا أن نجد مخرجاً دون إراقة قطرة دم واحدة. وعلى الحزب حل كل الخلافات سلمياً» سألت هدى، بعد انفضاض كل شيء، عن السيد رامي. لم ترد إلا بهزة من الرأس. لكنها أضافت بعد دقائق:

ـ اي هو جارنا.

ـ بس. يعني كيف هو، شكله، لونه، عمره، من يشبه، ها...؟

ـ اي هو يحبها وسيتزوجان. الكل يعرف حتى لو لم يقولوا ذلك صراحة. يمكن حتى قبل التخرج.

ـ وهو؟.

ـ ما به؟.

ـ كيف هو؟ أعني...

ـ يمكن يجيء أو تشوفيه صدفة بالشارع. لازم يحضر لرفع الجنازة.

ـ زين لم تردي كيف هو؟.

ـ ما أدري. اني ما أحب شكله. كل ما أشوفه أتضايق. شلون، والله ما أعرف. عبالك شكل عدو. بس هو مهندم مثل الممثلين. بعده طالب في كلية الصيدلة. بعد سنتين سوف يتخرج وهي وراءه بعامين.

في تلك الأثناء كانت الجدة وفيقة تمر بجوار هجران وهي غافلة عن الجميع. أمسكتها من الذراعين بما يشبه الاعتذار، بحركة بها تكريم شديد، كما لو كانت هجران صاحبة الجلالة. فتحت لها الذراعين على آخرهما. كالبرق، كانت الدموع كالمياه الجارية تمشي على خدي الجدة وحنكها:

ـ بنتي هجران حلقي مليان دم. هذه إرادة الله عز جلاله.

يزداد التصاق هجران بصدر الجدة:

ـ قولي للوالد الجنازة ترفع في الصباح الباكر. عزاء الرجال في بيت أخوي، بيت الجد الكبير الحاج نوري. أملك إذا بعدها تعبانة أنت تعوضين مكانها. أدري أبو عادل عزيز عليكم. لكن هذا قضاء صاحب الزمان. يكفي عاد بنتي. كافي ما عندي حيل على دموعك.

كان هناك إذعان لم أره من قبل مع أي فرد من أفراد العائلة، حتى ولا لعادل حبيب الجدة الأثير. وكما تفعل الضواري باللحم الحي فعلت هجران باليد الممدودة أمامها تقبيلاً وشماً. والجدة مستسلمة. لا تتأفف أو تتذمر. أوصلتها إلى حلق الباب الخارجي ووقفنا أمام الدكة الحجرية وأنا وراءهما، وهي تردد بصوت مختنق:

ـ اي، هجران بمعزة هدى وعادل. والله يمكن أغلى.

لا، لم تقل ذلك لإغاظتي، وإنما لأنه هكذا فقط، كالقضاء والقدر. فسألت هدى:

ـ هدى، هل لأنها...؟

ـ لا، ليس لأنها. إننا جميعاً نحبها، لأننا نحبها، هكذا لوجه الله العلي القدير. لوجهها الجميل، لعينيها الجميلتين ولمستها الكريمة. لكنها ليست مريضة. نسيانها لم يؤذ أحداً. لا منا ولا من غيرنا. هي تنسى فقط، تتلعثم في بعض الأوقات، وليس أمام الجميع، يختفي صوتها ولا يعود بمقدورها التحدث. جدتي تقول، يمه مرضها لا يعدي. النسيان ليس مرضاً. هذه شوية سخونة وتعب من الدروس والامتحانات.

هجران حصلت على الامتياز في القسم العلمي ونالت درجة الشرف في ثانوية الحريري في الأعظمية. نشرت صورها في أغلفة المجلات وبالخط العريض. ظلت تبتسم دون أن يسمع أحد صوتها، وهي تشاهد الثانوية بعدما تحولت إلى تظاهرة. حفرت أرقام المعدلات بأحرف كبيرة

ووضعت في صندوق زجاجي وعلقت على السياج الخارجي. لكن شبان الأعظمية والصليخ حضروا من أجلها هي. في الأسبوع الأول داومت في كلية الطب، لكنها انتقلت إلى كلية الصيدلة بجوار رامي حيدر.

بقيت الجدة وفيقة تضحك وتزغرد. تبوسها من رأسها وهي تنثر الفلوس والحلويات حولها:

ـ اي بنتي الفرحة الكبيرة لما أزفك بيدي إلى رامي. والله سأرقص وأدبك. كلنا سنرقص.

ملحاحة أنا، أعاود سؤال هدى:

ـ يعني هي مريضة مو؟

ـ لا، لا، اسكتي، اسكتي أنت المريضة.

ساكتة، سكتت الآن. وعواء الأشياء والموجودات، الرياح والمنحوتات، الأشباح والأطياف، وذلك اللاعب، ذي الشارب المقصوص، المهندم، العابق بالعطور. قرأت طالعي على يديه يوماً، كما هجران.

ـ ١١ ـ

هجران

حشوت صوتي بالغضب وأنا أترك دار هجران. كنت أشبه قدر ماء يغلي بالقير الأسود، فلم أشأ المرور على منزل هدى الذي يبعد بضعة أمتار من هنا. شعرت أنه مقفر. عادل هاجر إلى كندا بعد فرار هدى بشهرين وزواجها من مصعب. فبدا المكان وأصوات البشر وعلاقات الحب مجرد فضلات. صارت الأعظمية معوزة ومريضة، وحلتني من قبل وها هي تقضي على آخر دعاماتي: هجران. أين سأعثر عليها؟ متى؟ وكيف؟

غادر الجميع إلى مكان آخر، فروا، ماتوا، أو.. على هذا النسق كانت الشخصيات تنهمر أمامي كالشلالات فتتقوّض حصوني، فلا أعود أفرق بين الحجر واللبلاب. وأنا أستعين بفخرية كآخر حافة قبل أن أصل إلى الهاوية. ففي الأيام التالية مدت لي يد العون دون أن أخطو نحوها خطوة، بين ثرثرة آخر الليل، حسب. الطفلة نائمة وبخور تطلع رائحته من بين الشقوق فأتصور وضعنا كالمجذومين من ذوي العاهات. لسنا ثلاث نساء فقط، أو زوجين من الأمهات ورضيعة. كنا نشبه المتسولين العميان، لا نقدر على البقاء جنباً إلى جنب، فالحمى الوحشية هي كل ما تبقى من ثروتنا، إذن:

ـ لا تقلقي. سيعود أهل هجران من الشمال، وهي ستشفى بعد أن دخلت المستشفى البعيد. أضافت بعد وقت وبلا اتفاق:

- الحاجة وفيقة مريضة جداً. فريدة تقول كبدها اختل. لونها صار مثل الكركم، وزنها نزل إلى النصف. أرسلوا في طلب هدى. اي، يمكن لن تلحق عليها.

كانت تواصل إسكات الطفلة بعد أن فاقت وأنا أحضر لها الحليب. وقفت أمامي وفخر بين ذراعيها:

- لا يعرفون عنوان عدولي. فريدة تقول عبالك أمي صار بها فالج بعد ما راح كل شيء من بين يديها: الابن والأحفاد، الجيران والعافية. اللهم لا اعتراض على حكمك. ما تستأهل الحجية كل هذا الشعواط. زرتها أول أمس. عرفتني وما عرفتني. الله أكبر. غصيت بالدمع وآني أبوسها. قالت فريدة ماكو فايدة. ننتظر قضاء الله ورحمته الواسعة. حسبي الله ونعم الوكيل على كل هذا البلاء. عبالك الله دا يقاصصنا. اي ليش يا رب العالمين؟ أستغفر الله من لساني.

ما بين السماوة وبغداد كنت قادرة على تعلم مهنة الموت. كأن الحياة سابقة تنسحب كلما تم الاقتراب منها، فلا تنتظر رجع النداء. تيقنت من أمر واحد لا غير في تلك الليالي الصفراء، ان علينا الانتقال من هنا إلى مكان آخر، حتى لو كان أكثر نتانة.

في أحد الصباحات تسللت وأنا أكتم أنفاسي. فتحت الباب وصرت في الطريق العام. ذكرت لسائق الأجرة العنوان وركبت، لكنه قال:

- المكان بعيد أختي، خارج بغداد.. والأجرة..؟

- حاضرة، بس امش بسرعة من فضلك.

من قبل كنت أدّعي شتى الادعاءات: هجران مصابة بحالة من النسيان فقط وسوف تستعيد قواها من جديد إذا ما ظهر رامي ثانية على وجه البسيطة. رامي السم الذي يأخذ إلى ما بعد الموت. وهجران تنسى هجران، تنسى الكلام واللغة، المرجح والمؤكد، لا تجيب ولا تتلقى. لا تصعب الأمور ولا تعقد الأحوال. خارج العالم كانت، وليس بمستطاعها

إلا أن تكون نوعاً من النبالة التي تتلألأ.

حسناً، إنه الحب، وماذا بعد؟ بل ماذا قبل؟ تمرغت به هجران ولا أحد يعرف متى مرضت. ما هي الإصابة؟ أقول «منذ مرضها» كأنني أقول منذ الأزل. تكاد تكون هكذا وأنا أخاطبها بعد ليل الواقعة، في دارها وهي تبتسم بخفر وتريني منحوتات وجهيهما، هي والأم. تباغتني باعتذار عن اللاشيء، عن الإشاعات أو المرض، عن الاصفرار أو الويل، فتغص بفظاعة الحب. كلا، كانت تقف في الخلف وقبل أن ينهي أحدنا جملته ترفع يدها لتقول: ماذا يعني كل هذا؟ انني لا أعرف إلا هو: رامي، فوهة المدفع أو عجلة السيارة.

- اي، اختي ذاك هو المكان... وصلنا.

من بعيد كان البناء محاطاً بأسوار شاهقة. بلون التراب. لا، لم يكن لونه هكذا. لما اقتربنا اكتشفت أنه دهان مغطى بدهان آخر.

- هل انتظرك أختي؟ ترى ماكو مواصلات هنا ها؟

أشرت برأسي أن لا. كأن أزيز طائرة تجمع منذ ليلة أمس فانطلق بوجهي دفعة واحدة وأنا أدخل البوابة. الجميع ينظر إليّ، الممرضات، الممرضون والمريضات من وراء الكوى الضيقة. أقترب فيبتعدن، ثم يلتصقن ببعضهن البعض. والحالة تنذر بالسوء. رفعن أبصارهن إليّ والأصوات كالسحب، ما إن تختفي قليلاً حتى تعود. ألهث وتتغير النظرات ما بين الاستحسان واللامبالاة. يرفعن أيديهن بالتحية وهن يتصببن عرقاً ونحن في أول شباط. بدوا بشراً آيلين للسقوط والتنازل. يتراجعن وأنا أتقدم.

قابلت الطبيب الاختصاصي بعد جهد جهيد، بالأحرى بعد شجار. وقبل أن أنهي أية جملة، أعني ما إن أبدأ بترديد اسم المريضة حتى يتشاغل عني بأمور جانبية. كان شاباً لطيفاً ممتلأً في بعض الأعضاء، البطن والرقبة، ونحيفاً في الساقين والذراعين. طاوعني قلبي وأطلقت

عليه اسم مذنب بشري. ابتسمت في وجهه قبل أن يدمر ما حضرت من أجله. أردت أن أغير الموضوع. على سبيل المثال إنني على استعداد لإجراء حوار صحافي معه عن الحالات المستعصية وانقلاب الطبيعة البشرية إلى الحالة الكلبية، وإن لدي بعض القريبات اللواتي مررن من هنا في سنين خلت. أقنعته بلا انقطاع: إن المكان هنا موته قليل، وخصوبته كثيرة وأوهامه نادرة، وإن هجران صديقتي لا تزال بانتظاري. أجل، اتصل بي أحد أفراد أسرتها هاتفياً إلى مكان عملي فقررت أن أحضر لزيارتها. أجل، والدها، شكرته فيما إذا قرأ أو نقل لي شيئاً، أي شيء عن حالتها. قلت له ذلك من باب الفضول. أنا أعرف الحالة مثلك، لكني أريد أن أتأكد ماذا يطلقون عليها باللغة اللاتينية، اليونانية أو السريانية. أثرت عليه فتأثر كثيراً، لكنه سعى للتخلص مني ومن ثرثرتي. بتلك الدرجة من الرشاقة والذكاء بدأت. كنت أرتدي تنورة على الموضة وقميصاً حريرياً باللون الأسود وفوقهما جاكيت أبيض غاية في الأناقة. فكان عليه أن يبدأ بالتهامي بالشوكة والسكين. أخرجت سيجارة وقدمتها إليه. نسيت الفواكه والبسكويت. والكتب، المسجلة، الدفتر والقلم، والمكبرة، فكلام الطبيب كان يحتاج إلى مكبرة. هل أنت طبيب باطني أم عالم نفس؟ لم يرد. كان يطلق دخان سيجارته على مهل قبل أن تخلص فلا أعود وأقدم له ثانية. وضعت العلبة أمامه. لم يجبني. لم يجب عن أي سؤال ولا كان يسأل. فقط كان كمن يريد التراجع إلى الخلف. قلت له إنني على استعداد لقضاء العطلة هنا إذا ما سمح لي بذلك. أين؟ في أي مكان تشاء. على طاولة الطعام، أو في حمام المريضات. الممرضات كن يطللن برؤوسهن، لا يتفوهن بكلام محدد، لكن أصواتهن كانت عالية جداً فلم أفهم ماذا يقلن تماماً. قلت ربما هذه هي كلمات المواساة وسوف أحصل على مثلها فيما إذا سنحت لي الفرصة وقضيت الليل هنا.

فجأة سحق السيجارة بقدمه وقام واقفاً. مشى من وراء الطاولة، لما مر

من ورائي كانت رائحة المرض تفوح منه. أدرت جسمي وغيرت جلستي. لم أقف إلى أن وقف أمامي:

ـ منذ متى لم تشاهدي الآنسة هجران؟

لم ينتظر إجابتي. قال ذلك ثم مشى من أمامي. وقف أمام مكتبة عليها رفوف وفي داخلها ملفات زهيدة واقفة بالطول. أول ما مد يده أخرج ملفاً كثير التجعد. فعل ذلك بدم حار فعلاً. ورق للمجاملة ليس إلا وظهره إلي. صدريته البيضاء بها بقع من الأحبار والزفر:

ـ منذ شهور لم يزرها أحد من أفراد أسرتها.

رفع رأسه ولم ينظر إليّ:

ـ ما هو اسمك؟

التفت إليّ. صار قبالتي. تحولت إلى جبانة ثانية. أي اسم سأختار في هذا المكان؟ لم ينتظر إجابتي، فواصل:

ـ والدها طلب أن تبقى بمفردها. كان ذلك في البداية. فربما ذلك سيسهل العلاج. لكن هل أنت متأكدة أنك تريدين زيارة الآنسة هجران، زين، ما هو اسم والدها؟

قلت له أكمل، أكمل أرجوك. والدها، شقيقاها، شارعها، ثيابها و. . لما لفظت اسم رامي حصل الانفجار. نجحت أخيراً، أم فشلت؟ أشعر بالظمأ الشديد وأنا أراقبه. مرت ساعة عادية فيما بعد جلس ثانية:

ـ شاي؟

ـ وماء من فضلك.

سحب أحد الجوارير وأخرج سلسلة مفاتيح صفراء اللون مربوطة تتدلى بخيط من القنب:

ـ لكن اسمك غير موجود في السجلات؟

بدأت بسرد قصتي مع الأسماء قبل أن تبدأ المشاجرة بيننا بوقت قصير.

الوقائع كانت في السجلات، في اللوائح، أما على الجانب الآخر فقد كانت هجران تنفث حياتها ورائي، بجواري، ربما في الغرفة الأمامية فلا أستطيع مجرد الزعم أنني فلانة أو علانة، جزء من الضد أو النبذ.

ـ هي تردد حين تدخل في سورة النوم اسم الرجل الذي ذكرت اسمه. من هو؟ هل هو...؟ تتفشى الأسماء فتعزل الملائكة عن الضفادع، فأخفض عيني وأنا أرشف الشاي البارد، المر، غير المسوّى تماماً:

ـ زين والآن ماذا سنفعل؟ أنا لن أعود قبل أن أراها. قلت لك الوالد طلب مني ذلك. لماذا لا تصدق؟

ـ ولماذا أصدق؟

مؤكد كل هذا الذي يحصل ومسل. أعجبت به حتى لو كان الكدر في أقصاه.

ـ والحل...؟

ورقة، مكتوب، رسالة من أحد أفراد أسرتها عليه الاسم والتوقيع.

ـ عال. وإذا شئت إجراء الحوار الصحافي معك ومع بعض المريضات فما هو المطلوب؟

لا تجب أرجوك. أعرف، أعرف. لا مجال إذن.

كنت أكبح غضبي، ومناعتي بدأت تهزل لمجرد الإنصات إلى كومة التعليمات:

ـ عال قص عليّ وأنا سوف أتظاهر بالإصغاء.

لم آبه لما حدث. صعق وزمجر. أمسكت يده قبل أن يصير ضدي. ورثت له سيجارة فبدا شاحباً، بطنه تقرقر وأنا أقترب من جسمه. عود الكبريت بيدي ويده تهتز وهي تمسك بالسيجارة. من أين أتوجه إليه. بارجة حربية كان. صار بشعاً وهو على وشك أن يعطي الأوامر بسحبي إلى الخارج فبدأت بالصراخ. الوقت يمر، يتقوض. أذكره بالمزيد من

القصص والروايات. كلما ألقيت بوجهه إحدى القصص كان يصغي ويهدأ، ويلقي نظرة أفضل من الأولى. فتح أذنيه وتكلمت بلا انقطاع. تصورته صديقاً قديماً، ولسنا رجلاً وامرأة. وصوتي يذهب إلى أمام، إلى الماضي، إلى اللاشيء. أخرج هجران أمامه، حية كاللؤلؤة وأنا أردد: خذ وانظر، هيا. كنت أبري الكلمات كما هي رؤوس الأقلام وأبدأ بالتدوين. طبعاً ساعدني هو كثيراً ونجح نجاحاً باهراً وهو يلوح بيده بالمفاتيح. كنت أكدح وأطلب كسرة من الوقت. وافق أن أراها من وراء أعمدة الحديد. مللت من كل هذا، فكررت أمامه:

ـ تعال. تعال نذهب سوياً إليها. أنت الطبيب وأنا المخبولة. لا تضحك بهذه الطريقة ولا تنفخ الدخان بوجهي أرجوك.

وقفت أمامه:

ـ وإذا أذتك سوف تشتكين علينا لوزارة الصحة.

ـ إذا انفجرت أو قتلت، إذا وإذا. أرجوك يا سيدي سوف أقبل أن أكون بدلاً منها.

ـ في الأسابيع الأخيرة صارت خطيرة وعنيدة جداً. حتى العلاج بدأت ترفضه. إنها فظيعة.

وقف، اتخذ دور القائد الشهم. المفاتيح تتدلى من يده. أعاد لقلبي بعض الورع:

ـ هل أنت متأكدة أنك تريدين زيارة الآنسة هجران عبد الهادي أمين؟

هززت رأسي، ثم سحبته من يده ودفعته إلى أمام. لم ألتفت إلى أية جهة من ذلك الرواق الطويل الوخم المظلم. الأصوات مبعثرة على الحيطان، وألوان الجدران شوشت بصري. أمشي وراءه، والممرضات كأنهن في حالة طلق. لم يلتفت الطبيب قط، تسمّر أمام إحدى الغرف. باب عادي، يشبه باب غرفتي. في أعلاه مربع يشبه فتحة الأنف. لا

أعرف كيف صممه النجار أو المهندس المعماري أو رئيس الحكومة. الداخل صامت وهادي. جمعت كل قواي، طموحاتي العاهرة التي ولَّت. وكانت هي هناك بانتظاري:

ـ من هذه؟

يجبُ أن يتغلب أحدهم عليّ لكي أسكت نوبة الصراخ المتنافر الذي تدلى من بلاعيمي. حين أنجبت وتيقنت أنني صرت أماً. حين يئست في النادي الرياضي ولم آبه باليأس. وحين تحولت إلى مسحوق خشن والدكتورة هيفاء تيمم شطر رحمي. حين عاد عادل وجرّني إلى صدره الرحيم وأنا أصب اللعنات ورأسي على الحائط. لم أطلق صرخة كالتي... تأكدت أن صوتي سيدوم، سيبقى ولن أضيع منه ولا ثانية:

ـ من هذه.. من هذه؟

أنز عرقاً والرجل يمسك ذراعي:

ـ تذرعي بالصبر بدأت تنتبه.

أواصل. أريد أشخاصاً آخرين يساعدونني على كل ذلك. عاد يهدىء من روعي وأنا أمسك يده وأعض عليها. سحبته ونزلت إلى الأرض وأنا أضرب، مثل خالتي، على الوجه والساقين. أولول وأئن:

ـ منذ متى لم تربها؟ أرجوك اهدئي.

كومة من اللحم تعافه الأنفس كانت. أين هجران؟ ما دخل هجران بهذه؟ ولكن.

ـ هل أنت متأكد أنها هي؟

بدأت أبصق على الأرض، على الحيطان:

ـ القرف، ها، بدأت تقرفين؟

ـ أسكت، أسكت ولا تقل أية كلمة.

أليس كذلك؟ كان صوتاً طالعاً من مكان سحيق لكنه ليس صوت

هجران ولا أي صوت بشري. اقتربت من كومة اللحم عبر تلك الفتحة. أنفاسها تريد إبلاغي بأمر ما. أنفاس حوت ضخم:

ـ صبيحة.. صبوحة.

رذاذ فمها وصل خدي:

ـ ركزي معي، أنت اسمك صبيحة؟

أنا...

ـ عجب، والله عجب هذا الأمر الذي يحدث الآن. سأفتح لك الباب ولو لبضع دقائق ها؟

لم أنظر إليها والطبيب بجواري. لا فائدة، لا نفع. لم نتبادل ولا كلمة. توقفت عن التنفس وأنا أنظر إلى ساقيها الغليظتين والحافيتين. أصابعها استطالات والأظفار وسخة ومدببة. وذيل شرشف يسحل وراءها. لا مهرب. فليكن. صوتي يطلع بالنشيج فأضمها إلى صدري دون أن أرفع رأسي. خفت، كانت تقرأ ما يدور فيه. لم تأبه والشرشف يهبط على الأرض كستارة في مسرح قديم. عارية كانت. بذلت جهداً من جانبي لكي أفك ذراعيها، كانت تريد أن تسحبني إلى مكان آمن. أطلقت ضحكة هائلة، تضاعفت وأنا أحاول لفلفة الشرشف عليها. تجأر وتعوي وتضحك وأنا أنتفض بين ذراعيها والطبيب والممرضة يتدخلان وهي غير آبهة. كانت هناك بقعة في منتصف يافوخها فارغة تماماً، احترقت وكويت فاختل نظام نمو الشعر. وتخطى باقي الخصل بنشاط الشيب الغزير. شائخة، طافحة بالشيخوخة كانت. ونحن لا نتبادل النظر. ظلت تنظر في بقعة واحدة في الأرض وبدأت المشي إلى وراء حتى التصقت بالجدار فنزلت خائرة القوى.

زحفت إليها وأنا لا أنبس بكلمة. جالستان على الأرض، جنباً إلى جنب. بإمكانها البقاء إلى ما لا نهاية في تلك الوضعية. تململت أنا وحركت يدي. مؤكد أنني فعلت ذلك على دفعات. رفعت يدها إلى

وجهي، أنفي، خدي وشفتي وبدأت باللثم. سمينة مترهلة ومنفوخة في البطن والساقين، النهدين والذراعين، في الوجه والقسمات، في اللون ونظام ذلك الجمال. الجمال من قبل، الجمال عن سابق تصميم. والجمال الذي لا غاية له إلا الجمال.

لا أذكر من منا، الممرضات أو أنا من أعاد شد الشرشف على صدرها فبدت كأنها طالعة من الحمام، وهذا مئزر الاستحمام وهي تناديني، تكرر ذلك بصوت كالنسيم:

ـ يا عيني يا صبيحة. شفت ذاك البحار، بحاري الوحيد؟

تصاعد صوت تنفسها الخارق فكورت نفسها ووضعت رأسها ونصف صدرها على ساقي. كانت تتصبب عرقاً يبدأ من لحم الرقبة التي تورمت نازلاً إلى الكتفين العاريتين الملحمتين المترهلتين. العرق يسيح ويتبخر حالاً. ويدها، الكف والأصابع تشبه حشرات مجلدة. والبنية الأنثوية الفائقة التكوين تفككت، ورائحتها تتغلغل فيّ. رائحة غير مؤكدة أبداً انها هي. حين شاهدتها في ليل الواقعة الأليمة في دار هدى، بدت لي انها تنوي الإسراع والتخلص من الأنوثة، أنوثتها. جفلت كثيراً لما كنت أتفرج على بدنها وملامحها، وأنا أبث النظرات على قدميها وساقيها صعوداً إلى ركبتيها الناضجتين خلاف بدنها الصبياني في الطارمة المضيئة وسط عياط النسوة. وما إن وصل نظري إلى ذراعيها المصقولتين حتى فكرت بكسرهما في تلك الليلة. ذكرت ذلك لهدى فلم تجب إلا فيما بعد:

ـ صبيحة أنت شريرة هواية.

رغبت بكسرهما، لكن قبل هذا كنت أنوي ضمهما إلى صدري، لا كالنساء ولا كالصبيان. كانت رغبتي فيها متأخرة من زمان قديم ولم يتم انتشارها فيّ إلا لما كانت تغيب عن عيني، وأنا أدخل المطبخ أو أختبىء بين الغرف الأخرى. فكرت أني لو أبدأ بمداعبتها فقط فسوف تتهشم بين ذراعي بصورة تامة ولن يعود بمقدوري، لا أنا ولا رامي، إعادتها حتى.

كلا، لم يرق لي النوم معها كهدى. كان الأمر خلاف هذا. كانت الروح البشرية تزداد انغلاقاً ولغزاً عليّ. فلا مظهرها كان داعراً ليستفزني ولا هي طفلة لكي أحيط رأسها براحة يدي وأنا أمشط شعرها. حسناً، ماذا يريد منها أولئك، شبان الجامعة وطلبتها، أساتذة القسم، رجال القصور والعربات الباذخة، وهو، السيد رامي؟ عندما تكون بانتظاره في أول الجنينة الداخلية. تبدأ بإنشاد صلواتها الليلية، تنفخ صوتها الذي يطلع من المخبأ وتنادي: اللهم أعد البحار الغدار، اللئيم، الفاجر. اللهم أعد الهلال إلى ندى السماء، والحزن إلى القلب الكليم. فتمشي هجران في الحلم قاطعة آلاف الأميال ذهاباً وإياباً، تستفحل بها الغيرة المارقة من النساء اللواتي يحطن به وهن مخمورات برائحة النضال المظفر والبطولة الخفاقة. في الحديقة تنتظر مقدم القائد المبجل، الذي يتأخر دوماً في المواعيد والاجتماعات الحزبية، فلا يعود إلا في ساعة متأخرة. في انتظاره تكون، فتردد: شكراً لأنه غائب دائماً لكي أتوالى بالانتظار. شكراً لأنه موجود بكل هذا الفقد. لا ترثيه، لكنها تخيط نفسها ثانية وتفككها مجدداً حتى تعود وتراه. تغرز إبرتها في البدن وتعيد خياطة الصدر والكبد، صاعدة إلى الحلق. لم تكن الآلام ولا الأوجاع قد بدأت. فلا أحد يدري بالضبط متى بدأ كل شيء معها. فما دام رامي مفقوداً ستظل تبحث عنه، حتى لو لم يستأذن في الدخول إلى غرفتها ليلاً، ستظل تأكل لحاف السرير وقطن الوسادة وملح الأرض لكي تراه أمامها ثانية. لكن لن تراه أيضاً. كانت تريد منه إسدال الستائر وهي تدخله غرفتها في الطابق العلوي خلسة. أن يطفىء مصباحها الليلي، يدثرها جيداً، يقبلها في جفنيها وهي ذاهبة إلى النعاس. يتركها هادئة بين يدي الطاعة.

ليلاً وبعد أن ينام هؤلاء وأولئك في المنزلين المتقاربين، تومىء برأسها فيدفعها وينسل. تنظر ولا تعرف ماذا ستفعل معه فيما لو مد يده إلى، وإلى. تدري أمراً واحداً فقط، إنها مغرمة به وكفى، وكل شيء لائق في

الحب، فيتصاعد الدم في رأسه ولا يعترف بذلك، إذ ربما انتهى الأمر قبل أن يبدأ. وإذن، ما عليه إلا إطفاء المصباح والبدء بدعكها تحته. أسنانها تصطك، وبدنها يختض وهي تستحي فلا يسمع لها صوتاً. هدى تقول:

ـ لم نسمع صوتها. جدتي كانت تشك أن لها صوتاً أصلاً. طبعاً كانت تتحدث، لكن إذا ما بدأت كانت تشعر أنها متورطة فلا تكمل ما بدأت به. لا تعرف ختاماً للجمل. جملها ناقصة دائماً وغير مفهومة. الكلمات تنقط من فمها غير واضحة، وكأن كل شيء يحدث وراءها وجميع الموجودات ما هي إلا عبء يتكرر ويتكرر ولا تعرف ماذا تفعل به. والآخرون تكاد لا تراهم. لا، ليست متكبرة، على العكس، من شدة الحياء كانت تبدو هكذا. الحياء الذي لا يوصف. لكنها قدام رامي كانت. . . والله ما أدري صبيحة إن كانت نامت معه أم لا.

ألح عليها:

ـ زين والجامعة والمحاضرات و. . وكيف؟

ـ الأساتذة يقولون إنها تشبه الآفة في الصف والمختبر. يمكن العلم خبلها. لو رامي. والله ما أدري. لا أحد يدري.

لكن رامي يكشف عليها فتتمايل بين ذراعيه كما تفعل في نومتها هذه. كانت تحلم، الحلم المتباطىء وأنا ألقي عليها نظرة، نظرات وهي تتراكم أمامي.

من هناك، وليس من هنا كانت تسمع الأصوات ليلاً تناديها فتردد وراءها: «اتبعت نصائح الآلهة شاماش وآداد ومردوك. فاتخذت قرارات حفظتها في قلبي. حفظت قياسات البرج في ذاكرتي ككنز. وضعت الأسس تحت الآجر. ذهباً وفضة وأحجاراً كريمة من الجبال ومن البحر. أمرت بصنع تمثال لشبهي الملكي مرتدياً (الدوبشكيو) وجعلته في الأسس، ولربي مردوك أحنيت رقبتي وخلعت ردائي، شارة دمي الملكي،

وعلى رأسي حملت الآجر والتراب. أما ابني البكر ـ نبوخذ نصر ـ حبيب قلبي، فجعلته يحمل الطيب وتقدمات الخمر والزبيب برفقة أبناء رعيتي».

حاولتْ النهوض أمامي لكنها لم تفلح. في رأسها دوي شديد، وروحها صفحة مكتوب عليها كلام ممحو وهي تهوي وتهوي وليس باستطاعتها الصراخ. كل شيء ممحو، ولم يبق في رأسها إلا تشكيلات من المحو وأسس ذلك البرج، فتهوي بين الآجر والطين. أما الذهب والأحجار الكريمة فبدأت بتحضيرها لرامي. بلى. بزغت للتو بلورة خالية من الشوائب. أراهما يتأرجحان أمامي. لا أشجار تميل في الطريق. لا رجال ولا نساء. لا أزواج ولا أصدقاء. هذيان ودمدمة ملوكية تطلع منهما، فتتناوله الروح وتهمس في أذنه:

ـ خذها بدل الطمي والذهب والحجر الكريم. خذها واشرع فيّ حالاً ولا تشتت أحداً من أبنائي. أطلقني في المدينة ثانية كي أعيد تنظيم نفسي وإياهم، فلا تنزل لعناتك عليّ وعليهم. أطلقني ما بين أرض السواد وأصوات البلابل الصداحة، بين الفرات وآلهة الأرض. تريث قليلاً أرجوك قبل أن تبلغ حدود الافتراء. تمهل فأنا أريد أن أعيد عليك تهجي الأسماء، عشرات المرات، فأنت نسّاء، تنسى. ألم أقل لك: ذلك البرج سريري ومكان عباداتي ونقوش كتاباتي الأولى وحوضي الوحيد الذي صان دمي؟ وها نحن على مقربة من المكان الأول: العدة والبخور والترحال. بين سرور الحب ومراودة المحبوب. بين سرير البدء وفرح الاغتسال والوضوء.

ليس ثمة إلا رامي وهجران، ثمة شبر من الحياء ومثقال من الإغراء. يا مليكي، يا سيدي، يا أنت. كيف حضرت إلى عشبي وحواف وقتي؟ ذاك هو برجي حين عزمت على الوقوف أمامك. أنت رامي، حتى لو شئت وبمنتهى القسوة الغرام بغيري، حتى لو شئت ذبحي بمنجل، سأنجو وأنجيك معي.

عدت الآن من اختصاصي. أنت لست هو، لما أخذتني بين ذراعيك وبدأنا صعود البرج. أجريت عليّ الترميم والتعديل، أجريت الإبادة. لكنك لم تقدّر التلف. طوقتني، أنا متأكدة أنه جسدك، لكنه ليس جسد رامي. أنت لست «كبير الآلهة». مقاسك ريفي وفيك عجرفة وغدر. وتلك جبهتي الشمالية، فسحة رأسي. وأنت تطوقني بين ضلوعك وتمسح خصل شعري بالزيت الدافىء. كأن الشمس تركل الدنيا من أجلنا. وحدنا في البرية وجميع المواقع خلاء، وأنت تبني بي، وأنا أنسخك ألقاب أولى السلالات وآخر الملوك. لكن دون جدوى كان كل ذلك. لماذا تفلت من بين يديك الواجبات الأولى وتكتفي بالبناء بي؟ وجميع مصادر البنائين بين أيدينا، ونحن نملك جميع الأساسات، وأنت ليس بمستطاعك إلا قياس الارتفاع والهبوط، فلا تبلغ إلا فض الشجارات التافهة بينك وجسمي.

من شرفتي الفسيحة أراك، من مستودع القمح وظمأ الأناشيد التي تريد الهتاف عالياً. أناديك فلا تعطيني الدليل أنك عثرت على ماء الوجود، مائي. تعبث، تتوحش وتوجس خيفة بي ومني، فأصير فاترة ومياهي تعود وتنضح إلى تربتي وحدي، وأدري إذا ما نكصت سوف يحل الهجر بيننا، لكنني لا أعبأ وأنا أهيىء لك مقدمات أطايبي. فتقدمني إلى جسمك المرصص بالشحم والعضلات. يدك تأكل من نهدي، فيرق لحمي، وصدري يدوخ وصدرك يحز بطني. فتشرع بي، تحملني وتضعني فوق برجك، إلى حيث يشاء الرب والليل والأجداد، فأزداد فوحاناً وألتف عليك، أطفو، أميل، أستدير ولا أعضك. فتصرخ:

ـ عضيني، ارفسيني، هيا لا تسكتي، هيا. لا حدود للجسد إلا الجسد.

والثمار تيمم شطر الثمار وأنت تريدني، تقول ذلك باللسان والذراعين، باللحم والعرق، بالرذاذ والألم والفراق والخوف والاعتباط، بالبرتقال والنعناع، وتصرخ:

ـ أريد دحرك كي يبدأ إلهامي أنا.

وأنا عروس البرج الذاهبة إلى الطوفان. أنحدر إليك وأنحل فيك لكنني لست أنا، وأنت لست أنت. شفتاك تقطران البهتان، فأنوء بأثقال عزمي فلا تشد أزري. تلثمني وتعين حفر البرج. لا تبصرني تماماً. تشدد على جمعي فأتهاوى على بعضي. لا تبتسم ولا تفرح، والآلهة تحب الفرحان، الفرحانين. لا ترضى بي. أخفض عيني عنك فأرى نفسي دجاجة مريضة ولا أنادي عليك ولا على أي أحد. تفتري وتتخطىء في أصول الألفاظ والكلمات والجمل. والدم بين الأسنان وحول سوري، فلا أرفع يدي، لا أدعوك باسمك ولا بأي الأسماء. ساكتة، عمياء، أتوالى وأتكدح كالعبيد في ساحة البناء. وأنت تضرب وتردد:

ـ لا تحبيني. الحب برج اليأس.

لا تتفوه باسمي. تغيرت فجأة وأنت تبلع لسانك وتعيده إلى فمك. صائغ سيىء أنت لا تقدّر رنين الذهب ولا تعرف كيف تقيمه على الحلمة والكاحل. فأغمض عيني على اللوح المحفوظ في ليل الأعظمية المر. ورامي أمامي فحل مخبوص متهالك ومستعجل. يجفف دمي ويفتري مرة ومرات. ثم يتناولني ثانية ورابعة فأصعد وجهه إلى وجهي وأراه هلالاً عاقراً. أقبض على رأسه، أحضنه، أقربه، أرى عاج عينيه يتكدر فلا يعتريني إلا كرم ضمه بين الجوانح، كأنه سينقرض بعد ثوان، سينخفض إلى أدنى حد فلا أدري لماذا بدأ هو بالصراخ وأنا فوقه. أضمه إلى صدري وأدنو بكليتي منه. لماذا لم يتفوه بكلمة واحدة وهو يفتري؟ والغرام «أساس الأرض والسماء» صلة الأبراج بالبنائين؟ والإصحاحات الأولى في سفر التكوين. في تلك البرية الصريحة ينكشف البرج عن قاعدته، الإله عن ملكه والعدل عن أساسه، وأنا أتكاثر وأتبرعم وهو لا يدري.

هل هذه هي الأرض العراقية الأولى؟ أم هو سرير فلانة الفلانية في

البيت العراقي كذا وكيت؟ فبعد أن تمهلنا قليلاً أتى على جميع فطائر الخبز والجبن والزيتون وباقات الريحان واللحم المشوي لم يشر عليّ بالاقتراب منه. يفارقني متمهلاً ولا يغادرني، فيأتي على الطعام كله دون أن يرمش له جفن، وأعود هادئة بين ذراعيه. في تلك الثواني عاودتني أوجاع رأسي وبدأت قسماتي بالتجعد. وبت أشعر أنني هرمة، وما الشباب، شبابي إلا كومة من النشار، وأن جميع ما مر بدأ بالتنكر لي. فماذا سأكون بعد ثوان؟ ماذا وماذا؟ وهو يعاود أخذي فلا اتساع للزمن لديه، لا غداً ولا بعد خمس دقائق أو بعد قرن. الآن للتو وحالاً. وما عليه إلا الاستعجال قبل أن تفعل نفسي بي أمراً ما. وهو يراني أتحول بين ذراعيه، كائناً غريباً أصير، عيناي تكبران وتجحظان أو تصغران، ولا أجيب عليه. بلى، بلى، أقول له هذه أساسيات البناء لكنه يواصل وحالتي تتفاقم. وبعد ساعات، ربما أكثر من ذلك بكثير فلم أعد أتذكر، شعرت بالخواء، وأن لا جدوى ولا ضرورة فلن أخلف ورائي إلا دمي العراقي الطيب. وهو لا يزال ينكب عليّ وأنا لم أعد أفهم، لا الهوى، ولا المرض ولا الهذيان. عارية كنت كالبرج وعلى وشك الاكتمال تحته. أجس جسمه كما لو كنت عنكبوتاً يريد مص دم الصيد السمين. في تلك اللحظة بدأت أعضه، كما تشاء المغرمة الصبورة. أعض وأعثر على لحمه الناهض، المزيّت. في تلك الليلة فقط سلم لي أمره ونفسه كما أشاء. فبدأنا بتدبير شؤون موتنا ومودتنا بدون توقف. كلما أعض أستدرك نفسي وأدشن قوى جديدة لم أعرفها من قبل. غريمي هو، محبوبي، برجي، فريستي ووطري. هذا الريق المخصص للظهر والذراعين، للصدر والفخذين. أستبدل ثمار الجنة بوجبات أعضائه. أعض وأردد، لأول مرة بصوت واضح؛ ما هذه إلا البداية. ورأسي يزداد ألماً وعذاباً وعتمة، وبطني بدأت بالوخز. كأنه ليس رامي المعشوق المفتري. كأنه واحد فقط من أبناء تلك الشنيعة: الدنيا، وهو يبسط جسمه فوقي، يزفر، يعيط،

يصرخ ويتأوه. هو الآن الحبيب المختوم بدمي، المحبوب بدمعي، المرصود لاعتباطي. فنبدأ سوياً بالاحتضار، نموت فحسب. ورامي، لأول مرة لا يفتري وأنا أفتك به. أبدأ بمعارفي في القتل الحنون أداتي الأولى: نفسي. فيبدأ الصراخ بدلاً عني. قلت ربما فعل ذلك من أجلي كي أحبه أكثر، لكي أضحك.

صراخ، صراخ. يكتمل صراخه فأعرف أنه ليس من الكواسر. أسمع جلبة ووقع أقدام، عادات تأخرت عن ميقاتها، وآلام تنزهت قريباً مني وها هي تفيض على ما حولي، فتناشدني التوقف فحسب، هنا فقط. صراخ بدأ باختراق الشبابيك وجدران الحجرات. كواكب منسية نزلت وحطت على السرير والغرفة ووجهينا، والسيد رامي يتخبط بدمه: دمي الأول، فصار صوته لانهائياً في الوجع والشقاء.

أصوات بكاء تتسلل إلينا، دموع لا يظن المرء أنه سمع طوال حياته أرق منها، تتدفق بإجلال وتعال. وحزن، كان خليطاً من الورع والذهول، أغلبه يفيض من وجه أبي. حزن فوري جمع شتاته واسترد نفسه فبدأ صلباً، خاصاً بالإباء، محفوظاً من السنين القديمة. ألم، كانت أمي توجهه صوبي وهي تلبسني ثيابي على عجلة فتبدو في حالة انفصال تام عني. كأنها مجرد مربية تكبرني بقرون وما حضورها إلا لمعاينة البرج قبل التنكيل به. ذراعاها ترفعانني وكأنني شخص مجهول انتصب أمامها وما عليها إلا إخفاؤه ونسيانه. تمسح جبيني وتغطيني بجسمها. والشراشف بيضاء، بيضاء. وأنا لا أسمع إلا موجات من أصوات بعيدة ودموع وأذرع عارية في حركات فجائية وأحاديث هامسة وأبواق سيارات ولباس ممرضات ورائحة عقاقير، يود، إبر طويلة فيها سائل أزرق، وحقن وأدوية، وحياتي الأولى وأنا أرتدي قميصاً مفتوحاً من الخلف. وأبي كان هو بعدما تحول إلى طيف مشبح.

وهجران يطلع لسانها من بين الشفتين ممدوداً إلى الخارج. وأنا ما

زلت أقبض على يدها. كانت تريد مناداتي. خطر لي أنها تريد أن أقص عليها الحلم، حلمها. حين عادت للتقلص ثانية وصوتها يندلع ثانية وثالثة. والأذرع تلتف على الجسد الأصم. فتبدأ بالارتفاع. ارتفعت كثيراً، نأت في تلك اللحظة، فتيقنت أنها لم تعد راغبة بملاقاتي قط، كما فهمت يوماً بواسطة المكتوب إياه، ذلك المباغت الذي وصلني من المناضل والشاعر كمال عبد الرحيم ومن خارج الحدود، وهو يرتفع عالياً بطائرة الخطوط الجوية العراقية. يضرب بنفسه الأمثال ويكتب لي نثراً لا ينقسم على اثنين، ولا يرقب ملاقاتي كمواطنة عادية ومن عامة الناس.

- ١٢ -

المرارات

- اعمل سفيراً أفضل لك من عاشق.

هكذا قال لي مدير التشريفات في وزارة الخارجية وهو يسلمني أوراق التعيين وملف السفارة الجديد. في مرآة المصعد وأنا خارج واجهتني هيئتي: ليست كما ظننت. وجه مطابق للرجل الذي كنته. وليس في مخططي أن أغيره.

لم يضع أية أدلة فوق طاولتي لما زارني في الوزارة قبل أسابيع بعد انتهاء الدوام الرسمي. تصور نفسه كاهناً يريد تلطيف ساعات الاحتضار الطويلة تلك.

أنصت وأدخن بهدوء. أشرب من «استكان» - النومي بصرة -، الذي تصرين على ارتشافه أمامي كلما حضرت إلى الوزارة، فأزداد انكفاء حين تغادرين. أدري أن بمقدورك تحويل جميع المشروبات الساخنة والفاترة والمرة إلى شراب الجنة.

- هه، أنت لا تصغي إليّ. ما رأيك؟ عام أو عامان تعيد ترتيب أوراقك وشؤونك قبل...

دون حراك ولا مقاومة، واللقب يسدد إلى رأسي: عاشق ولا محبوب.

أسترخي على الكرسي المريح في الدرجة الأولى من إحدى طائرات

الجمبو. بلى، على المظاهر أن تبقى مضاءة كالثريا؛ بدلة بلون الحليب، قميص ناصع البياض وربطة عنق شديدة الأناقة، تنقصني القبعة والنظارات السوداء لكي أبدو كالموظفين الساميين في بداية القرن. هكذا جرى شحني إلى إحدى الدول الاشتراكية.

عال. لم يعد هناك متسع من الوقت إلا للسياسة. لكني وضعت يدي فوق الطاولة وأنا أبتسم بوجه صديقي القديم. كان مدير التشريفات يصادفك وهو يتجه إلى قلبي، يشمّ عبقك ويدوس بالأقدام على أنفي لكي لا أستنشقك.

السياسة تاريخ وفاتي وأنت ميقات دفني، وبين هذين الوقتين كنت أواصل كتابة الشعر، أرسم وأغرم بالنساء. أوشكت غرامياتي أن تكون سياستي الأولى والأخيرة. في التاسعة والثلاثين، فجأة أدركت سني عمري.

وكان ثمة الحزب. أينما أيمّم وجهي وفي الساعة المعلومة يكون. أستدير فيواجهني، أتململ يسحبني، وحين أجن ينتظرني. في الصبا والشباب وعادات الرومنطيقية والامتثال، صباح مساء، ما قبل القيلولة وبعدها، يهبط ميزان الحرارة فيحممني الحزب بالماء البارد لكي يشد العضلات. نهري جار فيه، وأيامي تتساقط بين الفروع والقواعد، بين أمانة الأسرار ومراسيم الحماس المنقطع النظير. بين وقت وآخر، كنت لا أستجيب للنداء، كلا، لا أراوغ لكني أنشد قصائدي بلا ترخيص، أنشد باستقلال بسيط. أنشد في أيام عادية وعلى سرير النوم، أو في إحدى الحانات وأقول، أنا، وأنا. فيخيل لي أنني حر. يوم في الأسبوع، يومان من الحرية، قبل أن تبدأ المساءلة، الملاحقة أو التهديد بالتجميد. لكني أعود، وأعود. كم من السنين انقضت وأنا أعود. قصائدي في حقيبتي كأني في سوق خيري، ورسومي طالعة من دار التمريض. أقف أمام بوابة الحزب كالمتسولين وهو يوزع علينا الخيرات، وليس بالتساوي. فأعاود

أكتب كما لو كنت صاحب عاهة. حدث وصار الشعر عاهتي، فأستبدل ذلك بوفرة النزوات والمغامرات وأتحاشى أن يرى أحد يأسي. لا من الحزب أو الشعر أو مما كنا نطلق عليه بالخطة الانفجارية. اليأس من مجموعة الاستعارات التي كانت تقول الشيء ونقيضه. أردد هذا أمامك الآن ولا أضع خطاً تحته كما كنا نفعل ذلك في الاجتماعات السرية وأمام شاشات التلفزيون وقاعات العرض في السينما والمسرح، كما أراه الآن في السماوات العربية وأنا أطير فوق أجواء دمشق الشقيقة مروراً بتركيا الصديقة مسترسلاً في طريقي إلى براغ الرفيقة، حيث مقر شغلي الجديد.

هذا قدحي الثالث من «الجن تونيك». أنت التي علمتني إياه. تأصلت جذوري على رائحة العرق فألهمني المستكي ملكات الروح وتوقد الفؤاد. حتى حين تغير المشهد الثوري وصار (السكوتش) الطريقة المثلى للثوري في معرفة الذات والآخر، بقيت أعاشر شرابي الأصلي وأعطي دروساً في خصائص الخمرة العراقية. فبقي السخط يعتريهم مني أنت واحدة منهم.

سألت زميلتك فاتن عنه بصوت جاد. لم أرفع رأسي. كنت أكتب إليك هذا المكتوب. أجابت على ما شعرت بابتسامة. وفاح عطرك في أثناء ذلك. تماماً، هو عطرك المادي والطبيعي. لما شممته أول مرة في أحد المعارض وقع المحظور. أجبت:

ـ هو عطري تماماً. سمه هكذا. وسوف أعممه على جميع خطوطنا.

كان مجموعة من الأعشاب، الأزاهير والزيوت، أضفت:

ـ أحضره بنفسي من زيوت اللوز والليمون. الخشب المحروق، الصندل والزعتر البري. من القداح والجوري والنرجس.

خلطة إلهية كانت تشطرني إلى آلاف الأجزاء وأنت توزعينه على زوايا مسامك كالبخور. تنثرينه بين المخاديد وثياب النوم. ومن أول الجنينة أجري وأتعثر لأضمك إلى حضني وأوشك على البكاء.

ـ لا أستاذ، هنا لا نقدم العرق، معذرة.

ـ ولماذا. . . ها؟

حين لا ترد، أواصل:

ـ طيب. جن، جن.

ـ بالصودا طبعاً أستاذ.

ـ والثلج الكثير.

أريد قدحاً من العرق الآن والساعة تقارب الواحدة ظهراً، ورجلان بثياب مدنية، أحدهما يجلس أمامي بمقعدين يقرأ صحيفة «الجمهورية». والثاني ورائي بمقعدين.

حين تصل القطرات الأولى إلى جوفي تهلهل الخمرة بصوت صداح ويتورد قلبي «ويبدأ فرحي فأثق بأن في العالم اثنين أو ثلاثة على الأقل، لا بد أن يكون للغة معهم حد أدنى من سوء التفاهم، وهذا نفسه ينطبق على الكلام، فحين يبدأ قلبي بالكلام، وحين تأخذ جسدي عادة اللغة، وأحس توهجي إزاء صديق أو رفيق، امرأة أو حبيبة، حين أكون مخلصاً مثل ذروة توشك. . . ثم في ساعة صدقي هذه أكتشف أنني بشكل ما وحيد. يأتي الشعور بالمسافة من جديد، فأجن. هي. . . أنت لا تصغين إليّ. . . فأكتشف الحيلة، وأضبط الصديق والمرأة، والحبيبة متلبسين بالخيانة. يمكن إدراك ذلك بالجنس، ذلك لأن الحيلة فيه تغدو أحياناً ممنوعة وغير ممكنة. ويمكن للكذبة فيه أن تلمس بالأصابع».

آه، في غرفة النوم وعلى الفراش، وبكل جلاء ووضوح كنت تراقبين أعراض ذلّي. كنت تتمايلين بإيقاع طقسي. لا تسرعين لكن على أهبة الاستعداد. هذه هي اللحظة المرتقبة.

وحين قلت، هيا تعال، يقف ذلّي فيما بيننا. لا أحد يشتبه بك. هامتك مرتفعة والفيضان لا يتوقف وكرامتك ترفرف. أراها وأنا مطلي بالذل. أعترف بعبقرية نظامك الشهوي. أنت تراوغين ربما، وأنا لا أكذب

لكنني ذليل ومخذول. «مددت يدي ورأيت جسده المهمل وقد فارقته دماؤه ورأيت إصبعه الأمير وقد تنازل عن كبريائه. نكست رأسي وأنا أتفتت: ليش يا حلو؟ لماذا يا سيدي؟ وكدت أبكي، فأثار بكائي غلمتك، وعلمته الكبرياء من جديد، وكمن يولد من جديد: رأيت سبابته تمتلىء بالدم. وتتطاول مثل طفل يستيقظ من نومه. وجاء الحب وتمجدت الكبرياء» يا لذلة الرجل، الشاعر، الرسام، المسؤول والوزير.

كذبت كثيراً أمام زوجتي وورائها. كذبت في منامي وأمام حشد من المواطنين. كذبت في العديد من القصائد ولأهداف لا معنى لها، كذبت في الإصغاء والحديث، إلا في المضاجع يظفر الصدق مني والذل أولاً. وأنت تستطيعين أن تخلصي نفسك بالتحليق عالياً، بالاستمتاع الجارح والترحال الفجائي، حتى لو كان بهتاناً وافتراء. النوم معك يحمل كل طاقة الكيمياء وحرارته وحموضته. فيتحرك في «ارتباك القلب والأعصاب» بتلك الشناعة من الذل. في الليلة الأولى كنت ترفضينني،

يا لسوء الطالع،

يا لسوء التفاهم،

يا للذلة.

هل كان للذلة علاقة بالسياسة أم بالحزب، بالشعر أم بالنضال؟

علاقتي بك كتبتها ضد السياسة، لكن أخذت عليك اللاحنان. وأنا «رجل مجنون بالحنان. أنا رجل محروم من الحنان. منفي إلى كل الذكريات التي تعيش خارج عذابه «هو»، وفي عنف رغبته بالتعاطف، مستعد لكل البطولات، لو أتيح له خيط من الحنان»

«ما هذه اللغوة؟»

نسترخي، فأتلو عليك قصائد السياب. ما أن أبدأ حتى تكملين أنت.

اللعنة، ليس هناك أجمل من أحاديث الفنون والشعر والثقافة ونحن نغص «باللعاب والدمع والعرق والدم»

ومع هذا أنا أفهمك جيداً، وأنت تجيبين:

ـ لا، أنا لا أحب العرق. أرجوك... لأن..

أيدينا متشابكة. رائحته تستفزك كزوجتي. قضيت الليل بجوارك وأنا أحدثك عن العرق أولاً. اسقي بدنك وقلبي بين الجوانح يتورد. قلت لك:

ـ لو تذوقي قطرة واحدة، واحدة فقط، ستعيشين حياتك الخاصة، بطريقة عجيبة.

هنا علقت بطريقة فطرية جداً. رفعتني إلى علو شاهق وخبطت بي الأرض ووجهك هادي:

ـ لا، رائحته تذكرني ببدر.

تلقيت الصفعة وأنا صافي القلب كأنني أدافع عنك قبل أن تفرط العلاقة. ولو تصدقينني، انك جعلتني أعود إلى أحداث وملفات عتيقة جداً، في النادي الرياضي ومتوسطة السماوة حيث كان يدرس السيد بدر. قرأت وسمعت معظم المحاضر والأحداث القاتلة، وضقت ذرعاً بك، وأسأت الظن، لكنني «إذا صدقت كلامك بأنك ستحدثينني مرة، مرات، وعدت نفسي وحاولت أن أتطابق وأتفاهم مع قلبي، بحيث صار البحث عن الحنان حناناً جديداً أردت أن أصادقك فيه».

ماذا؟ فشلت؟ وإذا فشلت طز، ما الذي سيحدث؟

لا شيء.

هذا كان في البداية.

لكن اسم بدر غدا شهيراً لديّ وأنا أخاطبك وألثمك. أحمله بين ذراعي وأشيله معك إلى حوض البانيو. أغسلك وأبدأ بأكلك. لم تضيعي الوقت

قط كما تفعل الباقيات. دخلت الموضوع رأساً ولم يكن الأمر مسلياً أبداً. شعرت للحظة أن عليّ المشاركة في مراسيم التأبين وإعادة الدفن ثانية. وصوتك يتغير، نضج وتشذب، فتحولت إلى امرأة مسنة تنتف ريشها أمامي لأرى اللحم الحي. وبين السكر واللعثمة كنت تغنين. حين وقفت عارية أمامي تسألين عنه:

ـ ترى هل لا يزال حياً؟

تخاطبين طيفاً يقف وراء ستارة الحمام:

ـ ترى أين يتم العثور عليه؟ وهل بالإمكان ملاقاته ثانية؟

لهجتك ملتاعة، وحزنك دام، وذلي صار أليفاً:

ـ إذا قتل، أدري أنه قتل ولن أسأل لماذا؟ لكن دعني أردد اسمه أمامك، فالآن «أنتم الطلقاء» وأنا لا أعرف أحداً من أصحابه ليسمعني، لكن عندما أنادي اسمه يرضي الغرور.

كنت تتحدثين عنه كأنه سيحضر غداً. كأنه نائم في إحدى الحجرات المجاورة وإذا ما استيقظ سأراه أمامنا.

كان صوتك يوقظني وأنا في حجرة نومي بجوار سلافة زوجتي، فبدأت أنتظرك وإياه، كأنك تشقين له الحياة ثانية وترددين أنه قادم وسوف يطرق الباب، ها ألا تسمع جيداً؟ وأنا في زيي المدني، في الحفلة إياها، وأنت امبراطورة متوجة تتلألئين. والقياديون القدامى والجدد وأعضاء من الجبهة الوطنية يسيرون على مهل أمامك وأنت المنتزه. رجال، لكن غير متحابين فيما بينهم. نساء يعاودن النظر شاحبات معذبات وأنت تجففين يديك بهن. اسمك في البدء، اسمك أولاً:

ـ وئام....

وابتدأ الحفل. كان ظننا زائفاً. لا نشبه الدبابير ولا النباتات السامة. قادة نحن، وهذه هي المودة. ثملاً كنت وظلك يتعقبني وقائمة بالأسماء

والمعلومات ضدك. هناك تعرفت على اسم بدر. سجلوه أمامي بخط حزبي قاس. كيف حضرت إلى ذاك المكان القصي؟ من دعاك؟ ولماذا لبيت؟ هل هم عشاق قدامى، أم ما زالوا على القائمة؟

قرفت من دناءة السياسيين، عانيت بطبيعة الحال من هذه السادية في العلاقات والثقافة الحزبية، وإذا كانت «السادية تحمل مدلولاً سياسياً وتحيل إلى ألم جنسي، وينتمي إلى طبقة مسيطرة» فإن القسوة التي شاهدتها في قسمات وجهك، كانت تشبه القيمة الشمولية. كنت تدمرين في حركاتك آداب السلوك الحزبي المحافظ والكثير من المقدسات التي لم نكن نجرؤ على تأويلها. صحيح أن أفعالك فسرتها بالضرورة، لأنها الحل الوحيد أمامك، لكن المشكلة التي واجهتني أن إغراءك كان أخلاقياً. كيف أجلو لك هذا الأمر؟

بدأت الموسيقى وبدأت تميلين ميلاً خفيفاً في مكانك. لكن سرعان ما بدأ جسمك يتلاطم وحده، بمفرده. لا أحد برفقتك إلا بدنك، شعرك ولهاثك. كنت ترقصين بحقد ضدنا كلنا. كان حقدك «ينفصل عن الفظاعة» ويقارب الخيال. تتلاشين فحسب، وكل هذا كان غير معقول. ابتعدت عن أولئك وهؤلاء. كنت تفضلين توجيه التهم إلينا واحداً تلو الآخر وتقترحين طرقاً أعنف لحذفنا من أمامك. لم نأذن لك بهذا الحذف، لكن رقصك كانت تصعب معارضته. كان هو يأسك التام، فبدأت تصدرين أصواتاً غريبة بين المواء والحشرجة. لم يكن رقصك وثنياً ومعذباً. كان يأخذ شكل القدر المرعب فلم ألاحظ أنوثتك تلك الليلة كامرأة مشتعلة تريد تأجيج ما حولها. كنت تنذرين بشكل من الانحطاط يندفع فيك ويعود إلينا على شكل أواصر، أو عوائل، على شكل اجتماعات حزبية. كأنك في كل خطوة من ساقيك وذراعيك وأنت تدبكين وترقصين تريدين تفريقنا إلى فرادى ولا تتراجعين أبداً.

يوماً لم أرك جميلة ولا مغرية. كنت معذبة بطريقة راسخة، رغم كل

ازدحام الفجور التي كانت تفوح منك. لكن ما إن بدأت بالغناء، ما إن صحت بعد أن أشرت بيدك على الموسيقى بالتوقف:

«أريد أصعد جبل حمرين وحدي
وأباري حلو الطول وحدي
أريد ابجي وبجي الناس وحدي
وبجي كلمن فارك أحباب»

صوتك وحده جسدك، وأنت تنادين على البدر، بدرك:

«دالع تلاكه اوياي وعيونه شهلات
تسجد له كلها صفوف
محبوبي لو فات
شبه البدر وضاح بخدوده شامات
يهل الهوه اتلومون
ها شخصي لو مات»

كان بدر يواصل العيش معنا بلا انقطاع، وأنت تنادين عليه. تيقنت من وجوده بعدما سمعت بعض الإشاعات عنه وعنك. بزغ أمامي، لوحده، إذ كنت بانتظاركما سوياً. وها أنا أعترف لك بأن بدراً كان سيد ذاك الحفل. تجمعين له الصوت وتعارضيننا به. يحضر بدر ويبقى بيني وبينك، في تلك الليلة وكل ليلة، فيرتبط مصيري به، كما بك، وعلية القوم يتأوهون ويصرخون:

ـ الله، الله....

يصفقون ويسكتون. وأحدهم تتغرغر بالدموع عيناه فينهض خارجاً إلى الحديقة. صوتك كان ملتقى الجنوب بالوسط، الماضي بالحاضر. ونحن نشتم شفاهة عندما تكون هناك مشكلة مع قوى الغيب أو أحد أجهزة الدولة أو الحزب. نسب، عندما نكون متأكدين اننا نحب ونكره، فنبدأ

بالشتم. كيف أشرح هذا الأمر لك؟ وأنا ألعنك وأسبّك من أجلي أنا، من أجلنا. هذه وظيفة الحب العراقي، أرحلك، أشتمك وأحبك بقوة الترحيل، بشقاء الفراق والأشواق والقسوة. فأواصل العيش لما أكون قابلاً للتدمير، أدمرهم ويدمرونني.

مر شهران على لقائنا الأول إلى أن تم اللقاء الثاني برفقة المصادفة. لم تنطل الحيلة عليك ولا عليّ. فنحن لم نبدأ كأصدقاء، ولم أستخدم نفوذي للبحث عنك. شعرت أنني معني بدراستك، أي وأقسم على ذلك، كالظاهرة أنت. صحيح أنني كنت أموت جوعاً إليك لكنني استطعت أن أشغل نفسي بك وعني. لم أبحث فيك عن صديقة، ولا انصب اهتمامي بالنوم معك فقط. كان الحل الوحيد هو الإفراط بك، ولست متأكداً من هذا بالطبع، فأنت لم تدخلي السرور إليّ، على العكس تماماً، ولا كنت مشروع صديقة ستتحول بالتدريج إلى عشيقة من طراز مهلك. نحن لم نتصادق أصلاً فالصداقة بين المرأة والرجل كالمشروع السياسي، لا ترضي جميع الأطراف، الأحزاب، المؤسسات والمواطنين. وإذا ما بلغك أن ذلك ممكن بين رجل وامرأة، عراقيين على الخصوص، فلا تعيريه اهتمامك.

قلت لي وصدقتك:

«أنا لا أملك أصدقاء، بل عشاقاً فقط».

حتى العشق لم تتقنيه تماماً. تخلين بالشروط والمواصفات وتلحقين بالآخر الاستسلام التام. أمن أجل هذا كنت أعمل في المعارضة من الداخل، داخلك وداخل الحزب؟ أمن أجل هذا امتهنتني وجعلت من رفعة رأسي فشلاً ومهانة؟

ليس اعترافاً هذا المكتوب إليك، أتكىء عليه لكي يحق لي المرور ثانية بين جلدك وثوبك. إنه استرجاع لهيئتي الأولى أمام نفسي فحسب، بعد انفضاض الجميع عني، أنت في المقدمة.

يا للسخافة،

يا للجهل.

أذنت لنفسي بالابتلاء بك وبكل التبعات. أذنت لك أن تجهزي لي ضغط الدم العالي والقرحة المزمنة وتوتر الأعصاب التالفة أصلاً. أذنت لوحشة الكبد أن لا تفارق استبدادك، لرأسي أن يغزوه الصلع المبكر ولجفوني بالتغضن السريع، فلم يعد فمي قابلاً لاسترجاع السخرية والهزء، اللطافة والقهقهة التي كنت أشرب نخبها في العمق. حتى المرارة طوحت بها بعيداً. أقول لك الآن وطواعية، إنني كنت أريد فراق أشياء عديدة وخطيرة والإبقاء عليها فقط: المرارة، مراراتي. ثقي من ذلك وها أنا أقولها بصوت أعلى من أزيز هذه الطائرة، وأعترف أنني أدير ظهري للمسرات والغرائز، للأعياد الوطنية والقومية وحلقات الرفاق الذين كانوا على شاكلتي، إلا تلك المرارة. وحدها كنت أريد أن أخلي لها جميع الأمكنة والغرف والصالات، فقد جمعتها وخزنتها طوال سنين الخيانات والقهر والتشرد والغدر والرحيل والسجون والمنافي والتأرجح بينك وبينها، سلافة. ألم تذوقي طعم المرارة يوماً؟ ألم تعرفي أن من يذوقها لا يعود إلا للقصائد الأولى، إلا للقرنفل والريحان، للجمار والتمر، لا يعود إلا لمكانه وأسرته وسحنات أولاده، فيعرف جيداً نوايا رفاقه، بدءاً من السكرتير الخاص، وانتهاء بك؟ مراراتي كانت استكمال دروسي الجامعية وشهادتي التي لم أبروزها إلا في ملامحي وصوتي ووحشتي، فكيف طوحت بها هي أيضاً ودفعت بها إلى المبولة؟

فاحت حموضتي وبتُّ تافهاً، كما كنت في آخر يوم معك، كما في أول ليلة وأنت لم تنبسي بحرف. لكنك لم تعودي متهتكة. فحشك الأول هوى. تجامعنا بالطبع، كما لو كنا ننسخ صوراً بالكاربون، لكن اللذة زهيدة، والألم رث، فأثبطت عزيمتي. دخّنا كالعادة وسكرنا. في تلك الثواني كنت أعرف أمراً واحداً هو أنني غير قادر على إخفاء القرف

والغضب والحزن، أما العشق فقد صار مثل الأخبار القديمة.

علام أكذب الآن، وأمام من؟

سلافة «الليدي» كما يطلقون عليها. ابنة الحسب الرفيع والعائلة ذات النفوذ النضالي والسياسي وأنا أقترب منها كصمام أمان فقط. لم أحبها حسب مقتضى الحب. كانت هدفاً سياسياً متمركزاً على مبعدة أميال من شجرة عائلتي المتواضعة. كيف تراقب النخبة المكان من أعلى لمصاطب أبناء الشعب؟ هي التي قررت خطبتي. سددت فوهتها في الحال وعلى أكثر من اتجاه. عرضتني عليها وضغطت على الزناد كأفضل ما يكون القناص. ولم يعد لها ولا لي من خيار. لم النكران؟ فزت بالثمار وأهل البستان. باليسرى الزوجة والسطوة، وباليمنى أنين الألفاظ. لست بريئاً ولا أنت القاضي، لكنك حبيبة مكتئبة على طول الأيام والشهور، ومن فرط تكرار فك الألغاز، ألعنك وأعود إليك. كم عدت وأنا أقطر تلفاً. لا تواسيني ولا تلشميني. تغيرين الأطباق والأقداح فحسب. وأنا طماع، شره، أعض أصابعي كصبي خائب وألطخ وجهك بدموعي وأنشد لك قصائد آخر الليل. واليتم منك على الدوام ماثل أمامي. وأنا أريد أكثر من اللازم، أكثر من الكثرة، أكثر منك. أريد الزوجة البرمة والأبناء الخائفين. حزين وأريد الإنصات لكلام الحزانى أمثالي. أريد الحبيبة الممضة وشوك نفاد الصبر.

كأنني أطير الآن فوق الكرسي الكهربائي، لا رأسي يتدلى ولا المدينة تقدر بشاشة المحبين.

ولا أعرف كيف أناديك؟ بأي اسم أغير عليك وأحدد: هذا هو الاسم الشرير، الطيب، اللعين. اسم المكالمات الهاتفية قرابة الفجر والزوجة لا تتراجع أمام الحزب.

حسناً، أكذب على الزوجة، ولكن أخلص للعائلة. يغضون الطرف إذا بقيت عاشقاً مفلساً وسوف ينظرون بأمرك طبعاً، فتحلَّ بالصبر.

قصاص في الحب.

وتبرؤ المحبوب.

يا للغباء.

لم تذكري في أي يوم مضى جملتي المحببة:

- أنا مغرمة بك.

لم تتفوهي بها قط. كأننا متفقان بالتواطؤ أن لا نشغل بالنا بها، فما دمت معي فأنت الأهل والعشيقات. قلت لي:

- من يغرم بالآخر الآن؟ هذا كلام يسبب الغم.

بقيت ترددين على مسامعي:

- أنت الأشد إغواء في السرير، وإذا ما سلمتك شؤوني فلأنني أريد أن أصادف الموت فيك.

أنتحب ولا أبالي بساعات الكرب الآتية، هذه التي أجتازها وأنا في الطائرة، فتبدو غريزة الحياة سواء بسواء، هي ذاتها غريزة استمالة الموت. لم يكن المهم أن أراك، على العكس، أراك كأقل الرجال شأناً ونقصاً وفشلاً وعجزاً. أراك ويتبع ذلك الكفاف والجفاف. وأنا أنازع. السكر حولني إلى رجل بغيض، والشعر لم يعد يعضني كفاتحة للميلاد.

ولا الموت كان ضربة حظ حتى.

فأي الأسماء أجرب إطلاقها عليك بعدما قيل في وجهي:

- إنها تتخلى عن أسمائها كما عن عشاقها.

جميع الأسماء قلامة ظفر.

كيف أناديك في الأخير وأنا أربط حزام الأمان وأضمر لك الأشواق البخيلة؟

اكتبي، لفقي، تخيلي، وتذكري اليانع مني وأكوام اليباس ولا تمدي لي يد العون.

«ففي الحب نقوم بما نستطيع. إنها حرب دائمة يسمح فيها بكل الضربات. أما في السياسة فخاصية ممارستها بالفعل هي تخييب الظن. فالإنسان يعلق حياته على أمور وأشياء غير معقولة، وبالتالي تكون عرضة للوهم. إن السياسة ربما بنفس القدر كما في الحب ميدان سراب».

لا أريدك أن تقولي كلمة طيبة في حقي في مذكراتك. فلا أنا كنت أفضل معاركك ولا أنت آخر حروبي. أنت بين المنزلتين، وبمقتضى ذلك ليكن اسمك ما شئت، ما تشائين، ما يشاء الحزب، والحزب الآخر. ما تشاء الدولة العراقية. ما يشاء النموذج والأصل. ما يشاء القلب البشري حين يتراجع في النسيان، «فالذي لا يقال، ذاك الذي ننساه، أعني النسيان تماماً، هو الأمر الهام، وهو الأشد وضوحاً. فليكن، إنني مازوشي، لكنني غير مستعد للتخلي عن معاشرة الحياة» ولو قدر لي أن أخاطر ثانية، فسوف أتبع ما قمت به من جديد.

صبيحة، صباح، وصال، سهاد، وئام، أنت منذ البداية، وأنت إلى النهاية، فأين المفر؟

- ١٣ -

النسيان

لم أحرز إلا شيئاً من التقدم في مجال التذكر. أطلع وأعود ما بين السماوة وبغداد. أستبقي بعضهم ولا أعرف ماذا سيفعلون إذا ما غابوا عن عينيّ. وأنسى البعض الآخر وأريدهم أن يهربوا إلى أمام. عشاق، عشاقي، بالكاد يعرفونني ولا أستطيع الأخبار عنهم طويلاً أو كثيراً. كان بصرهم يضعف بالتدريج، ثم يحزم أحدنا الأمتعة ويفر مغادراً.

كنت أعرف ماذا أفعل وأدري أن كل هذا ليس هراء، فالاستغراق في الغير كان محاولة لتفادي الغير. لا أعرف كيف لكنني كنت أتقدم، ألقي بنفسي ولا أتراجع، لم أحاول التراجع قط. أسجل وأرقع وأتمرن. أخون وألعب وأتفرج من خلال اليوميات والمذكرات والفصول قبل أن يحل النسيان.

التخييل كان هو ما يجتذبني حقاً. فأهرع إليه من الأبواب الخلفية قبل أن يرقى إليه الشك. أتجاهل ذوات الأشخاص، مسافة الجسد بين الجسد، وأضع أذني على الوحش الأزلي في الداخل الذائب، الذئبي. بيدي القلم الأحمر أشطب وأسمع الأنين، الهوس والنداءات المتكررة. ولولا فكرة المسابقة، على علاتها المتواضعة، لما فتح الباب وتشعبت منافذ الهواء ولما امتلأت الكراريس أصلاً. أرفع الستارة كما لو كنت مسؤولة محل للمزاد العلني، أدع التخمينات للاعبين الحقيقيين، أصحاب البضائع الأصليين: السادة، المناضلين، النقاد والكتاب: مسلم التقي،

كمال عبد الرحيم، زياد المرهون، تلك التي وردت أسماؤهم في الطليعة لبيان المسابقة. أما الناقد عبد الجبار علي فقد أودعته مسؤولية الالتفاف على الجميع بعدما سلمته عدة التوكيلات ليأخذ بعينيه الخضراوين الناريتين العميقتين ونظراته القلقة، دور الناقد النزيه. تعرفت عليه وأنا أتابعه عبر مجلة الآداب اللبنانية. هو الذي سأتوجه إليه أولاً، من الجائز أن ألتقيه عرضاً، من باب الصدفة أدعوه، ويا لدهشتي إذا ما وافق على الدعوة. سأحادثه عن كل شيء إلا المسابقة والشروط. وإذن سأدعه ككاتم الأثمان بين فترة الاستراحة، ليضع هو، دون غيره، كلمة النهاية في موعد افتراضي، بعد كذا فصل أو شهر أو عام حتى. ولا علم لي فيما إذا استضاف إلى صالة المزاد بعضهم وخارج الأدوار المقررة لهم، لتحريك أريحية الظرفاء أو التمويه على السفاحين الفعليين. فعند الاقتضاء أرجو ألا ينسى كتابة الإهداء أيضاً، لمن؟ له، ودون أقل تردد. أما صحيفة الغد التي خلطت الأمور عليّ في نهاية المطاف، فقد نحيتها جانباً طالما أن العلاقة مع السيدة هدى تعطلت بعدما تسللت خارج العراق للدراسة أو بسبب اليأس الشديد. لكن السيد مصعب لا ينطبق عليه الكلام المجتر والفذلكات الشنيعة. استوليت عليه بعد أن غادرت هدى، فتظاهر أنه غير راغب بذلك إلا لفترة قصيرة، طالما أن المكان شاغر. بالفعل كان يشعر بالمأساة التي ستطيح به ويأسرته من خلالي. هذا صحيح ضمن حدود، لكنه لم يبال بالنصائح المسداة مني إليه.

من هنا كان إلهام الخيال، أكثر من التذكر، هو الذي قابلته وتحركت داخله لما قرأت خبر المسابقة، فتراءى إلي مصاحبة الأمل مرة ثانية. كلما أعيد تهجّي كلمة الأمل، وأنا في الحافلة أو التاكسي أو وراء طاولة عملي أو بين السماء والأرض، أدخل في نوبة ضحك صاخب. بمقدور المرء بالطبع أن يصرف أفعالاً شتى من تلك اللفظة: الأمل ويصاب بالاندحارات من جراء الأمل ذاته، حتى لو قطف اليأس فلا يهم، ما عليه إلا المرور

بالأمل وليأتِ فيما بعد أي شيء.

على العموم أنا أستبق الأحداث، تلك التي جرت أو التي تخيلت أنها حصلت، أو تلك التي تأخرت في الحدوث ولأسباب شتى، لست أنا المسؤولة عنها. لكنني بقيت أردد دائماً أنها ستحصل. كنت أراها حاصلة، ليس في المنام ولا في أحلام اليقظة، كانت تحصل أمامي منذ قرون وفي ساحات متحركة وخارج أو داخل الحدود. هذه فائدة التخيل، لا يترك الإنسان وحيداً، فتقابل صديقاً، عشيقاً قديماً أو محبوباً جديداً فتتأكد من معنى التخيل وأنت ترافق بعض الشخصيات، ترسل إليهم إشارات معينة، هنا بالغوا، واتركوا الساحة خالية هناك. فأسعى جاهدة للبقاء بينهم وأنا أفسح لهم المجال للظهور كعراة ومتوحشين.

من هنا كانت شروط المسابقة، بهذا المعنى، تعجبني وأنا أفرش سني حياتي ما بين الحادية والعشرين حتى الخامسة والثلاثين وأنا بانتظار السيد عبد الجبار للإعلان عن اسم المخطوطة الفائزة. وكلما أنحي جانباً بعض الأسماء وأجلب غيرها، أكتشف أن شروط الصحيفة كانت أهم من شروط حياتي. كأن حياتي ستواصل خط سيرها من خلال تلك المسابقة والشروط، أما حياتي الفعلية، فقد كانت تذهب وبطريقة صاعقة إلى الفرار من بين يدي. وإذن، ما عليّ إلا الإمساك بها، ولو عبر وشيعة الكلمات، اللغة، والخيال، حتى لو خاطر بعضهم، أولئك الذين أطلقت عليهم «الرواة الوشاة»، المناضلين الأبطال، للذهاب حد ارتكاب المعاصي والآثام. وهكذا كنت أسمح لهم بإغرائي وليس العكس، لكي أحول بعض الحقائق إلى فن. قلت لمسلم التقي ذلك يوماً، فزع وتجاهلني. لكن لماذا أستبق الأحداث. تذكرت اسمه لما قرأته في لجنة النقاد والمسؤولين عن المسابقة. تذكرت، ولم أتخيل ذلك. كان اسمه راقداً في القلب ويعاني جميع الآلام التي تخطر على البال. فمنذ أواسط الستينيات، ربما بعد السبعة والستين، أقرأ وأتابع وأجمع بحوثه ودراساته

النقدية والأدبية. أصنفها وأضعها في ملفات. كما فعلت مع الناقد عبد الجبار علي وبذات الطريقة. لكني لم أر صورة لمسلم التقي حتى تاريخ لقائي الأول به. شغفت به تماماً. كلا، ليس أول ما وقع بصري عليه، بل فيما بعد، بعد ذلك بزمن. كنت أشغف بثلاثة دفعة واحدة، كما كانت سينما السماوة الصيفية تعرض على أهالي البلدة ثلاثة أفلام مرة واحدة، ندخل ونطلع ولا يبقى في الرأس أية لقطة من جميع الأفلام المعروضة. لكني أواصل تسجيل أدق التفاصيل، على سبيل جمع المعلومات، تقصي الحقائق وصناعة أرشيف خلاق، وليس أخلاقياً. فالناس شغوفون بالفضائح وإفشاء الأسرار على أن لا يكونوا هم أصحابها.

لما قرأت اسم زياد المرهون، مررت على الاسم بسرعة. تجاهلته في البداية. قلت، ما علينا، هو الآن يحمل لقب دكتور وهذه هي الموضة. أرسل إليّ وطوال أعوام التعاسات والمحن، روحه على شكل قصائد رثة ومسرحيات تافهة. ولما حضرت في أحد الأيام عرضاً لمسرحيته المترجمة عن شكسبير، اختار أن يكون «الملك لير». لا أدري لِمَ توقعت لو يكون إحدى البنتين الجاحدتين. كانت كبرياؤه نوعاً من الصفاقة، وتواضعي وهو يشاهدني في الصالة أعلى شكل من أشكال الرياء. لكني توقفت طويلاً أمام اسم «كمال عبد الرحيم» الشاعر والفنان. كانت معاشرتنا مصيبة، لا أعني الكارثة، لكن الصواب. أمروه أن يغادر على إحدى طائرات الخطوط الجوية العراقية، بعدما استقلت منها أو بالأصح بعدما هددوني في محل سكناي وعملي.

ماذا سأفعل بالحياة، ليست حياتي وحدها بالطبع، لكن الحياة في النهاية، وقبل التخلي أو التنازل عنها؟ بدر زجوا به في داخلي فقطن هناك أسير حرب، أو بمقام شهيد، فتابعت الحياة وأنا أرتاب في نفسي بعدما أعطوني ظهورهم، الربع، ربعه.

لشاكر كان النسيان لكي أفارق الدَّيْن الذي طوق عنقي بوثيقة الزواج.

فكلما تزداد الديون عليّ من هذا الطرف أو ذاك، يزداد سلوكي عذوبة وسلاماً. وما الرحلات والسفرات التي كنت أقوم بها كمضيفة جوية إلا الانتقال من أرض الدائنين إلى سماوات المقترضين الجدد. فاقترحت على فخرية في أحد الأيام بصوت طبيعي:

ـ إذا حضر شاكر في غيابي، اسأليه الطلاق.

لم تعلق إلا بهزة من الرأس. كانت لا تزال في مرحلة الأمل. أنا نفسي عانيت من هذه الخصلة كثيراً، لكنني أيقنت في الأخير، أن الآمال ليست أحد مكونات موروثاتي الجينية. فظلت خالتي تصمني بالقساوة، وهذه الصفة لم أقدرها حقاً في البداية، إلا أنني سرعان ما انتبهت لأهميتها، فأطلقت عليها «القساوة من أجل البقاء».

فخر الطفلة أراها لثوان فأدفعها لخالتي. موجودة كانت كالبوليس الذي يريد الانقضاض عليّ. وأنا أتناول المهدئات والمضادات الحيوية بسبب أو بدونه. فمرضي كان من الوضاعة إذ لا يمكن الاعتماد عليه.

اقترحت على نفسي اسم سهاد في مرحلة العمل على الخطوط وبدأت أتحرك به بعدما تركت اسم صبيحة نهائياً في منطقة رأس الحواش في الأعظمية. لقد انتقلنا إلى منطقة المسبح الراقية. اشترينا إحدى الدور العتيقة المبنية على الطراز الإنكليزي المحافظ. أبقيت ذلك في المظهر الخارجي وأعدت بناء كل شيء من الداخل. فخرية كانت تصرف وهي مخدرة وأنا كنت أبذر وأنا واعية. «المسناية» أوصلتها من حدود غرفتي إلى ضفة دجلة بممشى طويل، أرضيته من المرمر وسياجه من الحديد المسلح. كنت أقضي الساعات الطويلة وأنا بثياب النوم، أمشي بين الماء وأرفع يدي بالتحية للأوراد والأشجار. أمد يدي وأقطف الثمار، آكلها فجّة وأعيد وأتقيأها أمام الجرف وأنادي على اسمي الجديد، سهاد، سهاد. كلما أختار اسماً أكتشف نواقصه وأبدي قدراً من اللاتفاهم معه، حتى أكتشف حقيقته. فاسم سهاد نقيض للنوم، ومن هذه المعاينة

المجازية كنت أستهزىء بأحلام اليقظة الزائفة والمعربدة في رأسي، وأقذف على أحلامي الكلاسيكية قنابل يدوية، فأتسبب بمجزرة رهيبة. كانت سهاد تنطوي على نفاق النوم القليل والأرق النشيط معاً، لكن ذلك كان يتم على الأرض. أما إذا وفقت ونمت في الطائرة بسبب الخمرة التي بدأت بالتعود عليها، فسوف تتبعثر خاصية اسمي وطاقته المتحولة. وللأمانة، فلا عيب واحداً في الماضي والمستقبل، أما الحاضر فقد كان ولعي به صفراً، ولا يعود السبب إلى حالتي المرضية التي لا أعرف سبباً وجيهاً لها، بل إلى الحكم الذي أصدرته على نفسي: كيف أعيش «مع الآخرين» بدلاً من العيش على «نفقة الآخرين». إذن السماوات ستكون ملعبي الرياضي كأداة للحياة، بدلاً من الأندية الرياضية القديمة. أما الأرض، فليست سوى مجرد قاعة للتمرين على اختبار الموت.

والحال، إن سرور المضيفة الجوية، ذاك الذي تتبجح به أمام الآخرين، كان سريع العطب. فهي غير متخصصة لا بالأرض، ولا بالسماء. لذلك كان كل من يلتقيها، يراها بين بين. هذه الوضعية في النهاية هي التي استهوتني، وجعلتني على استعداد لتلقي المزيد من الأحداث والشخصيات والتهديدات. فأرتفع إلى أعلى، الطائرة ترتفع كثيراً وتعرض عليّ النجدة. ذاك كان حالي وأنا أقرأ الإعلان في جريدة «الحرية» البغدادية عن طلب مضيفات جويات، وكان ذلك في عام خمسة وستين. اعتقدت أن هناك لجاناً للفحص واختبارات للغات بالشكل الذي كنت أقرأ عنه في الصحافة الأجنبية. لكن كان هناك فقط، رجل ضخم يشبه فوهة بركان خامد، يدخن الغليون ومن خلفه تتصاعد أبخرة الدخان. كريهاً كان، ليس بمعنى اللاوسامة. فأول ما وقع نظري عليه وهو وراء طاولة صقيلة كبيرة، لم يبد لي جالساً، كان يبرك كالجمل. ولما مد يده للمصافحة وهو على تلك الوضعية، فاحت منه رائحة حيض قديم فشعرت أن الأرض ضيقة جداً، كلا، والسماء أيضاً. كان يحجز الكلمات في

فمه، وفجأة يبدأ بالسرعة الأوتوماتيكية يتلفظ المفردات والجمل فيقرب لقطات من أفلام خلاعية كان يراها في خياله. ولسانه كأنه راكب دراجة نارية، وكل حركة منه كانت تنبىء انه على وشك أن يخلع قطعة من ثيابه. كما نقول انه «في حالة استيهام كلي» وغير قادر على التحكم في أحواله وأموره الجانبية. جالس وهو يلهث بصوت مسموع، بسبب الضخامة الشديدة. القاعة التي دخلتها كانت واسعة بأثاث مستورد. وراءه وحوله لقطات لصور تاريخية من حضارات العراق الأشورية والبابلية والأكدية. عشتار واقفة في الهواء الطلق كمنجة يعزفها النسيم المبارك. والثور المجنح يشعر بالوحشة هنا. أهوار العمارة والناصرية بلقطات بعيدة، وامرأة صاعقة الجاذبية كانت واقفة، نظراتها لا تقاوم وهي تقود «عبَارة» متوجهة لإغراق هذا المدير في دجلة. في الجانب الأيمن تماماً لقطة فسيحة جداً انتزعت من حقول النخيل في البصرة، وعذوق من الرطب الأميري، قشرته على وشك التشقق فبدأت الحلاوة بالسيلان وهي تضغط على الورق في حالة وجد. أبدأ بلعن أسلاف وأجداد هذا الرجل. هنا تراءت لي عباسة، زوجة أبي الجميلة في تلك اللحظات، وهي تقترب منه ثم تروح تبصق على خصيتيه، دون أن يتورد خداها بالخجل كما حصل مع البستاني عبد الله. انفرج فمي عن ابتسامة ضيقة لما بدأت الملاطفة والتحرش. كلا، لم يرفع الكلفة تماماً. كان يرخي ويشد، يتناقص وينتفخ. وحدنا كنا بالطبع، فطلب مني السير أمامه. مؤهلاتي كنت أعرفها أفضل منه، لكن وثيقتي مزورة وعليها صورتي الحقيقية بالأسود والأبيض. متى أخذتها؟ في ظهيرة أحد الأيام في استديو الأمل مقابل سينما الأعظمية لما داومت في الثانوية المسائية. هنا طلع طبعي الريفي الساحر والسحري معاً، وهو يغير المسطرة. ألقى نظرة سريعة على الملف أمامه:

ـ ما زلت طالبة في الكلية إذا ما توظفت ماذا ستفعلين بالجامعة؟

الأستاذ زياد المرهون سيأخذ بيدي إلى آخر الخط الحدودي. صاحب الوجه الودود، كأنه يعلن عن بودرة خاصة بالأطفال. رئيس قسم اللغة الإنكليزية. باطنه بحاجة إلى ترجمة أكثر من النصوص التي كنا نواظب على ترجمتها أمامه. لم يتقدم ولا خطوة إلي، ياه، متردد أزلي. لكن كلما أرفع رأسي في الصف، أو أراه صدفة في النادي الجامعي أو غرفة الأساتذة، كان سعاله يزداد، كأنه سيموت بعد ثوان، ليس كهذا يتلصص بعدوانية:

ـ وماذا تقترح حضرتك؟

ـ والله الشهادة مهمة لكن إتقان اللغة أهم، وأنت على ما أرى تتقنين أشياء كثيرة.

توصل إلى اللغز فأضاف:

«ستنعمين براتب أفضل، ومستوى أرقى في العمل والمزيد من الاعتبار. وكل ذلك يجري تحت أشعة الشمس الدافئة التي تميز البلاد الجديدة التي ستزورينها، ولتكن البلاد الفقيرة أيضاً، لم لا، فهذا غير مهم، إنها مجرد رحلات أليس كذلك؟».

كيف لا يهم، وكل شيء لا يهم. يريد «أن يشتري بأغلى الأسعار ويبيع بأبخسها».

عاد ثانية يمد يده الغليظة السمينة والوارمة. في الإصبع الصغير خاتم ذهبي بارز الصياغة وفي قلبيه فص شذر. آه، لو كان السيد الوالد، الصائغ الشهير في السماوة لانتزعه من إصبعه، ووضعه أمام عينيه الفاحصتين. بيده المكبّرة وهو يعرض موهبته:

ـ حجر زائف هذا الشذر. اي مثلك، مفطر وبه كسور كثيرة لا ترى بالعين المجردة. ألا ترى ذلك جداً؟ تعال شوف زين. قرب رأسك من المكبرة. هذا ليس فيروزاً حراً. يمكن يغش بلونه البراق، لكن الشذر الأصلي كلما راحت لمعته كان أغلى وأصفى. بابا، الشذر الحر مو بس

حجر كريم، لكنه يحمي صاحبه من السفهاء والحاسدين.

هكذا كان يردد السيد خلف لما تعرض عليه الأحجار الكريمة من التجار العرب والهنود والعجم، من الأصدقاء والأقارب والجيران. يبلع ريقه ويشرب قهوته المرة ونظراته تريد نسف الأحجار وأصحابها. انتبه وأنا أركز نظراتي على الخاتم. يسمع صوت ضحكتي المجلجلة، فيهتز كرشه السمين:

ـ ها، أعجبك الخاتم لو الإصبع؟

واصل الضحك بطريقة فاجرة. ثم فتح علبة ذات غطاء براق كانت موضوعة أمامه:

ـ هذه بطاقتي الشخصية وأرقام هواتفي. هنا وفي المسكن. التدريب سيتم في البداية داخل الأجواء العراقية. وبعد شهور ثلاثة، أكثر أو أقل، سيسمح لك إذا ما نجحت، «نظر إلي نظرة سفيه» بالانتقال والعمل خارج أجواء القطر.

ـ الدكتور حامد عباس. . . و.

ـ دكتوراه في الاقتصاد السياسي من جامعة لندن.

قضي الأمر إذن. ملأت الاستمارة بالاسم الجديد والعنوان الأحدث. لم أشأ وضع أية إشارة أمام الحالة الاجتماعية. كنت أفكر بطريقة كاريكاتورية، وهي طريقة تعلمتها حديثاً لكي تلائم حياتي الجديدة: لا أرمي أي شيء في علب النفايات، لكنني أملأ وقتي بإخراج جميع القصاصات والبطاقات والإشارات من هناك، فأعقد المحاورات وأصل إلى النتائج المرجوة.

لم يأخذني العجب وهو يقوم ويفتح الباب أمامي. نمد يدينا معاً ونبلع الطعم سوياً. وأنا أسجل في دفتري مباشرة تلك الأحداث. أذهب إلى مخيلتي وهي تصوغ ذلك بجمل طائرة، فأعود إلى هدى ونحن في غرفتها

في الطابق العلوي. أمام الأوراق تصير لتلك الغرفة، وأنا أسترجعها الآن، بعض النزاهة. كانت طويلة، ضيقة وفقيرة. قلت لها:

ـ غرفتك تشبه فردة سروال ضيق بلا أزرار في الوسط.

تبتسم. كانت تسميها كهف الضرورات التي لا طائل من ورائها. على الطرف، قرب النافذة الوحيدة، دولابها العجوز ذو البابين الثقيلين. الخشب متآكل وبصمة أصابعها محكوكة فوقه. هذا إرث الوالدين: جميل وإقبال. ثيابها قليلة مدبوغة من الغسيل الكثير، لكنها مرتبة. والسرير من الحديد الصدىء، ما أن نتحرك عليه ونحن جالستان فوقه، حتى يصدر أصواتاً غامضة. بالتأكيد كانت لا تصدق تلك الروايات لكنني أواصل دون الاهتمام بها:

ـ قطن فراشك عتيق والشراشف تخرج ألسنتها علينا، وهذا السرير لا يصون الأسرار.

ضحكت بصوت عال:

ـ حلو هذا الوصف.

قامت ووقفت قدامي:

ـ صبيحة لماذا لا تكتبين؟ أي شيء. لا، لا، مو مثل وكالات الأنباء. أكتبي هذا الذي تقولينه الآن ولا تقرأيه على أحد، أي أحد. أكتبي كما لو أنك ستموتين غداً، لا تبحلقي في وجهي هكذا. أكتبي، ليس كالوصايا، لكن كاللعب، كما لو أنك بائع متجول، حين يعود ليلاً لا يجد في حجره إلا الهواء. يمكن هذه هي أجرة الطريق يا صبيحة.

هل دار في بالها أنني سمعت الكلام وبدأت الكتابة؟ لم أبدأ إلا بالترجمة، فأرسلت إلى صحيفتها أول ما صدرت تراجم عديدة وبأسماء مستعارة، مقالات أدبية، قصائد وقصصاً قصيرة، فكانت تنشرها أول ما تصل بعد إجراء التعديلات والتصليحات. هي وعبد الجبار علي كانا

المسؤولين عن الصفحة الثقافية. لكن، لم تعجبني طريقة هدى وهي تتحدث معي، شممت بها رائحة المنة، فبدأت بتسجيل اليوميات على شكل برقيات غير منتظمة. لا أحد يتسلمها ولا أعرف عنواناً لكي أرسلها إلى من يهمه الأمر. ولما حضرت هدى إلى السماوة ونصبت أفخاخها حولي ورددت أنها مغرومة، شاهدت رجلاً يتمدد وسطنا: السيد مصعب. فعاد النفور منها أكثر من السابق، ليس منها أو منه، كان يتعداهما فيكمل عليّ. فأبدأ باستنشاق شذى خفيف يقربني من هدى، من أية بقعة من بدنها يحضر. فأراها كل مرة بصورة مختلفة ولا أعتذر من عيني إذا ما عاد إليها حولها السابق. أطلقت عليه هدى بعد أيام التعارف الأول:

ـ هاي أنت عندك حولة الحسن.

أفرك يدي مثل سجين يقيم بين الذنوب والندامات، كما فعلت مع مصعب بعد أن غادرت هي إلى بيروت. كنت أذهب وألقاه في دارهما. أحدق في عينيه طويلاً، أتعدى الحدود، أجرب وأنا أنظر إليه إصلاح حالي مع هدى. بالطريقة نفسها كنت أتحاور معها حين تضعني تحت بصرها وهي جاهلة ومستحكمة في خنادقها وتردد:

ـ مصعب لا يندحر. لا تدحره امرأة، أولاهن أنا.

فأعيد تربيتي عندما يقع بصري عليه، وألمه يتحرك أمامي. ألم كالمخالب يخرمشني فأتمنى الفتك بنا نحن الثلاثة. لكنه يواصل وأنا لا أعبأ بكل آلامه. قلت له:

ـ آلامك بالية، مسوّسة ومصابة بالعث، وهي لا تعنيني.

كان يتفحم أمامي وأنا أتورم لكننا لا ننفك عن بعضنا، فنبدو من جنس ميؤوس منه. فلا أنسى أن أعرض عليه جسمي ومهجتي. لا أنسى أنه يقف بيني وهدى، فنندحر جميعاً. وأنا أحاول تقطيع هدى أمامه بالمنشار كي تتفشى داخلي فيعود هو ويتفشى بداخلي. أجل، التفشي أفضل للإلهام. كنت أعثر عليها في جوفه وهو يرتعد، يرتعش، يولول وينوح.

كان يبكي بكاء مراً ونحن بين ذراعي بعضنا البعض. فيمضغني كأنني هدى في وليمة ربانية ولا يفضل أن يشاركه فيها أحد، أي أحد. وفي طرفة عين كان يزيحني من تحته بيأس تام. ذلك نفسه شاهدته في عيني وأنا أواجه حلم هجران في المستشفى. أنا التي بدوت متهافتة، وحيوانة وعاجزة جداً، بل أنا الأجدر بالعطف. لا بد أن فتاة أقل سذاجة مني كانت ستفهم سوء التفاهم ذاك بطريقة أفضل مني. فماذا كان بمقدوري فعله إلا الاعتماد على تلك المفارقة: هجران أرادت أن تذكرني بالمسؤوليات الملقاة على عاتقي، وأنا كنت أريد أن تعرف أنني أقدر امتيازات الحلم، حلمها. لم يأخذني الهوان عليها حين طلعت من المستشفى. هي أتقنت عملها أفضل مني، وها هي تعرضني للنهب والسلب ثانية. أخذت مني رخصتي الأصلية: الجهل وتجرع السم وغادرت وحدها. كنت أراقبها وأردد: تستأهل هجران ذلك. فكلما تفسح في المجال أمامي لأفتش معها عن مشاهد جديدة من الحلم، أكتشف كم أنا مسرورة بتوفر تلك العروض التي تمت وجرت أمامي وبجواري. هي التي سوف تقيم في ذلك البرج «التسعة أشهر في السنة وتعود لتبتلي بلدغ الحشرات والهوام والرياح اللافحة في مقرها الطارىء بقية العام» وأنا بدون أية مسحة دينية، لن أصعد إلى تلك الطائرات من أجل «رصد الأجرام السماوية». هجران الوحيدة الباقية في ذمتي والتي بمقدورها أن ترى يأسي. يا للحقارة، حقارتي.

هدى تركتها بين الدفاتر والكتب. ودعتها، فارقتها وصدقتني. أسترجع شكلها الآن وهي تتوالى بالعويل بعد وفاة السيد جميل. تلك الدموع كانت مجرد ديكور في مسرح وما هي إلا ممثلة، وليست بارعة حتى. قلت لها، يا هدى نحن غير متساويتين دائماً، أنت في يأسي المثقل بك، وأنا في يأسك وأنت معي. وهذا جانب أساسي في سجلنا الشخصي. فأنا أتظاهر بالحزن، دائماً أتظاهر بما لا أملك. وفي واقعة جميل، كان بدر

يقف بالمرصاد أمامي. وكان لا يزال حياً، لكنني تيقنت أنه سيختفي بالطريقة نفسها التي نزداد فيها وصالاً وطبيعية. بقيت بعده أضحك وأتفرج وأكمل ما انقطع من حوار مبتذل وأردد، إنهم يموتون، أولئك وهؤلاء، ونحن نكش الذباب بملل ونواصل.

هدى أنجبت ولدها الأول - مازن - وحضرت قبل وفاة الجدة الكريمة بيوم واحد. لم أقابلها. رفضت ذلك بطريقة أحسد عليها، وفخرية دعت عليّ دعوات قارصة قطعت أوصالي. فأخذت حصتي وحصة زميلتي فاتن وطرت بين اسطنبول وبلغاريا واليونان. سكرت سبعة أيام. أطير، أسكر، وأطير. وأبلع الحبوب المنومة. أنبح وأعوي مثل كلب مطعون. لا شيء يؤلمني، كل شيء في غاية الاكتمال. ولما وصلنا بيروت في إحدى الرحلات سألت الدكتور الأخصائي «يوسف المر» عن أحوالي، كلا، ليس الصداع أو اللانوم، إنه أمر غير قابل للتسمية. أخبرته أنني آخذ حبوباً وخمرة. سألني عن أنواعها، قلت كل ما يخطر على بالك. أجابني، هذا سلوك غير صحيح طبياً. ولماذا؟ ذكر تفاصيل شديدة الدقة والتعقيد عن مدى أذى الحبوب وأذى الخمرة إذا ما اجتمعا. ماذا تفعل؟ تبيد الوعي، أم تبدد الغراميات؟ أعاد وصف أشياء كثيرة وقال إن أقلها تكلفة أنها ستدع جمالك يذبل بسرعة. وكيف؟ ستمط أعصاب الجفنين والخدين والعضلات، سترتخي. كل شيء فيك سيهبط إلى الأسفل، يتهدل، ستبدين مسنة وأنت ما زلت. . . نظر إلى هويتي المدنية وقرأ سني، وبدأ يدون ويواصل: يطلق على الأعصاب بالأعضاء النبيلة. ياه، يا للاشتقاق المتقلب. وأنا أتحول وأتقلب ما بين الجو والبر والماء. أسلسل الأحداث في الدفاتر التي بدأت تتضاعف ولا أملك إلا موهبة الموت.

أول ما أخبرت فخرية بموعد عملي الجديد في الخطوط الجوية، وأنني سوف أطير على علو شاهق، . . صعقت وزمجرت ودوختني بالضرورات الممضة. وانها بدأت تمرض وتهرم بسرعة بعد غياب الحاجة وفيقة من

بين يديها. كانت على الخلاف مني تربط ماضيها بشريط ملون وتقف على بابه حارسة نجيبة. وأنا كنت مخلصة للخيانة. أخون بشرف وأذهب إلى آخر الشوط. حين يفوتني الشراب في العمل أغلق على نفسي باب غرفتي، وأضع قدح «الجن» أمامي على طاولة الزينة، أرفعه إلى أعلى وأتبادل ونفسي الأنخاب. لكن حين دخلت فخرية يوماً فجأة، وشاهدت القنينة البيضاء، لم تنتبه في بادىء الأمر أنه خمر. كانت من فرط الشرود والوهن تتصوره دواء يشجعني على النوم. ولما عرفت بدأت تبصق على القنينة والقدح بدلاً من وجهي. فعلت ذلك أمام الحائط، على صوري التي وزعتها بين الغرف. كانت تبصق بحِرَفيّة عجيبة وبسرعة كما لو كانت جالسة معنا في النادي الرياضي. فالأشياء والمخلوقات من حولها كثيرة وموجودة، كأنها تحممني بالبصاق. إنها على الضد مني، دائماً تعثر في طريقها على من يستحق ذلك.

في يوم السابع من حزيران في السبعة والستين، أنا وفاتن كنا ندفع عربة المشروبات الروحية للزبائن. كانوا يشترون بلا حساب ويشربون بإرادة باهرة ويدفعون بالجنيه الاسترليني. ونحن على ارتفاع منخفض، فوق الأجواء التركية في طريقنا إلى النمسا. سمع الطيار بالتفاصيل عندما كنا فوق الأجواء السورية، ونقل ذلك لفريق الدرجة الأولى فبدأنا نجهز لهم الخمرة بأقداح حقيقية. في ذلك اليوم كانت الأشواق لهدى ومصعب وهجران وعادل، ولم لا، حتى للسيد رامي حيدر، لكي نتبادل «الشكاوى والتظلمات». لما استيقظت في الصباح التالي وأنا في أحد الفنادق الراقية في فيينا، شاهدت رجلاً بجواري. حتى اللحظة لم أر مثله مخلوقاً جماله كالسراب. كلما أنظر إليه كان يفر من أمامي. ابن ثلاثين عاماً، أشقر البشرة، شاربه مسوًّى على طريقة الغلمان الشرقيين. شعره أشقر كتاج إلهي فوق رأسه الملوكي، ونظرات طفل واقف وسط السرير يريد الرضاعة حالاً وليس بمقدوري لمسه. ضجرت وأنا أشتق له النعوت. انزعجت

كثيراً من كل ذلك الجمال الذي لا يبعث على الأمان والسلوان. لا يعرف إلا الألمانية وإجرامي الجمال وليس من نصيبي. كان يخص الغير، الكون والكهرباء ولا يجوز في جميع القوانين أن يكون من حصتي. كلما أتفحصه وهو بجواري أصير أكثر هدوءاً ويأساً. كيف بمقدوره احتمال نفسه إلى هذا الحد وهو على وشك الابتسام. كان أغلى من أن يكون مؤكداً. ليس من الإنس ولا من الجن، أو النبات أو الحيوان. إذن ما عليه إلا أن يموت. ولو كان بمقدوري ذلك لقمت به. لم أعرف اسمه، «يا له من اسم جميل». في ذلك اليوم والأيام التالية توقفت عن الشراب لكي أعيد لنفسي الانشداه والخبال، فطفحت هجران على الشراشف والسرير والمأكولات التي بدأنا نلتهمها. بدأت تتجلى أمامي وأنا أتحدث إليه مباشرة. كانت عيونهما هي وهو مفتوحة أمامي كالوحش. بدأ يدمدم وهو يشرب القهوة بالحليب ويقضم الخبز بالزبدة وأنا أدفعه دفعاً صوب هجران وهي تحلم بالبرج وبجميع هؤلاء «التعساء الذين أرادوا أن يبنوا برج بابل. هؤلاء الجبابرة الذين تبينوا في أجسادهم القوة على أن يصيروا آلهة فاتفقوا على بناء برج يصلهم بالسماء» قدر هو انني أتحدث بلهجة غريبة وفصيحة فكان يهز رأسه أكثر مني وأنا أتصور «ذاك الغرور العظيم الذي كان يملأ أعضاء أولئك القوم بالدم وهم يمارسون البناء. تستطيع هجران أكثر مني وبالقدر نفسه من الخبث والشهوة الظالمة أن تتصور أية قوة متضررة أو مستفزة، من ذاك الغرور، وتلك الثقة الإنسانية السعيدة، ومهما كانت ساذجة، أو ذكية، ستحتال هي، أو أنا أو غيرنا، أو هو الجالس بجواري من أجل كراهية هذه السعادة. أن نقف دون بناء البرج. هكذا تحدثنا التوراة أن الله بعظمته غضب لهذه المحاولة فألقى على الرجال غيرته فأصبحوا وقد اختلفت ألسنتهم وحل بينهم سوء التفاهم» هل كان بمقدور هذا المجرم الذي يجاورني أن يرى البرج في حلم هجران منتصباً متطاولاً؟ «والسماء ربيعية، ليس ضرورياً أن تكون ربيعية، ولماذا ربيعية؟

أنا وهدى ومسلم التقي نفضل الخريف. واليوم هو العاشر من حزيران، وبعد قليل ستستيقظ أجساد البنائين السعداء، الذين ينتظرهم سوء اللغة».

لكننا كنا نتفاهم على ما يرام أنا وهو ولم نعر اختلاف اللسان أية أهمية. سأترك للناقد عبد الجبار علي تفسير ذلك، كما تركت له اختيار عنوان المخطوطة. ترى هل سيطلق عليها ـ سوء التفاهم ـ؟

إذ إن جميع من ذبلت وأنا معهم، كانوا يظهرون بعض التفاهم من باب المراوغة، خالتي في المقدمة. هي أيضاً أصيبت بهذا الداء بعد ارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين. كان صوتها وهي ترفعه بكلمات التقريع والملامة خلفي أو أمامي، يتلاشى حالما أصعد الطائرة، ويتضاعف أول ما أعود إلى البيت. وشاكر موجود بجوارها. هرع إليها بغتة بعد كل تلك الأعوام. بقي يحدق إلى أعلى حين دخلت ورأيته هناك. أحضرنا إحدى قريبات خالتي من السماوة لرعاية الجميع. أخيراً حدثت شاكر وجهاً لوجه عن إجراءات الطلاق. نكس رأسه ولم يجب. فليكن، كان يريد قهري بكل ذاك الغرام، ورفض البقاء بجوار الوالدة. كان سوء التفاهم يصم أذني وأنا أطير على ارتفاع شاهق. شاكر لم يعد مخدوعاً بشكلي وهيئتي، هل انتهى الأمر؟ إذن لماذا؟ سألته يوماً وأنا أوصله إلى الباب الخارجي:

ـ شاكر لماذا لا تتزوج؟

مشيت وراءه. كالشمل كان يمشي. غادر ولم يلتفت إلى وراء قط. أبي صار رجلاً هرماً. بدا ضوضاء عباسة يهلكه، فضعف بصره وسمعه، وحاول الطلاق منها والعودة إلى ريحانة على سبيل اللعب هذه المرة، وليس المناكدة. لكن ملكة الشابة الجميلة، طالبة الكلية في جامعة البصرة وقفت بوجهه. فغافل الجميع في السماوة وبغداد وتعرف على مطلقة من مدينة الكوت، قصدته لتبديل بعض المصوغات. تزوج منها وأحضرها إلى العاصمة. استأجر لها قصراً في «عرصات الهندية» ونقل إليها ملكية المحلات في السماوة وأنجبت له توأم بنات. ثم عاد وفتح لها محلاً

باسمها للذهب في أحد الفنادق الفاخرة التي شيدت حديثاً في منطقة السعدون. كانت سيدة منشرحة القلب. باهرة الحسن وشديدة البأس. أول ما التقيتها أعجبت بها. كانت مقاتلة وعلى جميع الجبهات. فوسعت تجارة الذهب إلى الألماس. كانت ترتقي الدرجات من وراء الوالد وهو يتوارى إلى الخلف. فيبدو كالمتشرد وأنا أزوره. كث الشعر، يرتدي الدشداشة البالية والنعل أبا الإصبع. ضئيلاً، قميئاً، مكسوراً بصورة نهائية. يبدأ الشراب أول ما يفتح عينيه. كل خميس يسألني، أن أصحبه لزيارة قبر صديقه الوحيد، السيد جميل المعروف، وراء جامع الإمام الأعظم. وهو عائد يقف لتلاوة الصلوات وتوزيع البركات والفلوس على قبر الحاجة وفيقة المجاور لقبر جميل. قال لفخرية بصوت حزين:

ـ لو جاء الأجل المحتوم أريد دفني بجوار أبي عادل. هذه وصيتي بس.

تمازحه بصوت أكثر شجناً:

ـ أبا فؤاد، وإذا افتكرني رب العالمين قبلك، ها عيني اني هم وصيتي اندفن يم أنيسة روحي الحجية وفيقة. أمانة برقبتك لا تنسى. هذه صبيحة كل يوم رأسها يروح برأي. الله يهديها.

كانت الإشاعات تصلنا أنا وفخرية عن نشاط شاكر الجديد. نسمع ولا نتعجب. استقال أو فصل من سلك الشرطة ففتح محلاً كبيراً وغريباً في الباب الشرقي لبيع الكناري وطيور الحب. قالوا فيما بعد، وللكلاب أيضاً. ففي أحد الأيام صعد إلى الدرجة الأولى في الطائرة وبرفقته شابان صغيران أشقران وجميلان جداً، كنا في طريقنا إلى بيروت. اندهشت قليلاً وأنا أراه في مواجهتي، وجهه تغضن وشعره امتلأ بالشيب وشاربه أيضاً. لم نتحادث. نظرنا ولأول مرة في عيون بعضنا البعض. تجمع في نظراته الفسق والحياء معاً. تراءى لي أن وجهه يحترق ويصدر دخاناً، كان يحترق أمامي. ملابسه في غاية الأناقة. بدلة كاملة من النوع الفاخر، رباط

للعنق يشد رقبته، وتفاحة آدم تتأرجح صاعدة وهابطة وسط البلعوم. للحظة شعرت أنه يريد الارتماء بين ذراعي وبلطف غريب عنه أخذ مقعده في الدرجة الأولى. ترك الشاب الأول يتخذ المقعد المجاور للشباك، فدخل وراءه، واستقر الثالث أخيراً في مكانه. أول ما أذاعت فاتن التعليمات اتكأ أحد الشابين على كتف شاكر وبدا الآخر ينظر بجلبة وبحركة بها بعض الذلة من خلال الزجاج. في تلك اللحظة شد شاكر حزام الأمان. كان يغص بالضحك وهو يضغط على ذراع أحدهم. أغمض عينيه وأنا أمر بجوارهم بانتظار «نهاية الرحلة».

- ١٤ -

الرواية

اسمي فقط مكتوب بآلة الطابعة من الخارج، على مربع أبيض. - الأستاذ عبد الجبار علي -. كان مجعداً، الاسم من طبعات الأصابع فوقه. والمظروف سميك، كبير ومن النوع الفاخر، لونه مائل إلى البرتقالي الداكن. هذه الأنواع لا تباع في المكتبات العراقية دائماً، مسألة خبرة. مقفل بطريقة لا رجعة فيها، خشية تذبذب الإرادة فيما لو حصل وتراجعت. كأنه أرسل في ساعة شيطانية، في غفلة عن صاحبه والمدينة.

وصلني وأنا ألملم حقيبتي العتيقة. قال محمد الفراش:

- أستاذ جبار هذا الظرف باسمك. حضر أحدهم وسلمني إياه.

قبضت عليه، تلمسته بيدي. ممن؟ ولماذا بالاسم، اسمي؟ راقبت يدي وهي تحاول فك الصمغ المحكم من الخلف. لم أحاول تمزيقه. ببطء أتممت الأمر بأقل الخسائر. لسبب أجهله، كنت أريد الاحتفاظ بشكل المظروف سليماً. لازمتني هذه الخصلة على طريقتي في تدريس مادة الأدب العربي في ثانوية أبي حيان في مدينتي الحلة: تدبير فض الأشياء بلطف أصولي.

الفصول بيدي والأمور صارت أشد إمتاعاً، وقلبي أسمع وجيبه العنيف، فأتعثر في مشيتي وأنا في طريقي إلى المطبخ، وبصوت متلجلج:

ـ محمد، إبريق شاي من النوع الثقيل. من ذاك الذي يحبه قلبي من فضلك.

ـ بس هذا مو وقت الشاي.

ـ ها. . . اسمع انس الشاي.

عدت لغرفة المحررين واستحوذت عليّ فكرة الاختلاء بالمظروف ولوحدي. مددت رأسي من وراء الباب:

ـ أستاذ مصعب، هل تستطيع أن تتخيل، لأول مرة، أن تصلنا مخطوطة كاملة على ما أظن، خلاف جميع التوقعات وبعدما يئسنا من الموضوع؟ هل يعني ذلك شيئاً لك؟

أجاب مصعب بصوت شجي، كأن الكلمات واقفة في سقف حلقه:

ـ يا أخي لا تفتح الملعب ثانية، ولا تسمعني صافرة الحكم. فسوف أهز رأسي موافقاً وأستمر في الكمد. إن إحياء القصة ثانية، ربما يكون أجمل أو أسوأ من القصة ذاتها. والله نسيت الفكرة والمشروع بعد غياب وسفر أصحابها. مؤيد وهدى وإبراهيم. الجميع رحل بطريقه وخلف الآلام العتيقة. إبراهيم انتحر بطلقة في الرأس. تدري أني لا أصلح للرثاء، لكنني أتحدث عن الهجر. خنقت دموعي وأنا أدمدم أمام الجنازة. كأنه انتحر فقط لكي يستعاد إلى البلد. كأن الانتحار هو الإجراء الفني الأخير، ها، هل تذكر؟ وهدى لا تزال تكتب لي من بيروت «الفراق أفضل من الاحتراق». ومؤيد غادر هو أيضاً للعمل هناك. كأن بيروت هي الموت والميلاد. وبعد، بعد، أنتم الأربعة أصحاب هذه المسابقة. إفعل ما شئت يا أخي. اتلفها، بروزها وعلقها في أماكن الغائبين. والله لا أدري. لا أريد أن أسمع أي شيء عن المسابقة والشروط وأسماء النقاد والشعراء بعد أن غادر كل واحد منهم إلى مكان. أرجوك لا تدوخني بها ثانية. كل يوم تصدع رأسي بها. ماذا سنقول للقراء؟ هل تذكر الإلياذة في إحدى فقراتها. كان الشاعر يردد: «توقف إذن عن القتال، ولا تحمل

السيف أبداً. خذ بثأرك بالكلام مهما حصل» وآني حتى الكلام عندي خلص. ستقول لأن عائلتي انفرطت ثانية. أليس هذا ما يدور في ذهنك؟ ولماذا عليها ألا تفرط؟ أصلاً لماذا عليها أن تنجح؟ يا أخي تعال، اجلس شوية. كل ما أشوفك أتصورك سوف تذهب ولن أراك ثانية. ألا ترى أن الحب أمر لا عقلاني. إنك تظل تحب تلك المرأة رغم كل ما تفعله بك وأنت لا تدري لماذا؟ ربما من الأفضل ألا تدري. ها. . ما رأيك؟

ـ رأيي أستاذ، انني سأعود بعد قليل. سأذهب وأعود. هل أنت باق هنا؟

ـ باق، باق وأعمار النقاد والشعراء قصار. متى ستعود؟ أكيد ستذهب إلى البار؟

ـ تمام سأذهب إلى. . . وأنت؟

ـ يمكن سأنام هنا كالعادة. ها اسمع قبل أن أنسى. .

كانت طاولته فظيعة. فبدأ يسحب ويزيح، يدفع الملفات والقصاصات ويبحث:

ـ هاك، خذ، إمسك واقرأ بطاقة دعوة باسمك لحضور حفل السيدة وئام. دعك من الأسماء الآن، فتلك قصة أخرى. متى؟. . . الرابع والعشرين من تشرين الثاني. أي بعد أيام ثلاثة.

أمسكت بالبطاقة:

ـ وما دخلي بمثل هذه الحفلات؟ لم أر تلك السيدة إلا بضع مرات هنا. ولم نتبادل إلا التحيات. غريب. ألا ترى الأمر غريباً أستاذ؟

ـ لما تعود ستتحدث.

ورث سيجارة وأعاد نظارته الطبية إلى عينيه. أصبح مصعب رجلاً لا يطاق، كل ما تسأله يجيب: يا أخي قلبي صار مثل المقبرة المتنقلة وجميع الأماكن شغلت. . ها وماذا بعد؟

ـ زين أستاذ. في أمان الله.

ـ مع السلامة.

مشيت منكساً رأسي وبيدي البطاقة والساعة تقارب السادسة مساء، لما توقف المصعد، وفاح عطر امرأة. فتح الباب ووقفت أمامي. باهرة، مصبوبة، سبيكة من الذهب في قامة متوثبة:

ـ مساء الخير...

أجبت قبل أن تسأل:

ـ هدى لم ترجع بعد، والأستاذ وحده كالعادة في المكتب.

أجابت بثقة:

ـ أدري... هل..؟

بدأت تنظر إلى يدي. أفسحت لها الطريق، ومن بين أسناني كانت الكلمات تتعثر:

ـ تفضلي بالطبع، أهلاً وسهلاً.

بحركتي وارتباكي وهي تدقق في بطاقة الدعوة، سقطت أمامنا، في البقعة الفاصلة بين المصعد وباب المكتب. في حركة واحدة نزلنا سوياً. رأسانا تلامسا بغتة ويدانا تحطان على المظروف الأبيض المذهب. رفعناه بيد واحدة. وهي تنظر في عيوني وأنا لا:

ـ عفواً...

ـ ستحضر يوم الخميس.. ها؟

كررت:

ـ عفواً، عفواً...

بيدها البطاقة ونحن استقمنا واقفين. وجهي تورد والدم يكاد يطفر من صيوان أذني وهي تحدق بنظرات شديدة الغموض. وأنا أنفاسي تتدافع وقد انزعجت فعلاً أن يكون للهائي كل هذا الدوي.

بالغة الجمال. كررت ذلك. وليست مترددة مثلي، لكنها تتسم بالغرور، كلا بالهزء الذي يتظاهر بالغرور:

ـ معذرة إنني خارج الآن.

ـ والدعوة؟

ـ والله سنرى.

زفرت بهدوء، فأجبت:

ـ كل خميس أنزل إلى الحلة.

ـ وهذا الخميس تنزل في ضيافتي، ولو ساعة زمان، ها...؟

صوت مصعب يتعالى من الداخل بعد سماع صوتينا. كالبرق كانت النظرات تتراكم بيننا وأنا أضع البطاقة في الحقيبة. ما أقل الجمل التي يمكن أن تقال أمام هذه السيدة الزائدة أكثر من اللزوم. على من يشاهدها أن يترمد. نزلت مشياً. كالمخمور صوبت رأسي وأنا في الشارع العام إلى أعلى العمارة، تلمظت ريقي، شعرت بذراعي تتنملان.

كان مسرى السحب في أفضل أحواله. والشمس صارت بلون النحاس المضروب من جميع الجهات.

في ساعة معينة يحضر الجسد الطاغية، فأراها طاسة مليئة بالزهور الكثيفة الأريج. لا قدرة لي على مخاطر الجمال. كأنني أضم بين ذراعي حبيباً لا أعرف إلى أين سيأخذني. بلى، أطلق عليه اسم الحبيب، لأن قلبي يتوق ذلك، ودموعي تريد الترقرق لكي يتلقفها المحبوب.

«هـي شـامـيـة إذا مـا اسـتـقـلـت

وسـهـيـل إذا اسـتـقـل يـمـانـي»

لم أمل من تكرار هذا البيت، في الصفوف وأمام الطلبة. في الجريدة وأمام المحررين. مصعب فقط يضيف ورائي:

ـ يا عبد الجبار صوتك يصل الذروة وأنت تنشد هذا البيت الشعري.

لكن أنا معك، شفتاك ترتجفان. لماذا؟

لن أذهب إلى شارع المشجر، حيث نقيم، نحن عصابة الأصدقاء، الصعاليك، المجانين والشعراء. اليوم أريد الاختلاء في منفاي في الحلة: فأنا «نتاج المقاهي والفنادق والحافلات، القطارات الليلية وبعض المكتبات. رحال فقير مدقع، لا بيت، لا زوجة، ولا حبيبة، ولا مستقر، إلا على ضيم».

هكذا كان يذكرني صديقي الشاعر محسن، ويكمل الأستاذ مصعب: «عبد الجبار إمام النقاد الزاهدين».

أغذ الخطى قاطعاً شارع الرشيد. لا أحفل بأحد، ولا أريد الذهاب إلى المنتزهات العامة، ولا إلى وكرنا، وكر الثعابين المسالمة. ولم أستقل الحافلة. بالكاد تكلمنا، فأجبتها: زين، وماذا بعد؟

ومطر تشرين الثاني تفوح منه رائحتي، وشهيتي المحتاجة، حين يبدأ بالزخات الهادئة التي سرعان ما تتحول إلى سيول ألحق به ويباغتني. بالمرصاد يصير فراشي البسيط فيشطف بدني. هذا مطر لا يسد الطريق كما يحصل في أيام الشتاء وتلك قصص كانت تحصل عندنا. الصيف يمهد لها فنغادر إلى الجنينات العامة بانتظار ولاء ليل الخريف. في أحد الأيام أحصينا أنا وباقي الربع، وكنا في حديقة الزوراء، عدد العشاق الذين كانوا يختبئون وراء الأكمات والأشجار العالية أو يجلسون متجاورين على المصاطب الخشبية، لكنا لم نتوصل إلى رقم محدد. بلى، ذلك حب وهو ليس محل خلاف. إن طريقة النوم مع من نحب تتغير في هذا الفصل ولا نعود نغرم بشخص واحد فقط، فنعود ونقتفي آثار بعضنا البعض وما يجاورنا من الشجر والنسيم، من الوجل والإلهام، نتبضع مما يجاورنا من هواء صاف ورطوبة بليلة وحب قاتل. شهر واحد فقط يبدأ من منتصف تشرين الأول حتى نهاية تشرين الثاني، فنتشبث به كالمراد وندري أنه سيفوت ولا نستطيع اللحاق به ولو لبضع ثوان. وكل مرة نردد، هذه أول

مرة، ونجيب لا، هذه آخر مرة. الخريف وحده يعثر علينا، على وجوهنا الأصلية ومشاعرنا المدلاة على ثيابنا الرثة، فتلوح الأرصفة وأصباغ العمارات. الأرض وكأنها طالعة من الحمام، مستحمة إلى آخر خصلة من شعرها، كذاك الجسد الذي خطفني قبل دقائق، وها أنا أضل الطريق. أصل حلق جسر الجمهورية كالمنوم أعبر صاعداً إلى قطار الليل النازل إلى بابل.

الويل لك من ذاك الجمال. وإذن، ما على الجمال إلا البلاغ. بصوت غير مسموع صعدت فوق، إلى غرفتي العلوية. كنت منوماً، ببطء شديد أتحرك، لكن صوت زهرة، زوجة أخي وهي تناديني من غرفة الجلوس وصوت التلفزيون عال:

ـ ها جبوري رجعت عيني. عشاؤك حاضر في المطبخ.

وقفت في منتصف السلالم وبركت فوق إحدى الدرجات. وضعت حقيبتي فوق حجري. كانت حالتي تزداد سوءاً. هل أبدأ منذ الآن؟ جسدي كان يمر بالتجربة كاملة وأنا عاجز حيالها، لا أعرف ماذا أفعل؟ هل أبدأ بالشراب منذ الآن؟ أم بالقراءة؟ صوتها وهيئتها يدويان في رأسي، وأينما أستدير أعثر على الجمارة. صعدت ثانية إلى غرفتي. هنا أقطن والكتب تتقاطر عليّ كالضيوف. طاولة مستعملة، كرسي عتيق، ورفوف تصل إلى السقف. كنبة طويلة تتحول على الدوام إلى سرير يكسر العظام. مروحة سقفية أزيزها يضرب طبلة أذني وهي تطلق شررها. والنافذة كبيرة، أظفر وهي مفتوحة برؤية أكتاف الأشجار البعيدة وحواف البيوت في الطرف الآخر من الشاطىء. هنا، من على هذه الطاولة، وفوق هذا الكرسي أكملت بعض فصول كتابي النقدي الأول «مرايا في الطريق» بعدما عرف اسمي عبر مجلة «الآداب» اللبنانية. وبين «الشقة المباركة في شارع المشجر» وهذه الغرفة، بدأت بكتابة المسودات الأولى من كتاب عمري: عن السياب. لكن كتابي عن القصة والنقد القصصي لم يبدأ من هنا. آه،

ما أغرب الشقق التي سكنتها. كنت آنذاك أقطن شقة في منطقة الصالحية، قرب الإذاعة مقر عملي الموقت وبين صحيفة «الغد» في صوب الرصافة. ياه، كان الطريق يتفرع ولا ندري أي الاتجاهات سنأخذ. الطريق نفسه ترياق، لكن الفروع تلك كانت تجعلني أفوز، حين يحل الليل، بأجمل التعابير السوقية، بالطيش والتهتك، بالريفية والرعاعية، بأنواع الرقص الهمجي، بالصياح المدوي كما يحدث ذلك في مشاجرات الأحياء الشعبية والخصومات في القرى والمحافظات الحديثة البناء والتشكيل وزعيق الأصوات في الأسواق المفتوحة على عشرات الاحتمالات، كلها تدفع بي وأنا وسط أصدقائي إلى اللانوم، وتوالي رجات القلب، والجزع من تفسخ الشباب، فأنا من أصحاب نظرية الفوضى التي تقول: «إن خفقة بسيطة لجناح فراشة يمكن أن تكون كافية لقلب مسار الكوكب» ويتضاعف عليّ الحصار بين تلك الشقق والأمكنة، بين العيش حتى ثمالة القدح الأخير والجنس الجذلان «الحيوي المتحمس وليكن العصابي أو المنحط» لا يهم، حتى المبتذل. نتحدث عنه في الخلوات واللقاءات، في البارات الرخيصة وتلك الباذخة التي فتحت حديثاً، ونكاد نقتل أنفسنا في النقاش عن الموت المبكر، الثقافة والجنس، عن السياسة والصداع الكلي. حديثنا الذي لا يضاهى، ونحن ننوح ليلاً، كلنا، الشعراء، الكتاب والقصاصون والنقاد الجدد.

وحدي أدمدم بين كأس عرق ومواعين من الحمص المسلوق ورأس خس ريان وأنا أنوي كتابة مقدمة لمجموعة قصصية. أو أضع الخطوط الرئيسة لتأثير الشاعر الروسي ألكسندر بلوك على شعر حسب الشيخ جعفر.

لكن لما صدر كتابي عن السياب في أيار من العام خمسة وسبعين، قبل عامين، أقام لي الربع في حدائق اتحاد الأدباء حفلة كلفتني دينارين. أصر صديقي عبد الأمير على دفع أجور تلك الحفلة. كانت مقاعد الاتحاد

خالية من النساء. العمر يفوت ولا ندري متى ستحضر المعجزة، انبعاث غلامة، بدل ذلك الغلام الذي يربك ويفضح الأسى الغرامي. أول ما أردد ذلك يعود المكان خالياً من المرأة، لكنه مكتظ بالنساء. أنفاسهن تتصاعد منها أبخرة الطبيخ وعلى أكتافهن تدوم رائحة الاصطبار، اصطبارنا كلنا لا على التعيين.

في هذه الحجرة أبسط نساء الأرض. أضعهن في أراجيح وأهزهن عسى أن يرتفع الثوب أو يسقط الحزام. كان محسن يردد بصوت وقح دائماً:

ـ والله أنت أكثرنا هوساً بالمحرمات والمعاصي. أكثر من القصاصين والشعراء الذين تدرس أعمالهم: عن تأثير المدينة في الشعر أو القصة.

صوتي يزداد أزيزاً وأنا أعيط وأختض فأرتكب شطط العادات العلنية والسرية. وألوي يدي باحثاً عن مخرج.

وإذن، تحسر يا عبد الجبار، تنهد، واشتم وغن. وها أنا أتلصص ثانية إلى ما وراء الشباك علّي أمسك خيوط عرشي القديم والصغير، مليكي الخاتل الذي أخاف عليه الفالج. أنادي ولا أسمع حتى الصدى.

نزلت إلى المطبخ. هل أبدأ منذ الآن بالشراب؟ وأي وقت صالح له؟ بوسعي الزحف إلى المناسبات. كالحرامي دبرت كل شيء على عجلة. مواعين تفتح الشهية بالأطايب، ونصف قنينة من العرق. والقلب يزهر قليلاً، ليس مما كنت أفكر به، لكن من كل هذا الاستعداد: «للزائل والعابر، للهش والانتحاري، للمباغت والملتبس» رشفت رشفة كبيرة وقضمت رأس خيارة صغيرة كالعروس، فسمعت صوتي كالمنبه. أمام الطاولة والعتمة هطلت بأكملها. أضأت مصباح المنضدة ذا الفولتية العالية وأخرجت المظروف ثانية. فصول بعضها سميك وكتبت بحروف مائلة وخط أسود غامق وعلى آلة طابعة، حروفها صغيرة، أنيقة ومنضدة بطريقة حرفية ومرقمة بالأرقام العربية. وفصول تشبه المسودات، أقل اكتراثاً

وتنظيماً. هذه الفصول بالذات بدت لي كأن أحداً كان ينوي حرقها أو رميها خارج المظروف، لكنه غير رأيه في آخر لحظة. أوراق متفرقة خالية من التواريخ تشبه الخطابات، لكنها ليست الأصلية. وهذه المجموعة من الفصول طبعت على آلة ذات حروف كبيرة وشديدة الوضوح وبأرقام هندية. وكل مجموعة كبست بمعدن مختلف. حسناً، أتصفح ولا أعثر على سطر واحد بخط اليد. لا كلمة مكتوبة على الهامش ولا ورقة مباشرة تريد تعريض نفسها للعب حتى. لا شق في الصفحات ولا شخبطة تثير علامات التعجب. لم ترتكب غلطة واحدة، فكل شيء تم بإتقان مريب ويثير الفزع. ولا أدري إن كانت الأوراق تخص رجلاً أو امرأة؟ كأن الذي أرسلها كان يريد أن يكرم بساعات قراءة، إذا بدأت، ستبدأ في ليلة ولن تنتهي في الليالي المتعاقبة.

وأنا لجنة القراءة، المراقب المجهول، المؤهل لفك الرموز وعلامات الطريق، أليس كذلك؟

وضعت حداً للأسئلة السخية التي كانت تستفزني، فسولت لنفسي أن أبدأ القراءة من الأخير. ولا أدري لِم شعرت أن هذه الوضعية تلائمني وبمقدوري أن أرى آثار الأقدام محفورة على طبقات الأرض التي أجوسها للتو. «كأنني أعيش فصلاً من رواية» أعرفها. أعرف بعض الأسماء والعناوين، والأشخاص المركبة تصاويرهم على أفراد آخرين أراهم ينهشون الحياة أمامي، وينهضون مجدداً من الدمار. كان الشعور هذا ينمو حتى تعود الكلمات تنحيني جانباً وتقول لي: خذني كما أنا ودعك أنت ضمن حدود. فأشرب بأفضل صورة ممكنة.

فماذا سأطلق على هذا ويعد القراءة؟ نقداً انطباعياً؟

«وأنا لم أكن قد درست الانطباعية بوصفها منهجاً نقدياً» وها أنا أستأنف أصوات الرجال الذين لم يبلغوا الأربعين بعد، مثلي، ويفترض أن هذا مشهد مدبر بذرائع معقولة بين الخيال والرماد. فلماذا تصورتهم

جميعاً، يعزفون على القيثارة نفسها التي التوت بين يدي في سنين خلت؟ أولئك ليسوا رجالاً في بطن مخطوطة سترى أو لا ترى النور. كنت أقاطعهم لأراهم جيداً على نور المصباح الليلي وهم يحترفون البراءة ويخترعون مضاداً للصبر بعد اقتلاع الأظفار والألقاب.

أنهض، أسعل وأريد سيجارة «روثمان» من علبة الأستاذ العزيز مصعب عبد اللطيف.. ألا ترى يا سيدي الكريم أنني أتبادل النظر وإياك. ألا ترى أنها الرابعة صباحاً، أن نصف القنينة لم يكف الشاعر كمال عبد الرحيم. كان بحاجة إلى ساق يقوم على رعايته لوحده. فالقطرة الواحدة ستأخذه إلى نشوة المرارة.

جلوساً أو وقوفاً، فلا أهمية لوضعية الكتابة. هات ورقاً وقلماً ولثة قوية بمقدورك عضها بصورة دائمة حتى تتشقق الشفاه وأنت تنادي ولا أحد يرد النداء. أكتب يا عبد الجبار ابن علي، يا أستاذ الأدب العربي، والناقد الهيمان. إصغ الآن لصوت الحورية وهي تخرمش الروح والبدن. اكتب قبل أن يأخذك إسراف الأشواق إلى التبدد: «فأنت دائماً إزاء تجربة تنطوي على قدر من التعقيد والأسرار. وإذن دع نفسك تذهب بحرية إلى هذه التجربة. لا تقسرها، دعها تتشعب وتضيع هنا وهناك. هذا الضياع الجميل الذي يقود إلى الهدى. فالنفعية في النقد تتناقض مع ما طبعت عليه من ميل نفسي وقناعة أخلاقية بأن الممارسة النقدية ليست إلا حواراً حراً غير مشروط بغير الإخلاص والنزاهة» وهذا يكلف غالياً.

* * *

حالفني الحظ ولم أشاهد الجثة في الجانب الشرقي من كورنيش الأعظمية الجوانية، في الموقع الواطىء للجرف الذي كان يختلي إليه الصبيان وهم بأشد الحالات هناءة. يعرضون أعضاءهم للشمس العراقية في وثباتها الأولى. يتوهجون وهم يضخون الدم في تربتهم الريانة، وينتظم الاكتظاظ بالعري، والتفاخر بالامتلاء يبلل لحومهم الجميلة

والمخصبة، فتختلط عناصر الرمل والهواء ورائحة تفاح أخضر دار بين الأفواه فعلقت بأنيابهم قشرته الفجة، محولين كل ذلك إلى عيد سري.

استثارتني وضعية هؤلاء الصبية وهم غير عابثين بما خلفوه بين الأصابع، بعدما أعادوا سراويلهم القصيرة إلى مواضعها الأولى. فلو افترضنا أن ذلك هو الذي فعلوه، فالأمواج كانت هادئة، ودجلة كان قميصهم الندي، وهم عملوا ما في وسعهم، في ذلك الصباح الباكر من ليلة الخامس والعشرين من تشرين الثاني من العام سبعة وسبعين. فهل كان ثمة حل آخر أمامهم إلا ملاقاة الجثة في ذلك المكان القاتن من المدينة؟

اندفعت قدماً مع هذه الرواية. فأنا لم أذهب إلى هناك وهذا أمر مفهوم، لكنهم وقفوا أفضل مني في المقدمة. والجثة ليست في سريرها كالمعتاد. وهذا الانتقال بين البيوت، من حي المسبح في جانب الرصافة إلى الحي القديم في كورنيش الأعظمية كان يحتاج إلى الكثير من الكياسة والدبلوماسية.

رويداً رويداً بدأ أمر هؤلاء الصغار يروقني وأنا أضعهم على المنضدة بجوار استكان الشاي، ومنفضة السجاير ومظروف المخطوطة. والحال، الجميع كان يتقافز أمامي ذهاباً وإياباً، تمدداً واصطفافاً.

عشرات الروايات والقصص كانت تختلط بمواضيع شتى؛ هتك الأعراض، شطف العار. ومن الجائز بالطبع حصول حوادث بسبب الحب فوق الاحتمال ما يجعل المعنويات تنخفض والحيوات تتفحم فيحل الشقاء. لكني كنت أشرب الشاي على عجل لكي أطلب المزيد ثانية وأتحكم في الفوضى التي أصابتني.

فالسيد مصعب أغلق عليه الباب بالمفتاح. لم يتشاجر أو يغضب. استخدم عدداً قليلاً من الكلمات وبنظام كان يفتقده في السابق. قال المفيد ولم يتح لي فرصة التلكؤ أو البحث عن كلام نموذجي.

ـ كل شيء معقول يا أخي.

أساء معاملتي ومعاملة نفسه بهذه الكلمة. كان متأكداً أن من المصلحة أن لا يلقي عليّ محاضرة. وأنا تحفزني المفاجآت، لا انتظارها فحسب. إن الذهاب مع أولئك الصبية إلى الكورنيش وإخراج السيدة صبيحة من هناك ثانية جعلاني أتوقف عن التنفس لثوان. فأنا الآخر كنت أروج الإشاعات وأصدقها، فتتوالى ساعة بعد أخرى حتى يخيم الظلام. هل كان غرقاً، انتحاراً، أم قتلاً؟ وإذن تفضلوا واذهبوا إلى المكان المهجور الواقع بين اللسان المائي والأبنية المتروكة البشعة والعتيقة وكفوا عن الهمس. إنني متأكد أنها لم ترسل أية إشارة ولأي أحد. لم تتضرع أو تومئ، لم تتوسل أو تغضب. فالصبيان لم يتفوهوا بهذه التفاصيل قط. كانوا يتفرجون، وحتى هذا الأمر ثمة شكوك حوله. فكيف أثبت كلامهم والأستاذ لا يزال في وضعيته؟ أجاب محمد:

ـ بعده مثل الأول يدخن وينظر من الشباك ولا يرد على الهاتف الذي ازداد رنيناً.

ـ والقهوة المرة والأسبرين والماء المثلج. . و

ـ وضعت كل هذا أمامه قبل إغلاق الباب عليه.

عال، أكوام من بيوت قديمة. شاطىء ساكن يؤدي الصلوات ولا قارب صيد في الجرف ينتظر. ونسيم رطب وأصدقاء صغار لا يحفظون السر في الغالب. مشاهد تتحرك كما يجب وهي لا بأس بها لمن يحاول عمل فيلم سينمائي، حين تفتح الشاشة والكاميرا تخطو فنرى بالتدريج جانباً من الظهر الحريري لجثة كاملة تبحث عن شباك الصيادين. تدخل الشبكة بقدميها ونوغل نحن وراءها. فنراها وكأنها طالعة للتو من آخر نقطة من الرافدين، فلا يستعيدها الشاطىء إلا تحت ضوء القمر وساعات المد، وخيالات سن البلوغ البازغة لهؤلاء الصبيان وهم يسحبون الذراع اليمنى العارية وقد لوحتها النيران فانشطرت من جراء العناق الطويل والفتوة

وملمس الجمال. واصلت شرب الشاي وطلبت إبريقاً جديداً وأنا أتخيل أعمار الأولاد، كانوا بين الرابعة والسابعة عشرة. استخرجوا أيديهم من جيوبهم وحاولوا قدر المستطاع إطباق جفنيها لكي لا يعبث بها الذباب الطنان.

دفنت رأسي بين يدي وبدا شكل الطمي وآثار الأقدام الكبيرة فوق الرمال، وصبيحة كالذخر مدفونة هناك، تراودني وأنا لا أستطيع ملاقاتها، لا على الفور ولا من قبل.

ناقد يعبث بالرمال ويعرقل عمل هؤلاء الفتية الذين كانوا يسعون لإصلاح الأخطاء وهم على الطريق. غضبي كان فجاً، وأنا لأول مرة أعرف كيف أستخدمه، لما سألت محمد أن يشتري لي علبة «روثمان» بعدما استحيت أن أطلب السجاير من الأستاذ. لكن الأستاذ فتح الباب وسلمني علبة جديدة ثم عاد بهدوء دون أن ينظر في وجهي.

مصعب هو الراوي وصبيحة الرواية، ففي القصص والروايات لا يوجد كذب ولا صدق مئة بالمئة. إن الأحابيل والمبالغة، التشويش وقلة الفضائل حتى، سنوليها أهمية كبرى بدلاً من الإحصاءات والوقائع الإجرائية. لم يكن أمامي إلا العودة لرواية أولئك الشبان أفضل من الانخراط في نظرية النقد الانطباعي التي أفرطت فيها، خصوصاً بعدما استلهمت نموذج «التضحية في شعر السياب»، فحتمت عليّ معايشة تجربة تلك القصائد بميل مبكر، لكي أتعقب أزمة الضمير والانقسام الذي بزغ من خلالها السياب مسيجاً مدمى ينوء بثقل يهوذا الكامن فيه، ويهرب، على ذرى الفداء، من رجم الآخرين بالحجارة».

تساهلت ولم أصرخ معهم وهم يسحبون خصلات شعر السيدة صبيحة، فلاحظوا أفضل مني أنه أطول مما توقعت، ولونه بالتأكيد غير هذا المرمل والمفرط في الوحل.

هذه السيجارة السابعة خلال أقل من ساعة. ما زلت أفكر بمصعب

وهو يسرف في الصمت والقرف والملل. يمضغ تبغ السيجارة في فمه وتفل القهوة المرة، ولم يشر حتى لماذا اتصل بي وأنا في الحلة ليذكرني بيوم الحفلة وساعتها. كانت من المرات النادرة التي يتصل فيها بالمقهى المجاور لداري. ولما أجبته أنني لا أعرف بالضبط إذا كنت سأحضر أم لا؟ رد بين السخرية والجد:

ـ يا أخي اطلع من دور الناقد الذي يريد أن يعرف صلة أي شيء بكل شيء. أترك عقلك النقدي النزيه ولو لساعة واحدة. تعال بس. العنوان عندك إذا حضرت ولم تجدني، ولو من المناسب أن نذهب سوياً.

لم يهمني الموضوع أصلاً؛ حفلة من أجل تدشين يخت شراعي شديد البذخ سيتوقف بجوار ـ مسناية ـ الفيلا الأنيقة قبالة دجلة في حي المسبح الفاره. لكنني استغربت بالفعل لماذا لم تتم الواقعة في دارها؟ وسط اليخت على سبيل المثال. أو بين الممشى والحديقة؟ أو كأن توضع بين كراسي المدعوين مثلاً، وحتى أمامهم، لم لا؟

لا بد أن الانتقال بين الرصافة والرصافة له غاية ما، وأنا كناقد لم أحقق أي نجاح في هذا الأمر. أحتاج إلى إجازة وقنينة عرق وماء وطمي وهواء ووفرة من المعايير غير السائدة لكي أدقق جيداً في كل هذا العذاب الذي كان يفرخ في، بعدما صار شريكاً في ردود أفعالي. أما أفعالي فكانت بسيطة جداً: الرعب الذي يقف في أعلى السلم ويردد، يا عزيزي جبار أنا مضيفك الكيّس.

قمت وفتحت الشباك إلى آخره. وحين سمعت صوت بعض المحررين الذين يعملون بالقطعة وأنا المسؤول عن تجاربهم الأولى في الكتابة الصحفية، داهمني خاطر أنهم سيكشفونني فتكلفت البرود وعلى غير عادتي في رد التحية. تركت لهم الغرفة بعدما أخذت جميع حاجياتي وذهبت إلى الغرفة الثالثة، الفارغة والموحشة. غرفة إبراهيم ومؤيد وهدى وجمعة وباقي الربع. وضعت كل شيء على طاولة مغبرة، فخضتني حركة

يدي. كأن بيدي طاسة وأمامي سطل وأنا أغرف وأبدأ بتنظيف بدن صبيحة من الهوام والرمل وبيوض الحشرات الميتة والعناكب الصغيرة، وها هي الآن تحت النظر، نظري ويدي، أمسك بها لوحدي ودون الصبيان والبالغين الراشدين علانية. لم أهتم بكوني ضعيف البنية وقصيرها، ولا أستطيع إمساك أو سحب أجزاء البدن كله، لكنني كنت أقاوم وأنا أشاهد الكتفين وهما على وشك الخلع. البطن منفوخ بطريقة فظيعة، ما أن ضغطت عليه حتى أصدر صوتاً. الفخذان متفحمان. والساقان عليهما آثار أسلاك. كانت حركاتي صبيانية وأنا أبحث عن ملابسها. فثوبها في الحفلة كان به شق من الخلف صاعد إلى أول الفخذ. والألعاب النارية كانت تتصاعد في السماء، وجميع الطبقات الجديدة والقديمة، الميسورة والأشد يسراً كانت هناك: «فدائماً هناك الممثلون السيئون، ودائماً عروض كهذه مبتذلة، والرهانات غير متعارضة بين جميع فرقاء الجبهة العريضة التي ستقص شريط الاحتفال» وهي معطرة، تتنقل بين الجميع ولا تبتسم. كانت فقط تسترد ابتسامتها من الجميع. تحاول أن تكون لطيفة مع ذلك، ولا تعرف لماذا لا تقدر. وذاك هو الفيلم الأول الذي عرض، ولم يكن خليعاً ما فيه الكفاية يا عبد الجبار، انه لا يصلح إلا لأولئك الصغار، رواة الفرجة الأولى على الشاطىء الهادي. أنا أريد مزاراً يفتح لي ولو ليوم واحد، ألثمه وأشمه وأنثر حوله عيدان بخوري وعمري الزائل وأصلح من درجة إبصاري للعينين الإلهيتين. لما انقضت عليّ ليلاً قبل أيام في الإدارة وهي لا تغض عينيها عني، وجمالها مخيف بعدما سمنت في الوركين والبطن والنهدين واستقرت في ملامحها بذرة الازدراء والشماتة. لكن الثوب الذي سحب منها بعد طوفان جثتها في دجلة كان بلا حمالتين. وعلى النهد الأيمن آثار حروق ولونه استقر على الأرجواني والأيسر صار مجرد تجويف غائر، والرقبة بدت كالأم الرؤوم لقافلة صغيرة من الديدان والخنافس. أما الوجه النادر، القاتل، فلا تزال تتصاعد منه أدخنة من

الأذنين والشفتين. والجميع ينظر بوضوح شديد، وأنا آخرهم.

أول مرة شاهدتها ليلاً، حين فتحت الباب نظراً لغياب محمد الفراش، سألت عن السيدة هدى، وكان ذلك قبل سنوات أربع. يومها مرت بعطرها فشعرت أن حجمي الصغير وقامتي القصيرة ارتفعا، تحولا وأنني صرت كائناً أثيرياً. قلت لروحي: «هذه المرأة وضعت إصبعها على مراكز الأشياء. فكل شيء يبعث على الضجر، الأمم والأفراد، بقدر ما تذروه الريح، فلا يبقى إلا الجمال الذي يبثه الفنانون». ليلتها سلبت لبي فبدأت أهيم في الحانات الليلية حتى آخر سكير. أشرب وأهتف باسمها المرادف لاسم عمتي الجليلة: صبيحة.

أحبها، أحببتها، كنت أتصورها رغيفاً طالعاً من التنور للتو وأنا أغمسه بجوعي ولا أشبع. أحببتها إلى الحد الذي كنت أتمنى أن يتفرق شملنا لأعود إلى لملمته ثانية في الموت.

في أثناء اللقاءات الخاطفة في إدارة الصحيفة، كانت تدخل غرفة مصعب فأقنط. لا أتوهم أموراً أو أحداثاً شتى. فالغرفة مضاءة وهما لا يتحادثان كثيراً. وهدى سافرت إلى الخارج ولا أحد يدري حتى الساعة لماذا وبسبب من. وحين أدخل عليهما، يكونان بالطبع بثيابهما ولا أثر لعناق مبلل بدموع تتبخر حالما أصل. الموسيقى فقط تنبعث من آلة التسجيل. موسيقى بطيئة ومستحيلة تحضر بمقام الوحشة الباغية، وليست على مقاس الحنين الذي يناسبهما سوياً. فتلك الموسيقى تخص هدى، وهذا زوجها. وصبيحة لا تئن أو تتوجع. كانت وحيدة، ومصعب وحده، وأنا وحدي.

كيف يعيش الوحيدون هنا، في هذه الساعة من ساعات الخريف المرفوع الهامة؟ يبدأون من النهر وإليه يعودون، وهذا لن يكلف غالياً. فالماء كثير، الماء جمهورية لوحده. والغلة وفيرة بشرط أن تكف عن النقد يا عبد الجبار، فلا أحد سيسمعك، لأن الحشود لا تشعر بالتشوف

إلى الحقيقة. استعرت هذه المقولة من إحدى فقرات المخطوطة التي فرشتها أمامي على المنضدة المغبرة وقلت لنفسي، في بغداد سأبدأ القراءة من البداية.

هل حالفني حسن الطالع ولم أذهب إلى الحفلة إياها؟ لم يكن الأمر كما فسره الأستاذ مصعب. فأنا وصلت مساء ولم أعثر على أحد ووجدت ورقة ألصقها لي خارج صندوق البريد في مدخل العمارة. وجدت في الصندوق مظروفاً وبداخله عشرة دنانير. كتب مصعب بخط جميل:

ـ إذا حضرت مبكراً فهذه فلوس للهندام الجديد.

يا للقلب النفيس. نظرت إلى نفسي. كانت ملابسي تحمل لوحة أول القرن. سروال رمادي عتيق، قميص لونه بين البصل والحليب وغير مكوي، فوقه سترة عتيقة. كنت أقدر الملابس المستعملة وأطلق عليها الألقاب الفنطازية، ثياب المحظوظين النبلاء. فأعقد الصلات الحميمة مع أصحابها الأصليين. وعندما أعود عصراً من سوق ـ الهرج ـ في السراي، كان مصعب أول المستقبلين وأنا أحمل مؤونتي من هناك، غير قادر على إخفاء مشاعر الحياء. فأطلق عليّ وصفته الشهيرة التي سرعان ما تناقلتها الألسن في المجالس العامة والخاصة:

«عبد الجبار صاحب الخفر والنقاء اللذين لا يتقلبان كما الشعور الوطني».

فترمش عيناي الخضراوان بشدة وأضحك بعصبية، وخداي يتوردان وأبدو على وشك البكاء. كما أنا الآن بعد واقعة ليلة أمس.

مصعب لا يزال في غرفته وأنا وحدي. قمت وقررت الذهاب إليه وليحصل ما يحصل، فوجدته في الطريق إليّ. تقابلنا في الممر المعتم. الحواجز رفعت بيننا وبتواطؤ، لكن الجثة طغت على أزيز نبضينا. هو لا يدري أن ملابسي العتيقة ليست هي السبب في عدم ذهابي إلى الحفلة. سأجيبك حالاً يا عزيزي. كنت خائفاً من أولئك الذين يسكنون الأحياء

المسيجة بالأسلاك الكهربائية والشارات الضوئية ذات الفولتية الصاعقة وأبراج المراقبة في أعلى تراقب القادمين والخارجين. خائفاً ولا أستطيع أن أمسح عرقي فيما لو تبادلنا النظرات العارية أنا والكلاب البوليسية المدربة تدريباً أصولياً ناجزاً وهي تتعقب ثياب غيري، فأتعثر في مشيتي ولا أستطيع أن أواصل السير بطريقة اعتيادية. خائفاً يا أستاذ وأنا أستنشق هواء الخوف لما أصير تحت أضواء الكشافات وهي تقترب من سحنتي فأرتعب أكثر وستراتهم السميكة المرتفعة عند الصدر تزيد بعثرتي، فأقع ويحتارون في أمري. كما أنا الآن، محتار ملدوغ وأتفتت وأنا أتصور رأس صبيحة وهو مدفون في الرمل. فلما قام أحد الصبية برفعه تفكك بين راحتيه، وكانت عارية. أقسم أمامك أستاذ، انني لم أفضلها هكذا أبداً. لطالما حلمت أن تظل بثيابها وأنا أقوم بالباقي.

بالطبع بعضنا مفتون بالخدع السينمائية وبطولات المخرجين والفنيين وهم يتخيلون بعض المخلوقات مطمورة في باطن الأرض وقد وجت النار في الوجه والشعر. لم تستقر روايات الصبيان على شأن واحد أستاذ. فماذا سنأخذ وماذا سنترك؟ لكن الأستاذ أجاب، يا عبد الجبار، تلك المشاهد كانت صحيحة. فهل ذهبت إلى هناك أنت أيضاً ولم تذكر لي ذلك؟

أجبته في الحال: هل تريد مناداة المصور جاسم الزبيدي، بيده آلة التصوير وبيدي الكشافات بدلاً من أولئك الحراس الليليين، ونحن قبالة الجرف وعيوننا تنظر خلسة، أيدينا على الزر وليس في مقدورنا تجفيف العرق والدموع.

ألا ترى أستاذ، انني أتعرق ولا أستطيع النحيب أمام الموت أبداً، أبداً. فيما بعد الموت، وراءه بشهور أو أعوام. لكنني وللأمانة الموضوعية، كناقد انطباعي، وأنا أقولها أمامك ولأول مرة أستاذ، كنت أريد أن ينتقل بصري إلى تلك البقعة إياها. هي التي كتبت عنها مطولاً

ولمرات. أجل، هنا فتحت عيني تماماً أمام ذلك الحيز من بدنها فلم أر أي شيء. انتظر قليلاً لأشرح لك وما عليك إلا أن تفهم وبدون خبث. عليك أن تفهمه ولوحدك كما فهمته لوحدي. البقعة تلك، لا وجود لها مفهوم أم أفصل أكثر؟ المكان ذاك مسوّى على أفضل ما تكون التسوية، وهذه كلمات لا تقارب الافتراء. خالية نظيفة، البقعة تلك. كانت مجرد فسحة من اللحم تتمشى عليها دودة متواضعة، نهضت ووقعت ثم أصلحت حالها وهي تفرز مخاطها في مصب اللحم المسوّى لتعاود تفقيس البيوض. لا تنظر إليّ هكذا أستاذ أرجوك. لماذا لا تخفض صوت الموسيقى إياها، فمن الجائز أنه الغرق. هي لا تجيد السباحة. ذكرت ذلك يوماً لهدى يا عبد الجبار. لا، قالت في المخطوطة أنها وبدر ناما على سطح الفرات دون أن تستغيث أو تقاوم. تصور أستاذ هذه أول مرة أتجرأ وأقول أمامك أن ليس بمقدوري أن أضرب موعداً لفتاة لا في السماوة ولا في الحلة أو بغداد، حتى لو كان كذباً وأمام شاطىء مقفر ومليء بالقاذورات. لا أقدر التغرير بأية آنسة أستاذ لمجرد التسلية أو لتلميع شروط رجولتي، فأردد في آخر الليل أنني رجل. لماذا محتم أن أكون رجلاً؟ ومن بمقدوره الاعتراف أنه رجل؟ ومن يصون رجولتي إذا ما لحقها مقص الاستئصال. أستاذ، هل حقاً أنا رجل؟ هل مجرد وجود أعضائي التناسلية وحدها هي التي تقرر ذلك؟ أم غزواتي الجنسية التي أقيمها لوحدي، أم شروط خوفي وعجزي وخوري هي إيقاع رجولتي؟ هاك، خذ وانظر في وجهي. هذا شاربي الأشقر الكث، كلما أشذبه أخاف أكثر. أستاذ أنا لست مع، أو ضد، وأخاف من ترديد ذلك. وفي العمق أخاف أن لا أكون طاهراً. فكلما أغتسل في حمامنا في بيت الأهل في الحلة، أحس أن الزناخة صارت مثل عضو أصيل فيّ، فأشعر بالتحاسد والغيرة من مقدم اليافعين والفتيان الجميلين وهم يجوبون شوارع بابل وبغداد، عضلاتهم ليست خداعة وبشراتهم لماعة وأكتافهم تنتظر

أكاليل الغار ونياشين الاستغناء. إلى أمام يسيرون، ليل نهار ويرددون: رجال، رجال. أستاذ أرجوك، ركز معي هل صرت قاسياً مثلهم؟ لماذا هذا الصدود والصمت ثانية؟ هل تخيلت مثلي أنها كانت مغطاة بقصاصات صحف قديمة، أقدم من هذا العام وأبعد من العام ثلاثة وستين. هل تريد حقاً أن نأخذ عدداً من صحيفة «الغد» لكي يكتمل المشهد، ها ما رأيك أستاذ؟ فكل ما نعرفه أن الواقعة حصلت ولم نقرأها في الصحافة الوطنية والمكان في الكورنيش لا يتطلب إلا وجود شرطة الآداب بعدما شاعت الجرائم الغرامية في الفترة الأخيرة.

لكن الخالة فخرية لن تسمع بتفاصيل الواقعة. من أين لها أن تسمع وسمعها ثقل في الشهور الأخيرة، والطبيب النسائي وليد الخالدي كان يضع المراهم في طبلة أذن الخالة ويهمس سراً لابنة الأخت أنها حامل في الشهر الثاني وما عليها إلا كذا وكيت.

هل يعقل أستاذ أنك لم تنتبه لفتنة هذا الوقت من كل عام؟ هذا الفصل الذي تحبه أنت، كما صبيحة وهدى، كما مسلم التقي وأنا وباقي الربع؟ ألا تعتقد أن بعض الفصول صالحة للموت أكثر من غيرها؟ تغري، كما الأوراد بالشم، والعنبر بالطحن لتتفشى الرائحة على ما حولنا؟ ربما أنت لا تعلم مثلي، كيف تم التخلص منها. طلق ناري في البقعة المعتنى بها. أم جرى ذلك لمجرد أن أحدهم لم يحب أن يراها ثانية؟ ربما بسبب الطقس الجميل القادر على نقل البذور ولقاح الحياة بالموت حصل ما حصل. وهنا لا أحد سيعير رواية الصبيان أية أهمية والجثة تتراكم أمام الجميع. كأن صبيحة كانت على وشك الاعتذار من طول المكوث في الدنيا. كأنها قالت نعم، بلى وبطريقة هيمانة قبل ثوان من الواقعة.

والآن، أستاذ، لا أنت بمقدورك أن تمد لي يد المساعدة وأنا من المستحيل عليّ ذلك بالطبع. لا تمتعض أرجوك كما فعل أولئك الأولاد وهم يعلنون لرجال شرطة الآداب الحكاية الرسمية تلك. فمن المرجح

أنك لن تكتفي بهذا القدر من الوقائع يا عبد الجبار لكتابة مقالتك الأسبوعية، وها أنت تعود أدراجك إليّ وتريد تفسيراً عقلانياً لكل ما حدث ويحدث. وهذا تفكير أطفال يا عزيزي عبد الجبار:

ـ كلا، لست متفقاً معك أستاذ.

ـ لماذا؟

ـ ماذا قلت؟

ـ أنا، أنا، لم أقل شيئاً.

ـ وأنت هل قلت شيئاً؟

ـ كلا، أنا لم أتفوه بكلمة.

ـ غريب سمعت صوتك.

ـ وأنا أيضاً سمعت.

ـ ولكن أستاذ. . .

باريس، كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩

المصادر والأسماء

ـ **فرسان العروبة**. مذكرات الشهيد العراقي، العقيد الركن صلاح الدين الصباغ؛ تانيت للنشر. الرباط، المغرب. ط ١، ١٩٩٤.

ـ **دراسات نقدية في الأدب الحديث**؛ عزيز السيد جاسم. الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٥، عن الطبعة الأولى الصادرة عن مطبعة الإدارة المحلية. بغداد الصادرة، ١٩٧٠.

ـ كتاب؛ **أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق: ١٤ تموز ١٩٥٨**، للملازم فالح حنظل، الضابط في الحرس الملكي العراقي.

ـ هذا الكتاب حصلت عليه مصوراً عن طريق أحد أفراد الأسرة، وبواسطة الكاتب الذي يعيش في أبو ظبي. ولم تشر صفحات الكتاب أية إشارة إلى دار النشر، ولا تاريخ النشر، ولا البلد، إلا أبو ظبي في ١ نيسان ١٩٧١ في مقدمة المؤلف.

ـ **نشأة العراق الحديث**، الجزء الأول. تأليف هنري فوستر. ترجمة سليم طه التكريتي. الفجر للتوزيع والنشر. ط ١، بغداد، ١٩٨٩.

ـ **ثلاثة ملوك في بغداد**. تأليف جرالد دي غوري، الملحق العسكري في السفارة العراقية ببغداد. ترجمة سليم طه التكريتي. ط ٢، ١٩٩٠، منقحة ومزيدة. مكتبة النهضة العربية بغداد.

ـ **التطور السياسي المعاصر في العراق**. تأليف د. وميض جمال عمر نظمي، د. شفيق عبد الرزاق، د. غانم محمد صالح، الجمهورية العراقية، وزارة التعليم والبحث العلمي، الملزمة الأولى مفقودة وعليها تاريخ النشر.

ـ **ملحمة كلكامش** للدكتور طه باقر، ط ٣، وزارة الثقافة العراقية، بغداد، ١٩٧١.

ـ **مجلة الأقلام العراقية**؛ عدد ١٩٩٣/٨/٧، ملف خاص عن الناقد العراقي الكبير؛ عبد الجبار عباس بمناسبة وفاته المباغتة.